



غزناطه



رضوى عاشور



حفص التوش ٩٤

روايات الهلال

Rewayat Al Hilal



سلسلة
شهرية
لنشر
القصص
العالمية

تصدر عن

مؤسسة دار الهلال



رئيس مجلس الإدارة

مكرم محمد أحمد

نائب رئيس مجلس الإدارة

عبد الحميد حمروش

رئيس التحرير

مصطفى نبيل

سكرتير التحرير

محمود فاسم



ثمن النسخة

العدد ٥٤٤

أبريل ١٩٩٤ • ذو القعدة ١٤١٤ هـ

No.544-AP-1994.

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوي ٣٦ جنيهاً في ج . م .
ع . تسدد مقدماً نقداً أو بحوالة بريدية غير
حكومية - البلاد العربية ٢٥ دولاراً - أمريكا وأوروبا
وآسيا وأفريقيا ٣٠ دولاراً - باقى دول العالم ٤٠
دولاراً .

القيمة تسدد مقدماً بشيك مصرفى لأمر مؤسسة
دار الهلال .. ويرجى عدم إرسال عملات نقدية
بالبريد .

إك فى الكويت : السيد عبد العال بسيونى زغلول
ص . ب ٢١٨٣٣ (13079) ت : ٤٧٤١١٦٤
القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتدلين)
: : ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط) المكاتب : ص . ب :
٤ - القاهرة - الرقم البريدى ١١٥١١ - تلغرافيا :
- القاهرة ج . م . ع .

TELEX 92703 hilal u n
FAX 3625469

إهداء ٢٠٠٥

أ/إبراهيم منصور خنيم

القاهرة

غرناطة

بقلم

د. رضى عاشور



دار الهلال

الإهداء
إلى ابني تميم

الغلاف للفنان :
حلمي التسوي

ذلك اليوم رأى أبوجعفر امرأة عارية تنحدر فى اتجاهه من أعلى الشارع كأنها تقصده. اقتربت المرأة أكثر فأيقن أنها لم تكن ماجنة ولا مخمورة. كانت صبية بالغة الحسن ميادة القد، ثدياها كأحقاق العاج وشعرها الأسود مرسل يغطى كتفها، وعيناها الواسعتان يزيدهما الحزن اتساعا فى وجه شديد الشحوب.

ولما كان الشارع مهجورا والحوانيت لم تزل مغلقة وضوء النهار لم يبدد بنفسج السحر بعد فقد بدا لأبى جعفر أن ماشاهده رؤيا من رؤى الخيال. حدّق وتحقّق ثم غالب دهشته وقام إلى المرأة وخلع ملفّه الصوفى وأحاط به جسدها وسألها عن اسمها ودارها فلم يبد أنها رأتة أو سمعته. تركها تواصل طريقها وظل يتابع مشيتها الوثيدة وحركة خلخالها الذهبيين حول كاحلين لوثتهما وحول طريق تخوض فيه قدماها الحافيتان.

ورغم البرد القارس وصفير رياح تعصف بأشجار الجوز المغروسة على جانبى الطريق بقى أبوجعفر واقفا

بباب حانوته حتى أرسلت الشمس خيوطا صفراء واهية
حددت معالم الشارع.

فى الحانوت تبادل مع نعيم كلمات معدودة ثم انتحى
ركنا وجلس صامتا. لم يفت الصبى وجوم معلمه فاستبدل
بصخبه المعتاد حركات وجلة محكمة، وراح يعمل بين
رغبة فى إتقان عمله إرضاء له وقلق عليه يشتهه ويدفعه
الى اختلاس النظر إليه بين لحظة وأخرى.

- ما اسمك يا ولد ؟

كان الرجل مديد الطول مهيب الهيئة لا يختلف
مظهره عن أولئك الكبار الذين يفزعونه فما إن
يستوقفه واحد منهم حتى يقفز مبتعداً كأرنب
برى نفور. رفع عينيه متسلقا الجسد العالى حتى
وهل الى عينيه، كانتا زرقاوين وديعتين . لم
يركض، تمتم

- نعيم.

- وأين أهلك يانعيم ؟

- رحلوا أو ماتوا.. لا أدري .

مد أبو جعفر يده وأطبقت كفه الكبيرة على يد
الصغير الذى تبعه يفتح ساقية على اتساعهما
ليواكب خطوته .

أطعمه أبوجعفر وأواه وعلمه اسرار الحرفة،
دربّه على دباغة جلد الماعز وصباغته وإعداده،
وعلمه ترتيب أوراق المخطوط ولصق الغلاف،

سمح له بالقيام بكافة المهام باستثناء مهمتين كان يفضل أن يقوم بهما بنفسه ويطلب منه متابعتها لكي يتعلم: يلصق الخيط في المخرز وبدقة وببطء يمرر المخرز والخيط في كعب المخطوط مرة وثانية وثالثة ورابعة ذهابا وإيابا حتى يحكم خياطته. ثم يترك له لصق الكعب في الغلاف ووضع الكتاب في المكبس وبعد أيام عندما يخرج الكتاب من المكبس يقوم أبوجعفر بكتابة العنوان واسم المؤلف واسم المالك بماء الذهب أو بغيره حسب الطلب ثم يزين الغلاف ويخرفه.

يتحرق أن يسمح له معلمه أن يقوم بذلك ويلح فيناوله ورقة وهو يبتسم.

- هاك ورقة أكتب عليها القاتحة.

فيشعر بأنه وقع في شر أعماله لأن خطه كان يتعرج صعودا وهبوطا كالسكة الجبلية.

- هل أنت مريض يا أبا جعفر ؟

لم يجبه أبوجعفر ولم يلتفت إليه بل ظل مطرق الرأس زائغ العينين، شاردا. انقضى النهار وطيف الصبية ماثلا أمام عينيه. كان مضطربا وحزينا وإن لم يملكه التوجس إلا في اليوم التالي حين سمع بأمر اجتماع الحمراء وترددت الشائعات عن غرق موسى بن أبي الغسان في نهر شنيل، فهل تكون الصبية العارية إشارة صادقة كالرؤى والنبوءات ؟

استتب تطيره وترسخ في قلبه بعد أيام معدودة عندما

حكى له نعيم عن امرأة وجدوا جثتها عارية تطفو على صفحة النهر. سأل: :

- فى حدره أم شنيل؟

- فى شنيل.

- إذن لا مقر !

تطلع اليه نعيم مستفهما ولكن أبا جعفر ظل صامتا ولم يفسر شيئا من كلماته. ابتلعت دوامات النهر الأمل الباقي وانفرط عقد الأمة وتيتمت العباد.

لثلاث ليال لم تنم غرناطة ولا البيازين. تحدث الناس بلا انقطاع ليس عن المعاهدة بل عن اختفاء موسى بن أبى الغسان. استغرقهم الخبر الذى انتشر من نهر شنيل إلى عين الدمع ومن باب نجد إلى مقابر سهل بن مالك. سرى فى الشوارع والحوارى والجنات. حمله ماء شنيل من أطراف المدينة ثم دخلها مع نهر حدره وانتقل إلى ضفته الغربية ومنها إلى السبيكة والحمراء وجنة العريف، وإلى ضفته الشرقية ومنها إلى القصبة القديمة والبيازين ثم تجاوز الأسوار والأبواب والأبراج وأطواق الكروم إلى جبل الثلج من ناحية وجبل الفخار من الناحية الأخرى.

قال البعض إن ابن أبى الغسان خرج من اجتماع الحمراء وقد قرر أن يقاتل القشتاليين وقاتل جموعهم وحده ولما أصابوه وكادوا يظفرون به ألقي بنفسه فى النهر.

وقال البعض الآخر بل قتله محمد الصغير لينفذ

مايريد دون مخالفة ولا معارضة. سلم الشقيتو المنحوس
البلد وباعها وما كان بإمكانه أن يفعل وابن أبى الفسان
يقف له بالمرصاد.

وقال فريق ثالث لا أغرق نفسه ولا قتلوه بل صعد إلى
الجبال ليدرّب الرجال ويستعد.

وقال فريق رابع غرق أو لم يغرق لا فرق، ليس هذا
زمانه ولا زماننا فلنحمل ما نقدر عليه من متاع ونرحل
فبلاد الله واسعة أو نبقى مسلمين أمرنا لله وللأسياد
الجدد ونعيش.

كيف ؟ ! كان السؤال يقطع فى روح أبى جعفر كنصل
باتر يتّقيه كباقي العباد بالحديث مع نفسه ومع الآخرين.
وكان يحدث نفسه حين مر المنادى معلنا بنود الاتفاقية.
اتجه اليه ووقف ملاصقا له. استمع إلى شروطها كاملة
من شرطها الأول الذى يقضى على ملك غرناطة والقادة
والفقهاء والحجّاب والعلماء والمفتين والوجهاء بتسليم
المدينة فى مدة أقصاها ستون يوما حتى شرطها الأخير
الذى يقضى بتعهد الملك فرديناند والملكة إيزابيلا بتنفيذ
كافة ماورد فى المعاهدة والتزام من يخلفهما من أبناء
وأحفاد بما جاء فيها. وعندما تحرك المنادى قاصدا مكانا
آخر تبعه أبوجعفر.

الناس فى غرناطة تسمع وتتقصى وتجمع التفاصيل
وحين يعلن المنادى الخبر أو يعتلى إمام المسجد المنبر قبل
صلاة الجمعة يسهب فيه ويفسره ويدافع عنه. ينصت

الناس من باب التأكد أو المضاهاة ويملاؤن بأنفسهم الفراغات بالحقائق التي جمعوها وأسقطت من القول المعلن.

ورغم أن المنادى لم يعلن ولا إمام المسجد أشار إلى تفاصيل اجتماع الحمراء الذي أقر المعاهدة فقد عرف أبو جعفر كغيره من أهل المدينة ما دار فيه:

أبو القاسم بن عبد الملك ويوسف بن كماشة، الوزيران اللذان أوفدهما الملك للتفاوض، دخلا القاعة بصحبة دي ثافرامندوب ملكي قشتالة وأراجون. وكان ثلاثتهم يحملون نص المعاهدة لقراءتها. بكى أبو عبد الله محمد الصغير وقال إن الله كتب عليه أن يكون شقيا وأن يتم ضياع البلاد على يديه. انتحب الوزراء والقادة والعلماء ورددوا لا حول ولا قوة إلا بالله ولا راد لقضاء الله. اعترض موسى بن أبي الفسان على الاتفاق وطالب الحاضرين برفضه ولما لم يجد من يسانده غادر القصر غاضبا واعتلى حصانه واختفى. كرر الحاضرون أنه لا مفر من قضاء الله وأن شروط المعاهدة أفضل ما يمكن الحصول عليه... بكوا ووقعوا.

كيف يتعهد ملك بتسليم ملكه ؟ وكيف يقضى بتعهد قادة البلاد وفقهائها وكافة أهلها بأن يسلموا طواعية قلاع الحمراء وحصنها وأبراجها وأبواب غرناطة والبيازين وضواحيها ؟

سار أبو جعفر خلف المنادى في حشد كبير من الناس.

زاغت العيون من العيون، والرأس مال يحجب مرآته
المكسورة ورعشة الجفنين، والذراعان انهدلتا على
الجانبيين. تحركت الأقدام وثيدة ثقيلة فى فضاء صامت
يتأكد صمته مع رنين صوت المنادى وحفيف أوراق الشجر
المصفرة الجافة.

ولما ذهب المنادى وانفرط الحشد وجد أبو جعفر نفسه
يسير وحيدا فى برد الشارع لا يقصد مكانا بعينه بل تحمله
قدماه اللتان تألفان الطرقات. يقول لنفسه هذا المنحوس
ليس أولهم ولا آخرهم. يقول سيذهب أبو عبد الله ولن
يخلفه - منحوس أو غير منحوس - سوى ملوك الروم.
تتزعزع أحشاؤه للخاطرة فيدروها عن نفسه، يغلق دونها
بابه ويحشد وراءه الأسانيد والوقائع والحجج. كل شىء
يتبدل الا وجه الله ذى الجلال. ألم يعقد السلطان يوسف
المول معاهدة أخط وأسوأ مع القشتاليين وجاء السلطان
الأيسر وألغى المعاهدة وحاربهم ؟ والسلطان أبو الحسن
كان يدفع الجزية ثم توقف عن دفعها ورد رسولهم: " قل
لملكى قشتالة إن دار السك لا تنتج الا السيوف هذه الأيام".
وهذا الزغيبى المنحوس ألم يبدأ ولايته بمقاتلتهم حتى
أسروه ؟ من يدري ما الذى يحدث غدا ؟! ليس أولهم ولا
آخرهم، جاء كما جاء سواه ويذهب كما ذهبوا وتبقى
غرناطة محروسة بإذن الله وإرادته .

كان يجتهد فى تهدئة نفسه المطوقة وهى تضرب
بجناحيها مستريعة على حد السكين. يكرر لها غرناطة
محروسة وباقية، يشاغلها بالكلام، يمد لها عبر الشباك
يده، يلامس ريشها المبتل وبدنها الراجف، يحنو ويعطف

وُيربّت ويغنى لها همسا أغنية أليفة تطيب لها.

مالت شمس الضحى على الطرقات ثم مالت أكثر
وغابت ، وأبوجعفر يواصل السير حتى وجد نفسه على
ضفة شَنِيل. حدّق فى مائه فأتاه طيف الصبية عارية
كأنها تخرّج من الماء اليه ثم حدّق فلم ير سوى تجعيدات
الماء ثم عاد فرأى الصبية على صفحته عاجية تكبر فى
الموت حتى غطت صفحة النهر فارتج جسده وراح يتصبب
عرقا .

كان أبو منصور جالسا على مصطبة المعلم فى الحمام
يمين البوابة. رد تحيتهما متمتما وأشار بيده الى الخزانة
التي صفت فيها المناشف المطوية النظيفة. حمل سعد
ثلاث مناشف وصعد خلف سيده الدرجات الثلاث التي
توصل الى المقصورة الغربية حيث عاونه على خلع ملابسه
وستر عورته بإزار لفه حول خاصرته. طوى ملابس سيده
بعناية ولفها فى منديل حريرى كبير ثم خلع ملابسه سوى
السروال وصرها فى منديل قديم. أسلم اللفافة الكبيرة
والصرة الصغيرة الى أبى منصور الذى أومأ برأسه ولم
يقبل شيئا ولم يتطلع اليه.

قبل أن يدلفا الى الحمام الجوانى دخل سيده إلى بيت
الخلاء فجلس سعد على إحدى المصطبتين الشرقيتين
ينتظر. لم يكن فى الوسطانى إلا ثلاثة رجال. جلس اثنان
منهم كل على مصطبة فى مواجهة سعد وراح الثالث الذى
كان طويلا ونحييفا يقطع القاعة ذهابا وإيابا بين بابها
المفضى إلى البرانى وبابها المفضى إلى الجوانى.

ترى ما الذى أصاب أبا منصور ؟ كاد سعد يسأله إن
كان مريضا ولكنه استحي. ليس من عادته أن يجلس فى

المدخل كغيره من أصحاب الحمامات بل يُجلس أحد معاونيه لتسلم الأمانات وينطلق فى حركة نشطة بين الجوّانى والوسطانى حاملا صابونة لهذا وطستا لذاك، مئزرا أو منشفة، يحكى الملح ويطلق النكات ويثير قهقهات رواد الحمام الذين يمسون خصوصهم من شدة الضحك. كان رجلا بدينا فى الخمسين أو الأربعين من عمره بشرته وردية وملامحه دقيقة وذقنه ملساء، له رأس صغير وكرش كبير يهتز اهتزازا وهو يضحك. لكنه اليوم كان يجلس ساهما زاهدا فى أى سلام أو كلام. "من الذى يضمن ؟ ! من الذى يضمن ؟!"

رفع سعد عينيه فرأى الرجل النحيل يمر من أمامه فى دورته المتكررة وهو يتمتم بهذه الكلمات لنفسه ويواصل المشى وقد ارتفع كتفاه الضيقان حتى كادا يلامسان أذنيه. صاح أحد الرجلين الجالسين مقابل سعد: "أصبتنا بالدوار يا أخى لم لا تهدأ وتجلس مثل الناس" ولكن الرجل لم يعره اهتماما واستمر فى دورته وتمتماته.

كان الجوّانى مكتظا بالرجال ، منهم من جلس على بلاط مصطبة بيت النار يتصيب عرقا من البخار، ومنهم من نزل المغطس ليسقط الجنابة قبل الحمام، ومنهم من استلقى على ظهره أو بطنه مسلما نفسه لخادمه أو لغيره من العاملين فى الحمام يكيسه أو يُلَيِّفه أو يسكب الماء الساخن على رأسه. وكانوا جميعا يشاركون فى الحديث فتتقاطع أصواتهم من طرف الحمام إلى طرفه الآخر، حتى من دخل منهم المقصورة الخاصة بإزالة الشعر كان يسهم بما لديه من وراء الستار الذى يحجب عريه الكامل .

جلس سعد وسيده متربعين فى مكانهما المعتاد بالقرب من أحد أجران الماء الساخن. مد سيدة ذراعيه على امتدادهما وغسل سعد الكيس وصبّنه ثم بدأ بتكليس اليد اليمنى فالذراع اليمنى وتحت الإبط ثم انتقل الى اليد اليسرى. قال أحدهم:

- يا أبا جعفر ... يا أبا جعفر الله يرضى عليك، نحن لانختار بين بديلين بل هو قدر مكتوب. نحن مهزومون فمن أين الاختيار ؟!

قاطعه آخر :

- أنا معك، الاتفاقية شر لا بد منه . كان مولانا فى مأزق والمواجهة التى كان يريدّها ابن أبى الفسان محكوم عليها سلفا فما الذى يملكه أو نملكه نحن أمام جيوشهم الجرارة والانفاط المباردية الجديدة ؟!

قال أبو جعفر :

- بإمكاننا محاربتهم ، أقسم برب الكعبة أنه بإمكاننا محاربتهم.

كان سعد يتابع الحوار بأذنيه ولا يملك أن يرى أيا من المتحدثين اذ كان يجلس مقابل سيدة لا يرى من الحمام سوى الحائط وجرن الماء الى يساره.

- ولماذا نحاربهم ألم تكفنا عشر سنوات من الحرب ؟! هل تريد أن يحل بنا ماحل بأهل مالقة فنأكل البغال والحمير وأوراق الشجر ؟!

- سينكلون بنا بعد التسليم ، والمعاهدة ليست الا ورقة
لا قيمة لها. لو سلمناهاهم غرناطة فسيفرضون علينا
الركوع حين يمر ركب القساوسة، ويرغموننا على الحياة
فى حى مغلق ليس له الا باب واحد ويشرعون سيف
الترحيل على رقابنا. ما الذى يمنعهم من فعل ذلك حين
يملكون البلد ويصبح لهم ؟!

انبطح سيده على ظهره فارتكز سعد على ركبتيه ومال
بجذعه وفرك له صدره وبطنه ووجه ساقيه ثم انقلب
سيده على بطنه ففرك له سعد ظهره.

- التسليم يرد شرهم عنا ويحفظ لنا حقوقنا .
- كيف ؟!

كررتها أصوات متتابعة فى حدة أقرب الى الصراخ .
أزاح سيده يده واعتدل جالسا.

- المعاهدة تنص على معاملتنا معاملة شريفة واحترام
ديننا وعاداتنا وتقاليدينا وحريتنا فى البيع والشراء.
ومن حقنا الاحتفاظ بأملاكنا وأسلحتنا وخيولنا، ومن
حقنا اللجوء الى قضائنا للفصل فى خلافاتنا. حتى
أسرانا سيعودون الينا أحرارا معافين.

- حبر على ورق !

واصل سعد التكييس وعندما انتهى مد يده إلى سيده
ليشاهد بنفسه فتائل الوسخ التى أطلعها من جسده
والتي يطلب رؤيتها كل مرة لكى يتأكد من أن خادمه
أحسن فرك جسمه .

أمسك سعد بالطاس واغتترف ماء ساخنا من الجرن
وسكب على سيده ثم بدأ فى تصبين رأسه.

- لو رفضنا المعاهدة وصمدنا ستأتينا النجدة من عدوة
المغرب ومن مصر ومن بنى عثمان .

- لن يأتينا شئ !

- لا لن يتركونا نواجه وحدنا !

- أنا مع أبى جعفر، وابن أبى الغسان لم يمت كما يشيع
المغرضون. لن يفلت القشتاليون منا، نحن من أمامهم
ورجال ابن أبى الغسان من خلفهم وأساطيل مصر
والمغرب وبنى عثمان تطبق الحصار عليهم فلا يكون لهم
من خلاص سوى الموت .

أشار له سيده بالتوقف عن سكب المزيد من الماء
الساخن على رأسه وقال وهو يضغط على مخارج الألفاظ
وينطقها ببطء وقوة:

- غرناطة ساقطة لا محالة وابن أبى الغسان كان أحرق
يريد لنا خوض قتال لا قبل لنا به. الحمد لله أنه مات
وأراحنا واستراح !

لم يفهم سعد ما الذى حدث اذ قفز سيده فجأة من أمامه
وانطلق راكضا . استدار سعد فاذا بأبى منصور يمسك
بعصا غليظة ويركض مهتاجا. متى دخل أبو منصور
الحمام ؟ ومن أين أتى بتلك العصا وما الذى حدث ؟ كان
أبو منصور يزأر متوعدا ويصيح :

- مركوب ابن أبى الغسان أشرف منك ومن ألف من
أمثالك يا كلب يا ابن الكلب .

سقط إزار سيده وهو يركض فزعاً من عصا أبي منصور الذى استمر فى ملاحقته وهو يصرخ :
- أمك الساقطة وليست غرناطة. يا غراب الشوم، أخرج من حمامى والاقتلتك !

اندفع المستحمون لكى يحولوا بين أبى منصور وضرب الرجل، من كانوا فى المقاصير المستورة أو فى المغطس خرجوا عراة كما ولدتهم أمهاتهم ومن كان جالساً أو راقداً يتحمم سقط عنه إزاره فى الركض المفاجئ ووقف سعد مشدوهاً يعى أن عليه اللحاق بسيده ولا يتحرك كأنما تثبتت قدماه فى الأرض .

أن تهيم على وجهك نهارة وتستقبل المساء جالساً فى زاوية المسجد تؤلك قرصة الجوع ولا ينقذك منها سوى النوم متدثراً بملفك الخشن ... ما الجديد فى ذلك ؟

لم تكن المرة الأولى التى يجد فيها سعد نفسه بلا مورد رزق تواجهه أيام يبدو المستقبل فيها كضباب شتائى يجثم عليه الضباب فلا يكاد المرء يبصر فيه موقع قدميه .

فى تلك الأيام كان يجتر الماضى، الماضى الأبعد والفصلين ينمو تلقائياً، والماضى الأقرب وقد صار مقطوعاً من الشجرة تتقاذفه الرياح. وكلما استعاد ما مر به تحضره تفاصيل جديدة أفلتت من ذاكرته فيدهشه أنها أفلتت ويدهشه أكثر ظهورها المفاجئ فيوقن بعد تأمل أن لا شئ يضيع وأن عقل الانسان صندوق عجيب، صغير مادام محمولاً فى الرأس، ويحتفظ رغم ذلك بما لا يحصى

أو يعد : رائحة البحر، وجه أمه، خيوط صفراء واهية
تنفذ في خضرة أوراق الكروم المبللة بقطرات المطر،
خيوط الحرير على نول أبيه، سعلة جده في الصباح،
ضحكات الصغيرة، مذاق حبة لوز أخضر، جرة مكسورة
يسيل الزيت منها، وحبّة مسبحة مفروطة تدحرجت إليه
في مخبئه خلف الخزانة .

بعد ثلاثة أيام من البحث عن العمل نهارا والنوم في
المسجد ليلا فكر سعد في طلب المساعدة من أبي منصور،
قال له :

- تركت سيدي، أقصد طردني سيدي وأبحث عن عمل .
- هل تعرف حارة الوراقين ؟
- أعرفها .
- اذهب إلى هناك واسأل عن حانوت أبي جعفر، قل له
إنني الذي أرسلتك إليه .
- ثم أردف :
- ان لم يجد لك عملا، عد إلى .

قال أبو جعفر وهو يقوم لمواصلة عمله:

- عليك أن تراقب كل ما أقوم به وما يقوم به نعيم. وإن
شاء الله تتعلم بسرعة ... هل تقرأ وتكتب ؟
- لا .
- هذه مشكلة أخرى علينا التغلب عليها . تعال يا نعيم
هذا سعد جاءنا من مالقة، سيكون رفيقك في العمل
وعليك أن تساعدته، ألم تعد معلما ماهرا ؟!

ابتسم نعيم باعتداد للمهمة الموكلة إليه ولكن سعدا لم

يبتسم وهو ينظر إلى نعيم إذ رآه صبيا صغيرا له جسد
نحيل وعينان عسليتان تلتمعان ببريق مكرر. لم يكن سعد
قد تجاوز الثالثة عشرة من عمره ولكنه كان يشعر بأنه
رجل ولم لا وقد بلغ ونما جسمه واخشوشن صوته وخط
شاربه فكيف يعلمه هذا الصغير الذى بدا له كفار مكتوم
اللون !؟

وفى الليل تأكدت مشاعر سعد تجاه الولد وازداد منه
نفورا إذ كان ثرثارا يتحدث بداع وبلاداع. راح نعيم يسأله
عن مالقة وعن أبيه وعن أمه وكيف وصل الى غرناطة
وحده ولماذا لم يبق معهما وأين كان يعمل قبل مجيئه إلى
أبى جعفر .

كان الولد يسأل بلا كلل وسعد لا يرغب فى الإفضاء
بشئ فيجيب إجابات مقتضبة أو مراوغة .

ولما وجد نعيم أن سعدا ليس لديه ما يحكيه انطلق
يحكى له عن نفسه. قال انه لا يعرف، لا يذكر، لا أمه ولا
أباه. كل ما يذكره هو تلك العجوز التى كانت ترعاه ولما
ماتت لم يجد سوى الطرقات، ثم التقى بأبى جعفر .

- تعرف يا سعد، أنا لا أخاف المشى فى الطرقات ليلا ولا
الكلاب الضالة ولا متولى الشرطة وهو يسير منتفخا
كأنه كيس طحين، حتى العفاريات لا أخافها. يخيفنى فقط
أن يمرض أبو جعفر أو يصيبه مكروه.

قالها نعيم وقد اكتسى وجهه بمسحة حزن مفاجيء.

مرت لحظة صمت ثم واصل حكايته .

- حملنى أبو جعفر من الطريق الى أم جعفر وطلب منها أن تحممنى وما ان سكبت على رأسى الماء الساخن حتى صحت بأعلى صوتى وقفزت بعيدا وفى نيتى الهرب من البيت لكنها قبضت على وقرفصت وأجلستنى عنوة وأحاطت صدرى بذراعها اليسرى وخصرى بساقها القويتين فلم أعد أملك سوى الصياح طالبا النجدة وكلما علا صوتى فركت جسمى بقوة أكبر حتى بدا لى أننى سأموت بين يديها. حممتنى النهار بطوله .

- النهار بطوله ؟

ضحك نعيم :

- هذا ما شعرت به ساعتها !

لم يكن المؤذن قد أذن لصلاة الفجر بعد ولا ديك الجارة صاح صياحه المتكرر عندما انطلق حارس من حراس الحمراء الذين أنهيت خدماتهم يركض فى الطرقات صائحا بكلمات غير مترابطة بعضها مفهوم وبعضها الآخر غامض. كان الصوت الموتور العالى يقول من بين مايقول إن جنود الروم يدخلون الحمراء اليوم ويتسلمون مفاتيحها.

قام أبو جعفر من نومه وراح يحسب الأيام مرة فى عقله ومرة على أصابعه، وجدها سبعة وثلاثين يوما.

ظل جالسا فى مكانه. سمع صياح الديك مرة ومرتين وثلاثا ثم أذن المؤذن وطلع النهار وتقدمت ساعاته.

الصوت الذى أيقظ أبا جعفر أيقظ سعدا فجلس واجما فى عتمة الحانوت لا يدرى إن كان ماسمعه حلما أم علما ثم قام وانتعل سباطه وتدثر بملفه الصوفى وخرج الى الطريق.

مشى يتابع الأزقة الملتوية الهابطة الى باب الدقاق.

وعندما اجتازه طالعت التلة الحمراء غائمة فى بنفسج
السحر والقصور من فوقها ناهضة تحمى أسوارها
وأبراجها. لعله كان كابوسا. تقدم إلى قنطرة القاضى
وعبر إلى الجهة الأخرى من النهر ثم عاد وعبر القنطرة
ثانية إلى جهة البيازين وصدق فى ماء النهر. كان حدره
يجرى فى أمان الله وشجرة التين التى أكل من تينها
الأخضر قبل شهر قليلة على حالها واقفة. تعرت غصونها
ولكن الغصون هناك. تطلع الى أعلى الطريق، كان
مهجورا مازال. سار باتجاه قنطرة الهراسين وجلس على
مصطبة حجرية على ضفة النهر وراح ينتظر. رأى الأفق
من وراء القصور يتلون بورد الصباح أرجوانا غائما
ممزوجا بزرقة السحر ثم يشتعل أرجوانا صريحا. كانت
الشمس على شروق ثم أشرقت فى سكون مطبق يعززه
تفريد عصفير متفرقة. ثم طلع النهار وتحدت الحمراء
بكامل هيبتها: الأسوار المسننة التى تستعصى، والأبراج
العالية، والقصور المنيفة، وأشجار السرو والنخيل
خصيبة وسامقة و معتده. هدا وكاد يدير ظهره ويمضى
عائدا الى الحانوت ولكنه سمع صوتا واهنا، أرهف أذنيه،
تأكد. كان صوتا بعيدا ويقترب. بعد فترة مئز قرع
الطبول ونفخ الأبواق ورنين المثلثات . هل يتقدمون
لتسلم الحمراء ؟ هل يتقدمون من الجهة الشرقية حيث لا
يملك رؤيتهم ؟ هل صبح كلام الرجل ؟ ظل متحجرا فى
مكانه يتابع قرص الشمس . كان صوت الموسيقى يزداد
اتضاحا ويعلو فتتسارع دقات قلبه وتسرى فى بدنه ، رغم
البرد القارص، وجفة المحموم .

قرب الضحى رأى سعد جنودا قشتاليين يرفعون صليباً

فضيا كبيرا فوق برج الحراسة. وعندما انتهوا من تثبيته رفعوا علم قشتالة وراية القديس ياقب ثم صاحوا بلغة أعجمية كلاما لم يميز منه سوى اسمى فرديناند وإيزابيلا، ردّوه ثلاثا ثم دوت الطلقات فى الفضاء .

لم ينتظر سعد المزيد بل ركض كالمسوس صاعدا تلة البيازين حتى إذا وصل الحى راح يعوى فى الشوارع: «دخلوا الحمراء، رأيتهم»، «أخذوا الحمراء، سمعتهم»، «يا أهل البيازين، رأيتهم، سمعتهم»

كانت الطرقات مقفرة، لا بشر، لا دواب، لا طيور، والأبواب مغلقة كأبواب القبور وهو يعوى بينها ويركض حتى وجد نفسه فى الحانوت عاريا من ملّقه الصوفى وسباطه. انهد جالسا وانخرط فى النسيج.

فاجأ سعد نعيما فوقف حائرا لا يدرى ماذا يفعل أو يقول ثم تحرك متعثرا يبحث عن جرة الماء ليفرغ منها شربة لزميله.

٣ ماذا حدث يا سعد . . لماذا تبكى هكذا ؟

ولكن سعدا كان يواصل انتحابه ولم يملك نعيم سوى أن يعود لجرة الماء. ملأ طستا وحمله الى صاحبه مسح له وجهه برفق ثم انحنى على قدميه وراح يغسلهما من وحول الطريق وأثار الدماء التى خلفتها الحجارة والأشواك.

قضى أبو جعفر يومه فى محل نومه، يجلس ويقوم، يدور بين الجدران الأربعة. هل أخطأ وأخطأ كل أهل البيازين حين ساعدوا أبا عبدالله فى التمكن من حكم

البلاد ؟ ناصروه واشتبكوا مع أهل غرناطة من أجل هذا
الزغبى المنحوس . ساعتها لم يبد الفتى شقيا أو
منحوسا بل وعدا يُخلصهم من مظالم أبيه الفارق حتى
أذنيه فى الملذات. انحازوا الى ابن الحرّة وأغلقوا أبواب
البيازين فى وجه الطاغية أبيه فارتد عن الأسوار خائبا
مخلوعا. هل أخطأوا فى الانحياز - وهم المظلومون - الى
أمير مظلوم ؟ هل أخطأوا حين نصّبوا الوعد بأمير عادل ؟
وما الذى أصاب الأمير الفتى . . . هل أعطبه الأسر
وهزمت الهزيمة أم أنه المسطور فى اللوح المحفوظ ؟ وهل
يسطر الله فى لوحه هزيمة عباده الصالحين ؟ تأخرت
النجدة . . . تأخرت . . . ولكنها قادمة من أهلنا فى مصر
والشام والمغرب . . . سيأتون بأمر الله وإرادته . . . وان لم
يأتوا ؟!

تطلع أبو جعفر من طاقة فى الجدار الى الفضاء . لا
أرض بلا سماء : يا أحكم الحاكمين يا صاحب الزرقاء
العالية يا وعد الحق .. يا الله .

مالت شمس الضحى ثم مالت أكثر فى سكون. وأتى
المساء وتوغل، واستتب الليل، والناس فى بيوتهم
واجمون. وكما لم يخرجوا فى النهار إلى أعمالهم لم يأووا
فى الليل الى فراشهم، وبقيت المدينة التى أطبق الصمت
عليها فى الصباح صامتا فى الليل أيضا ولكن أحدا لم
ينم حتى الصغير حسن الذى ضربته أمه ضربا مبرحا لم
يفهم له سببا .

كان حسن قد خرج للعب فى الزقاق مع رفاقه ولما لم

يجد أحدا منهم مر على أخوين فى بيت مجاور فاستبقته
أمهما ليلعب معهما فى الدار.

لم تنتبه أم حسن لخروجه ولا لغيابه ولما انتبهت
أصابها الهلع وبحثت عنه فى الحوارى المجاورة فلم تجده.
وما إن دخل الصغير البيت ورأته حتى انهالت عليه
بالضرب الشديد. بكى الولد وصاح مستنجدا بجدته التى
هرولت إليه وانتزعته من بين يدي أمه وهى تصرخ فيها
موبخة .

قضى حسن باقى اليوم منكمشا فى ركن من أركان
الدار. أعرض عن مشاركة أخته سليمة اللعب وبقي
مقرفصا فى مكانه تنحدر الدموع من عينيه ومسحها بظهر
كفه ويمسح مخاطه فى طرف كفه فى صمت.

ما الذى أصاب أمه ؟ هل فقدت عقلها وأصبحت
مجنونة كذلك الرجل الذى يسكن الزقاق المجاور ويخافونه
ويركضون فزعا لمجرد رؤيته ؟ لم تضربه أمه أبدا حتى
عندما كان يتسبب فى كسر جرة أو إضاعة دراهم. ضربته
كثيرا وبلا سبب، وعندما انتزعته جدته من بين يديها
ظلت أمه تنتحب. كان خائفا منها وخائفا عليها، يبكى
لأنها ضربته ويبكى أكثر لأنها تبنى. قالت له جدته وهى
تعطيه قطعة من الحلوى وتمسح دموعه. "اليوم دخل
القشتاليون غرناطة، خافت أمك، ظننت أنهم سرقوك
لبيعك فى السوق" ولو سمع حسن هذا الكلام من جدته فى
وقت آخر لضحك فهل يباع الصغير كالحمير فى
الأسواق ؟! وهل تظنه حمارا ليصدقها ؟!

نادته جدته لإطعامه فلم يُلَبِّ دعوتها ولا هي كررتها ولما
أوى الى فراشه بقى مؤرقا يفكر فى سلوك أمه الغريب
وسلوك جده أبى جعفر أيضا. ضربته أمه وعلا صوته
بالبكاء ولطمت هى وجهها وانتحبت، وكان جده فى الدار
ولكنه لم يحرك ساكنا كأنه لم يسمع. فما الذى جرى
لأهله اليوم . . . ما الذى جرى ؟ !

لم يجد حسن إجابة على سؤاله لا فى تلك الليلة ولا فى
الليالى التالية. حتى عندما صار عمره سبع سنوات
وامطحبه جده الى فقيه ليعلمه كانت ذكرى ذلك اليوم
تستحضر له لغزا يستعصى. عرف انه كان يوما حزينا
لكل أهل غرناطة وان القشتاليين كانوا قد أخذوا نساء
وأطفالا ورجالا أيضا من قرى مجاورة وباعوهم فأصبحوا
عبيدا. ولكنه لم يفهم لماذا ضربته أمه بهذه القسوة ولا
استطاع إدراك كيف يبيع رجل رجلا مثله أو طفلا أو
امراة. ثم إنه لم ير فى جنود قشتالة ما ينفر أو يخيف.
كانوا كغيرهم من الرجال لا تميزهم عن أبناء العرب سوى
بشرتهم الأكثر توردا وملابس مختلفة تشير إعجابه
بستراتها الغربية وسراويلها الضيقة والقبعات التى
كثيرا ما يعلوها ريش ملون. وكان هؤلاء القشتاليون
يبدون فى أبهى حالاتهم حين يعتلون خيولهم ويمرون فى
ركب تسبقه البيارق الملونة وحاملو الطبول وناقضو
الأبواق فيصبح الطريق بهيجا كيوم العيد .
فلماذا كل هذا الحزن لدخولهم المدينة ؟ !

لو قُدِّرَ لأهل غرناطة قراءة الغيب هل كانت تبدو السنوات القليلة التي أعقبت ضياع بلادهم قاعا، لاقاع بعده، للمهانة والانكسار ؟ عاشوا هم يومهم لا يَهَوْنَ عليهم ماورد في المعاهدة من ضمانات تصون حقوقهم في التجارة والعبادة وممارسة حياتهم بالشكل الذي يرتضونه، ولا يخفف من وطأته أن الكونت تانديا حاكمهم الجديد كان يسوسهم برفق وأن دى تالافيرا كبير أساقفة غرناطة كان يجتهد، رغم شيخوخته، في التواصل معهم الى حد تعلم اللغة العربية ومطالبة المبشرين بتعلمها. ولكن زمن الاحتلال هو زمن الاحتلال، وأهل غرناطة شغلته هموم عديدة خيَّمت على حياتهم كذلك الصليب الفضى الكبير المشرف على المدينة من فوق أبراج الحمراء.

كان أمر المعاهدة السرية بين أبى عبدالله محمد الصغير والملكين الكاثوليكيين قد افتضح وشاع. سلمهم الملك الصغير مفاتيح الحمراء فكافأوه بثلاثين ألف جنيه قشتمالى وبضون حق ملكيته الأبدية فى قصوره وضياعه وممتلكات أهل بيته "أخذ المنحوس حقوق ملكيته الأبدية ورحل" عاشوا يومهم تثقلهم مرارة اكتشاف أنهم بيعوا

كقطيع أبقار أو غنم.

رأوا الهجرة الجماعية للأشراف وعلية القوم والأغنياء،
هرج ومرج، ركض محموم، بيع وشراء، كل شيء يباع،
وكل شيء يشتري : بيوت وضياع وجنات ومخطوطات
ثمينة وسيوف أورثها الأجداد و أجداد الأجداد. "اشتر يا
أبا جعفر فالثمن بخس والشراء مكسب" وأبو جعفر كبفل
حرون لا يريد بيعا أو شراء، غاضب لا يرى فى رحيل
السفن إلا نعوشا سابحة .

رأوا الأمراء يتنصرون. سعد ونصر ولدا السلطان أبى
الحسن سميا نفسيهما الدوق فرناندو دى جرانادا والدوق
خوان دى جرانادا وزاد سعد على أخيه درجة فالتحق
بجيش قشتالة مقاتلا فى صفوفه "استرح فى قبرك يا أبا
الحسن ... نم قرير العين حتى تهب عليك رياح الجنة...
تاجرت ذريتك فى تجارة نادرة فأوفت وأبليت بلاء حسنا
ياأبا الحسن !"

والوزير يوسف بن كماشة الذى فاوض باسم الأمة
وأعد المعاهدتين العلنية والسرية كلل مسيرته بالتنصر
ودخل سلك الرهبنة.

كان أبو جعفر وهو يخطو فى عقده السابع يزداد صمتا،
صمتا كثيفا يحجب عن عيون أقرب الناس إليه إعصارا
داخليا. لا ينام أو ينام ساعة أو بعض ساعة ثم يقعد حتى
إذا انفصل الخيط الأبيض عن الخيط الأسود خرج من
البيت يمشى فى الحى فى انتظار فتح أبوابه، وما إن

تفتح الأبواب حتى يغادره. يهبط إلى رصيف حدره ويسير
محاذيا النهر يتملى السبيكة وقلاع الحمراء وقصورها
والأشجار المزروعة على الضفتين: أشجار السرو والنخيل
والصنوبر على سفح التلة في الجهة الأخرى من النهر
وأشجار التين والزيتون والرمان والجوز والكستناء من
جهة البيازين. يمر بالأشجار يتفحصها ويحدق في النهر.
وعندما يصل إلى الجامع الأعظم يكون النهار طالعا
ومستتباً، يدور بعينيه في الساحة منتبها للحركة
الدعوية للباعة والشارين ولآلة الأصوات التي تنادي على
بضائعها ثم يواصل سيره ويشرق حتى غرناطة اليهود
وباب نجد ثم يعود أدراجه إلى الأسواق يمر بزنقة
العطارين ودرب الفخارين والزجاجين والنحاسين
والصياغ ثم يدخل إلى القيصرية ولا يترك زقاقاً من
أزقتها العديدة إلا ويمشي فيه متأملاً الأقطان والأصواف
والحرير، المنسوج منه والخام، والرجال المنهمكين في
القياس والوزن والبيع والشراء وتسليف العملة
وتبديلها ثم يخرج من القيصرية إلى شارع السقاطين
ومنه مرة أخرى إلى رحبة المسجد الجامع يدخله ويتوضأ
ويصلي أربع ركعات فرض صلاة الظهر وركعتين سنة ثم
يقفل عائداً إلى حارة الوراقين حيث حانوته.

وفي اليوم التالي يكرر الجولة نفسها أولاً يكررها
فيبدأ بزيارة ابنه والديه في مقبرة سهل بن مالك يقرأ
لهم الفاتحة ثم يقطع الحى من أقصاه إلى أقصاه ليذهب
إلى مقبرة الفخارين ويلتقى بصديق له تحت التراب،
يحدثه قليلاً .

كان أبو جعفر يتفقد عمائر المدينة، مدارسها وجوامعها وروابطها وزواياها وأرباضها وحدائقها كأنما يتعين عليه أن يرسم تفاصيلها ويحيط. يخرج متن بيته ويعود، ثم يخرج، لا يتبادل حديثاً مع أحد وإن حكمت الضرورة ينطق بكلمات مقتضبة ولا يزيد.

وفى الحانوت لم يكن هناك عمل يذكر وقد شحّت الأرزاق بعد أن هاجر من هاجر وبقي من صرفته الهموم وضيق ذات اليد عن الانشغال بفلاف جميل المخطوطة جديدة.

كانت زوجته تعزو صمته لضائقتيها المالية فتحاول إيجاد مخرج ولكنها كلما فتحت له باباً أغلقه.

- بع بيت عين الدمع .
 - انه لحسن وهبته لأبيه فورثه عنه.
 - والمخطوطات ؟
 - تبقى لحسن وسليمة. لم يبق لى ما أتركه لهما إلاها.
 - بإمكانك التخفف من أجر سعد ونعيم.
 - لا أهل لهما فهل ألقى بهما إلى الطريق !
 - لا داعى إذن لدروس الصغيرين .
 - سليمة تحب الدراسة وحسن يحتاجها .
- أبو جعفر يسلك كأنما الحال مستورة والزمان هو الزمان.

- من أين يا أبا جعفر وكيف ؟
- لم يبق لى فى الدنيا الا القليل، دعينى أفعل ما أريد !

ولكن الهموم التى تاكل قلوب الكبار وتسارع

بخطواتهم الى القبر لاتقدر على الصفار وهم يشبون عن
الطوق فتحملهم سيقانهم وتعلو، تنبض قلوبهم فى حضرة
الصبايا وكحل العيون والنهود المستورة كأنما تقصد
مكايدة خيالاتهم التى تزداد اتقادا.

كان سعد ونعيم يضحكان وهما يسترجعان الأيام الأولى
لتعارفهما. يقول سعد : "قلت صبى مفرور فى حجم
الفأر، مكتوم اللون مثله " فيجيبه نعيم " وأنا قلت ابتلانى
أبو جعفر برفيق ثقيل الظل، نكد !"

لم يعودا مجرد زميلين قضت ظروفهما بالبيات معا فى
الحانوت الذى يعملان فيه بل صاحبين يآلف كل منهما
تاريخ الآخر كأنما هو تاريخه الشخصى ، لا يفترقان
فيقول أهل حارة الوراقين " سعد ونعيم مؤخرتان فى
لباس واحد " كانا دائما معا يشاهدهم الناس فى رواحهما
وغدوهما فى ملابس متشابهة يتبادلانا أحيانا رغم أن
ملابس سعد كانت تبدو فضفاضة بعض الشيء على نعيم
وملابس نعيم ضيقة قليلا على سعد.

كان سعد يكبر نعيما بعام واحد، له وجه أسمر منحوت
يشى بشيء من تجهم أو صرامة، نما شارببه فأخفى الكبر
النسبى للأنف وغلظة الشفتين. أما العينان الكحلوان
اللتان كانتا تستوقفان الناظر فى سنوات سابقة فقد بدتا
أقل اتساعا بعد بروز عظمتى الحاجبين وان بقى ذلك
الشيء المميز للوجه كله : عمق سواد العينين ونظرة عتب
حزينة تنفى ماتشى به الملامح من صرامة .كان بسعد
متوسط الطول مربوعا وعريض المنكبين أما نعيم فكان

أنحف من صاحبه وله نفس الطول تقريبا. لون بشرته
يضرب الى صفرة، وملامح وجهه أدق وشعره كستنائى
أملس، يعلو شفثيه زغب أشقر خفيف يتحرق لرؤيته
ينمو لكنه لا ينمو وكانت ملامحه الدقيقة وعيناه
العسليتان الملتمعتان ذكاء تضيفان على الوجه عذوبة
وملاحة.

كان نعيم وهو فى الرابعة عشرة من عمره يبدو طفلا.
وكان، رغم ذلك، غارقا فى الحب حتى أذنيه، يعيش حالة
من الوله المتجدد المستمر.. يرى صبية يفتنه جمالها
فتتسارع دقات قلبه، ويشتعل وجهه فيتبعها كالمسوس،
يسأل عن اسمها وأهلها وعنوان دارها. تحمله قدماء كل
يوم الى حيثها لعله يراها. يردد اسمها ويكتبه فى حجاب
صغير يتحرز به أسبوعين، ثلاثة، وربما أربعة ثم تظهر
حبوبة جديدة تحل محل القديمة فى قلبه وفى الحجاب.

يضحك سعد متندرا على نعيم الذى يغضب من صاحبه
ويخاصمه نهارا أو بعض نهار. وفى الليل عندما يفلقان
باب الحانوت يتحرق نعيم لإنهاء الخصام فيبادىء سعدا
بالحديث:

- لقد أسأت إلى ...

- أسف، لم أقصد الا مداعبتك.

تتكرر الافتتاحتية بينهما الى حد أنها أصبحت
تضحكهما وهما يرددانها كطقس أليف وطريف يؤذن
بانطلاق الحديث المحجوز الذى يتدفق بقوة وصخب.

* * *

كان على سليمة أن تقنع جدها بالسماح لها هي وأخيها أن يذهبا. قال أبو جعفر :

- إنه منوكب كباقي المواكب، لا أرى داعياً للذهاب !
- أرجوك يا جدى، أرجوك، دعنا نذهب .
- لا داعى !

ولكن سليمة عادت تلح فى اليوم التالى وناصرتها جدتها التى قالت إنها لا ترى ما الذى يمنع ذهابهم "مادام ذلك يفرحهم ويسرى عنهم" ثم انتحلت بأبى جعفر جانباً وهمست :

- يا أبا جعفر، الصغار صغار، الحداد لا يليق بهم ولا صبر لهم عليه، دعهم يذهبون لأجل خاطرى.

حين تنشغل سليمة بأمر ما تنهمك فيه انهماكا كاملا فلا يقوى أى من أهل الدار ولا كلهم مجتمعين على زحزحتها بعيدا عنه. وحين ترغب فى شىء تظل تطلبه وتلح ولا تكل ولا تمل ولا تهدأ ولا تترك أحدا يهدأ إلا عندما تحصل عليه. تقول أمها " فى سليمة من البعوض صفتان الزن وعدم المنفعة ! " فتضحك أم جعفر وتقول "إنها كالملكة بلقيس تريد أن تأمر فتطاع ولا يملك أحد أن يأمرها بشىء" وكانت أم جعفر كثيرا ما تشير لها مداعبة باسم بلقيس بدلا من سليمة وكانت، رغم كلامها المازح، قلقة على حفيدتها التى لاتعرف حتى كيف تقلى بيضة ومن فى سنّها من بنات الجيران يعاون أمهاتهن فى شتى الأعمال المنزلية . وأخوها الذى يصغرها بعامين يفوقها دربة ونشاطا يرسلونه إلى فرن الحى فيحمل على رأسه السمك أو الفطير المطلوب خبزه وينتظر ويحاسب القرآن ويعود

الى الدار بالمخبوز من الطعام .

ولم يكن أبو جعفر قلقا مما يُقلق زوجته وزوجة ابنه إذ كان يعرف أن كسل البنت يعوّضه نشاطا من نوع آخر. كان عقلها نشطا كطاحونة لا تكف عن الدوران تراقب وتتأمل وتساءل وتنهمك. وكانت وهي بعد لم تبلغ التاسعة من عمرها قد أتمت ثلث القرآن حفظا وتقرأ بسهولة ويسر وتكتب بخط واضح وسليم، يطرى عليها أستاذها لسرعة فهمها واستيعابها ما يشرحه لها من قواعد النحو.

يرق قلب أبي جعفر وهو يتطلع إلى حفيدته فيرى انها وإن أخذت عنه زرقة العينين ، فقد أخذت عن أبيها تلك النظرة المتوقدة بحضور متألق وذكاء وحيوية. كانت البنت فى تلك الأيام منشغلة انشغالا شديدا بما يتردد عن اكتشاف عالم جديد. سألته

- لماذا جديد ؟

- لأنه اكتشف حديثا ... لم نكن نعرف انه موجود من قبل.

- لكن يا جدى هذا لا يجعله جديدا !عندما سمعت العبارة لأول مرة تخيلت انه عالم خلقه الله مؤخرا وتصورت أن أشجاره شجيرات صغيرة وأن كل المخلوقات فيه صغيرة حديثا الولادة .

ضحكت من نفسها وقالت :

- كنت بلهاء !

سمح أبو جعفر لسليمة وحسن بالذهاب لمشاهدة

الموكب واشترط أن يرافقهما سعد ونعيم. وقال لحسن:
- احرص على اختك فقد يكون هناك شباب قشتاليون
يتطاولون على بنات الناس انتبه وابق يدها فى يدك ولا
تغفل عنها لحظة.

بعد يومين توجه الأربعة، حسن وسليمة وسعد و نعيم،
الى المكان المعلوم. ورغم نسمة باردة الا أن السماء كانت
صحوا وأشعة الشمس تضيئ على النهار دفئا محببا فى
صباح ربيعى. وكان الأربعة يتحدثون ويضحكون فى
صخب مستثار بالرحلة التى انتزعوها انتزاعا وبالموكب
العجيب الذى يتوقعون مشاهدته.

وكلما اقتربوا من المكان زاد الزحام حتى إذا ما وصلوا
وجدوا الطريق مكتظة بالبشر وكذا شرفات البيوت
والنوافذ والأسطح المطلة على الجانبين. كان الناس
يتحدثون ويضحكون ويتصايحون أو يشترون لصغارهم
من الباعة الجائلين لوزا أخضر وتينا مجففا وفطائر
محلاة بالعسل .

ثم هدأ الناس وسكنت الأصوات واشترأبت الأعناق
وتثبتت العيون على أعلى الطريق. ميزوا قرع الطبول
ونفخ الأبواق ورنين المثلثات والأجراس وهى تقترب
وتتعالى فيزداد صمت الناس و تتسع عيونهم كأنما
بإمكانهم أن يروا أكثر. ثم ظهر حاملو البيارق الملونة
ومن خلفهم العازفون بملابسهم القشتالية، السراويل
الضيقة المقطوعة على حجم الجسد والسترات المزينة
والقبعات .

هتف رجل بالقشتالية :

- انه هو ... هذا هو ... انظروا !

كان يشير إلى فارس يتقدم معتليا حصانا أبيض
مطهما يطا الأرض بخفة متهاديا كأنما يتيه بحسنه .

- يعيش كريستوبال كولون ... يعيش كريستوبال
كولون !

رفع الرجل الملتحي قلنسوته السوداء وحيا الناس بها
وابتسم ابتسامة عريضة معتدة كأنه ملك على الملوك .
قالت سليمة بحماس متقد :

- يقولون إن الأرض التي اكتشفها كلها ذهب وفضة وهو
في طريقه الآن الى برشلونه لإعطاء الملكين ما وجدته من
الكنوز .

قال حسن :

- ولم لا يأخذ الكنوز لنفسه ؟

قالت سليمة :

- لا يملك !

سألها سعد :

- لماذا ؟

أجابته :

- لقد دفع الملكان المال اللازم للرحلة.. كأنهما استأجراه
للقيام بها. أنظر يا سعد أنظر !

بعد مرور الفرسان الذين يتبعون الأدميرال ظهر في
الموكب رجال يحملون أقفاصا كبيرة بها طيور مدهشة
الألوان بعضها صغير كالعصافير وبعضها متوسط الحجم
كالببغاوات وبعضها كبير كالأوز، منها ما له مناقير

كبيرة لم تشهد العين لها مثيلا وأعراف دقيقة كالتيجان.
ومن بعدهم مر رجال يحملون صناديق زجاجية بها
مخلوقات غريبة : عناكب ضخمة وحيات عملاقة وزواحف
هائلة يفزع الانسان من مجرد النظر اليها. كان الناس
يتابعون الموكب مبهورى الأنفاس موزعين بين التوقد
والخوف من ذلك العالم الجديد المجهول الذى اكتشفه
الفارس .

بعدها، وكأنما أراد منظمو الموكب أن يلتقط الناس
أنفاسهم، مر حاملو النباتات فامتلات الطريق بسعف
نخيل ليس بنخيل، وأفرع أشجار لا يعرف المرء نوعها،
وثمار غريبة منها الملتحف بغطاء بنى كالصوف ومنها
المغطى بقشور كأنه قُذ من جذع نخلة. ثم تقدم فرسان
آخرون يحملون ، كمن سبقهم ، علبا من زجاج مغلقة على
المعروض فيها، يلتمع التماعا فى ضوء الشمس، يخطف
الأبصار. صاحبت امرأة : "انه الذهب !" "الذهب" ترددت
الصيحة ثم انعقدت الألسنة وتسارعت دقات القلوب
واتسعت العيون تُحدق فى العلب التى تحمل تبّرا "رمال
من الذهب" أو قطعاً كاملة من الذهب الخالص. سبائك
كبيرة لم يسمع الناس ان فى الأرض لها مثيلا.. هتفت
امرأة:

- يعيش كريستوبال كولون !

تردد الهتاف أكثر خفوتا هذه المرة وكأنما الدهشة
والانبهار سحبتا مافى الأبدان من قوة.

هتفت سليمة :

- ليس عالما جديدا، إنه عالم مختلف، هذا هو كل مافى
الأمر !

ولم تكن المدهشات قد انتهت بعد اذ ظهر فى نهاية
الموكب الأسرى. وسرى الهمس بين الصفوف :
- أهل البلاد .. انهم أهل البلاد ... سكان العالم الجديد !

كانوا يمشون بخطى وثيدة وأيديهم مقيدة خلف
ظهورهم يحيط بهم الحراس من الجانبين. كانت لهم ملامح
دقيقة وأجساد نحيلة لا تخلو من هشاشة، والرجال
كالنساء تنسدل شعورهم، سوداء ملساء طويلة، تغطى
أكتافهم. ورغم الملابس القشتالية التى كانوا يرتدونها الا
أن اختلافهم كان واضحا وبيّنا بسبب ملامحهم أو نظرة
عيونهم أو الريش الملون المنفرس فى عصابات تحيط
برءوسهم. وكانت هيئتهم على غرابتها لا تثير النفور بل
على العكس تماما من ذلك، ربما لملاحة الوجوه ورشاقة
القدود وربما لسبب آخر. ولكن بعض القشتاليين كانوا
يضحكون . التفتت سليمة إلى سعد :
- ما الذى يضحكهم ؟
- لا أدرى !

كانت الضحكات قد فاجأت سعدا أيضا وأربكته ثم
استفزته.

صاح نعيم :

- سعد، هل ترى هذه الصبية ؟
- أية صبية ؟
- الأسيرة التى ترتدى ثوبا أبيض .

أشار نعيم بيده الى فتاة مشوقة كالعود كانت قد تعثرت
وسقطت على الأرض وحاول أحد الحراس إعانتها على
النهوض فدفعته بكتفها وتحاملت وقامت وحدها رغم
يديها المقيدتين وواصلت المشى .

- ترى ما اسمها ؟
- ومن يدرينى ؟!
- ليتنى أعرف اسمها !

مر الموكب مجللاً بنقر الدفوف ودق الطبول والمزامير
تتداخل تلاوين اصواتها مع رنين المثلثات المعدنية وصخب
الناس وضخكاتهم. ولم يعرف الضغار الأربعة أين ذهب
البهجة التى كانت تتقاذف فى قلوبهم، بل الحق أنهم لم
ينتبهوا إلى ذهابها وحلول مسحة حزن على الموكب
وعيونهم. كانوا يراقبون فى صمت الأيدي المقيدة خلف
الظهور، والخطوة الوثيدة والراءوس المطرقة والنظرة
المفاجئة التى تطالعك حين يرفع الواحد منهم عينيه اليك
فيحديق فيك كما تحديق فيه.

قالت سليمة :

- لم لا نرجع الى البيت ؟
- نرجع .. أين ذهب نعيم ؟

وقفوا ينتظرون عودته وطال انتظارهم وراحوا
يضربون أخماساً فى أسداس. وأراد سعد أن يذهب للبحث
عنه وقيده. وعده لأبى جعفر بأنه لن يترك حسن وسليمة
وحدهما "ولا لطرفة عين !" وانتظروا أكثر ثم حسم سعد
أمره :

- نعود الى البيازين، وقد يكون نعيم قد سبقنا الى هناك .

لم يقل انه ينوى اعادتهما ثم الرجوع الى المكان للبحث عن صاحبه.

فى رحلة العودة كان حسن وسليمة يؤكدان أن نعيما عاد الى المدينة فيقول لهما سعد ان ذلك بالضبط هو ما حدث ولكنه لم يكن يصدق مايقوله لهما، يثقل قلبه القلق.

ساروا فى صمت فى طرق جبلية غربت شمسها فغامت الألوان على التلال لتخبو وتسلم نفسها لليل الوشيك. وكان سعد يحدق فى موكب الأسرى الذى ذهب . ترى هل حاصروهم من البر والبحر كما حاصروا مالقة ؟ هل جوعوهم حتى أكل من جرو منهم لحم حصانه ؟ هل قصفوا بيوتهم واقتحموها عليهم واقتادوهم أسرى ؟ .

مطلع الصيف: الجو أكثر دفئا بعد أمطار غزيرة حملت المكان برائحة العشب المبلل. يقول الكبار سقطت بلش مالقة والقشتاليون قادمون.

يقول الكبار: وصلوا وأقاموا معسكرهم خارج أسوار المدينة وحفروا الخنادق وأنشأوا أبراجا وجسورا خشبية ونصبوا المدافع اللمباردية. وصل الملك فرديناند ... وصلت الملكة من قرطبة. يقول أبوه ان حامدا الثغرى الذى قاد دفاعا مستميتا عن رونده قد طُلب

منه بعد سقوطها أن يقود الحامية الموجودة في قلعة جبل الفارو المشرفة على مالقة. يقول أبوه : نزل الثغرى من القلعة مع قواته ونحى حاكم مالقة الذى كان يريد تسليمها ونظم الدفاع عن المدينة . الكبار لا يتحدثون إلا عن ذلك، يسمعون كلامهم فيفهمون بعضه ولا يفهمون البعض الآخر. في الحالتين يعيدون ما يسمعون لهبا وتشخيصا.

متعة الركض في الحارات وبحث الواحد منهم عن رفاقه المختفين خلف الأشجار وسرقة الحُصْرَم من كروم لا يملكونها، كلها توارت أمام المتعة الجديدة. يوزعون الأدوار ويختلفون ويتعاركون. كلهم يريد أن يكون الثغرى أو، على الأقل ، مقاتلا من مقاتليه ثم يقبل في نهاية الأمر أن يقوم بدور فرديناند أودور رجل من رجال حاشيته وفرسانه. لا شيء ينقصهم، وفي البيوت والطرقات وفرة؛ إناء فخارى يحضره أحدهم سرا من دأره هو تاج فرديناند يقلبه على رأسه ويشد قامته فيصير الملك، وفروع الأشجار سيوف جاهزة، والحصى الصغير دنانير الذهب والحصى الأكبر الجواهر النادرة، وجلباب قديم ويلفه صاحبه على رأسه يصير عمامة مهيبة تجعله تاجرا من كبار التجار.

الملك فرديناند تعلو رأسه الأنية الفخارية المقلوبة ينادى على ثلاثة. من فرسانه ويطلب

منهم التوجه الى مالتة : "قولوا لهم ان
يسلموا المدينة " ينحنى الفرسان ويقبلون يده
الصفيرة ثم يستديرون لينقلوا رسالتهم الى
الجانب الآخر " الملك فرديناند يطلب منكم
التسليم " تقترب الرءوس المعجمة، تتشاور.
يقول التجار: نُسلم والا هلكنا. يقول الباقون:
لا نُسلم. على درويش قائد المدينة يحسم الأمر:
سنسلم.

يظهر الثغرى متطيا جواده الوهمى، يرفع
سيفه فى وجه درويش فيسقط على الأرض
قتيلا ويهرب الآخرون. ويقول الثغرى وغصن
الشجرة مشرع فى يده: "قل للملك ان سيدى
الزغل لم يوكل لنا قيادة القلعة لنسلمها،
سندافع عن مدينتنا" . يقول مندوب الملك:
"ولكن الملك أرسل لك هذه الهدية" يمد يده
بالحصى الصغير والكبير "وسيعطيك إن سلمت
له المدينة قصرا ومالا أكثر". يعيد الثغرى
الحصى لمندوب الملك وهو يقول فى اعتداده: "لا
أريد منكم شيئا" .

ثم تشتعل الحرب، ويشاركون جميعا فى
النزال بسيوفهم الخشبية، وتتسع الساحة
لتشمل كرم العنب كله فيتفرقون فى أنحاء
كل اثنين يتبارزان حتى يهدم التعب.

لعبتهم اليومية فى الأسابيع الأولى للحصار

قبل أن يشع الزاد ويتساقط الناس من شدة
الجوع وتقدمهم بطونهم الخالية عن كل ركض
ولعب. حتى الحصرم الذى كانوا مشغوفين
بسرقته يستطيعون لذعته الحادة كرهوه
وحموضته تلسع جوفهم وتحرقه حرقاً.

يرفض أبوه أن يذبح حصانه، تبكى أمه:
سيموت الصغار جوعاً ... ويصبح هو كاذباً: من
قال إننى جائع... أقسم بالله العظيم أننى
لست جائعاً... ويبكى جوعاً وخوفاً على الحصان.

أبوه لم يذبح حصانه، أمه تقطف أوراق
العنب وتغليها فى الماء وتطعمهم. تدق سعف
النخيل حتى يصبح دقيقاً كالطحين وتعجنه
بالماء وتسويه .. فيأكل .

لم يحجب خفوت ضوء الفسق عن سليمة وجه سعد ...
لم تفهم اختلاجه ولا اجتماع الصفاء والكدر على صفحته
المرتعشة بحزن عميق أحسته وإن لم تحط به ولما رأت تلك
الدمعة التى انحدرت من طرف العين خلصة مدت يدها
الى يده وأمسكت بها .

أوصل سعد حسن وسليمة الى بيت أبى جعفر ثم اتجه
الى الحانوت. سأنظره بعض الوقت فإن لم يظهر أرجع
الى مكان العرض لأبحث عنه. لمح ضوء القنديل يتسرب
من تحت باب الحانوت فعرف أن نعيماً قد عاد.

- ماذا حدث، أين كنت ؟
- تلعثم نعيم وبدا مضطربا ثم قال على استحياء :
- مشيت مع الموكب .
- ولماذا تمشى مع الموكب ...ولماذا تذهب دون أن تخبرنا ؟!

قالها سعد بصوت عال محتد ..وكان يعرف انه سوف ينفجر فى نعيم موبخا ان لم يجد لديه تفسيرا مقبولا لسلوكه .

- ماذا حدث ؟ !
- اهدأ يا سعد ... اهدأ ... لن أستطيع أن أجيبك الا لو هدأت فأنا أيضا مضطرب وحزين ولا أدري ماذا أفعل .
- ماذا حدث ؟

قام نعيم وأعد لقمة للعشاء . أكلأ فى صمت وعندما انتهيا قال:

- لقد وقعت فى حب الصبية .
- أية صبية ؟
- الصبية التى كانت فى الموكب، ذات الرداء الأبيض .
- ثم ؟ !

- أخذت قلبى يا سعد ... وارتعت فأنا لا أعرف حتى اسمها . ركضت خلف الموكب وحاولت الوصول إليها فأخذت أحدث أصواتا لكى تنتبه . تطلعت إلى وخلت شيئا كأنه القبول على وجهها ولكن الحراس دفعونى بعيدا ... سقطت على الأرض . وكانت تتطلع فابتسمت ثم نقلها الحراس الى الجانب الآخر من الموكب حتى لا أراها . مشيت بمحاذاة الموكب لعلى أراها مرة أخرى ولكنى لم

أرها ... ماذا أفعل الآن يا سعد ؟
- اطفىء القنديل ونم !

* * *

جاءت سليمة الى الحانوت تسأل عن أبى جعفر ولم يكن موجودا « عندما يأتى جدى قل له إن جدتى ... » لم يسمع سعد باقى كلامها. لحظة خاطفة أسرع من ومض البرق فى السماء. غص الطرف لانه لم يقدر على مواصلة التطلع الى الوجه الذى رآه الف مرة ولم يره أبدا إلا عندما سقطت الغشاوة عن عينيه فرأى ولما رأى تزعرعت أحشاؤه وغص الطرف .

لم ينم سعد الليل بطوله، بقى مؤرقا يتقلب فى فراشه كالمحموم وفى الأيام التالية انقطع عن الذهاب الى بيت أبى جعفر، يطلب من نعيم الذهاب، لو اقتضت الضرورة، متعللا بعذر أو سواه. وكلما أراد أن يسر لنعيم بحبه تلجم لسانه، وكلما حاول أن يغالب مافى قلبه ازداد مافى قلبه اتقادا.

بعد شهرين حكى لنعيم. تراقص نعيم طربا لكلمة "أحب" التى نطق سعد بها لكن باقى العبارة "سليمة حفيذة أبى جعفر" وأدت الرقصة فى بدنه وتركته واجما. غلبه الصمت لحظات ... ثم قال "أحبها بعض الوقت ثم أحب سواها !" كان ما يدور فى رأس نعيم مطابقا لما يشغل سعدا. ما الذى يقوله أبو جعفر لوعلم ؟ هل يقول انتمننت سعدا على أهل بيتى فخان الأمانة. وهل لوطلب سعد الزواج من حفيدته يقبل ؟ ألا يقول انه فقير وبلا

أهل ويريد الزواج من حفيدته طمعا فى مالها ومكانته ؟
عاد نعيم يقول:

- أحبها أسبوعا أسبوعين ثم تحول الى غيرها. قلقت
عليك يا أخى وقلت أغلق سعد قلبه فى وجه النساء ...
الحمد لله انحلت عقدتك !

توقف نعيم لحظات ثم سأل:

- كيف تحبها يا سعد ؟

- لا أفهم ؟

- أخى أريد أن أطمئن عليك ... أريد أن أقارن بين
طريقة حبك للنساء وطريقة حبنى ... قل لى بتفصيل
التفصيل كيف تحبها !

كان حسن وسليمة يلقيان المعتاد من التدليل فى بيت
الأجداد ويلقيان المزيد منه لأنهما ولدا الغالى الذى
اختطفه الموت قبل الأوان. ولم يكن أبو جعفر يأتى
للصغيرين بكل ما يطلبانه فقط بل كان أيضا يعلق عليهما
الآمال العريضة. جاء لسليمة بمن يعلمها القراءة والكتابة
فى الدار وعندما أتم حسن السابعة من عمره اصطحبه
لفقيه ذى مكانة ليلحقه بحلقة درسه. وكان يقول لحسن :
" سقطت غرناطة يا حسن ولكن من يدرى قد تعود على
يديك بسيفك أو قد تكتب حكايتها وتسجل أعلامها. لا
أريدك ورأقا مثلى يا ولد بل كاتبا عظيما كابن الخطيب
يسجلون اسمك مع غرناطة فى كل كتاب " .

كانت سليمة فى التاسعة من عمرها فى اليوم الذى
تطلع فيها سعد وغض الطرف. لا حظت وانتبهت وأربكها
مالاحظته لان وجود سعد كان مألوفا ومعتادا كوجود حسن

ونعيم وجدّها والمعلم الذى يعلمها. أما نظرتة وإحساسها فكانا غريبين جديدين لم تعرف كيف تتعامل معهما. شغلها الأمر يوما ويومين وثلاثة ثم تشاغلت عنه وتناسته حتى نسيتة. ولم تكن سليمة منتبهة لأنوثتها كالعديدات من قريناتها اللاتى يعدهن أهلهن فى تلك السن للزواج. وكان أبو جعفر، رغم انه لم يشر لأحد بذلك قط، يتمنى فى قرارة نفسه أن تكون سليمة كعائشة بنت أحمد زينة نساء قرطبة ورجالها أيضا فاقتهم فى فهمها وعلمها وأدبها ... لم ينشغل بأمر زواجها ولا شغلها به. كذلك أمها فعلت الشيء نفسه لأسباب أخرى تخصها، كان تعلقها الشديد بابنتها يجعلها تجفل لجرد التفكير فى انفصالها عنها للإقامة بعيدا مع رجل غريب فى بيت غريب.

كان بعض معارف أبى جعفر وأصدقائه ينبهونه الى أن مايتكلفه من نفقات تعليم حفيديه تبديد لا طائل من ورائه " لم يعد هذا زمان العلماء والفقهاء يا أبا جعفر ولا حتى زمان النساخين. اللغة القشتالية قادمة لا محالة والعربية لم تعد بضاعة رابحة ". كان أبو جعفر يسمع مايقولونه ولا يعلق ولكنه لم يفكر ولا للحظة واحدة فى التخلّى عن تعليم الصغيرين ليس فقط لأنه كان عنيدا فى تحقيق رغباته ولكن أيضا لقناعته بأن التراجع عن تعليم حفيديه تسليم بهزيمة قد يقدر الله ألا تقع فى نهاية المطاف. لم تكن أحلامه قد تطلت عنه فكيف يتخلّى هو عنها ؟ ! وكان يحلو له أن يتخيل أن كل ما هو كائن ليس سوى كابوس عابر لأن الله لا يمكن أن يترك عباده وينساهم كأنهم لم يعبدوه ولم يعمرؤا بيته وقلوبهم بحبه وذكره ... ويرى أياما قادمة ينسحب فيها القشتاليون الى الشمال

ويتركون غرناطة تعيش فى سلام فى ظل الخرف العربى
وصوت المؤذن. كان يعرف أن العمر لن يمتد لتشهد عيناه
ذلك ... يقول لنفسه أن روحه سوف تشهدها وهى تحلق
فى سماء المدينة يمامة بيضاء تنساب مرفرفة من أبراج
الحمراء الى منذنة المسجد الجامع تحط فى باحته لتلتقط
فتات خبز يلقيه لها الدارسون الصغار، تطير وتحلق
وتسلك وتحط فى نهاية اليوم على نافذة بيت فى
البيازين كان بيته وأصبح بيت حسن الغرناطى الكاتب
سأهرا يغمس ريشته فى دواته ويكتب .

وكان الصغيران يغذيان الحلم بتفوقهما فسليمة تحفظ
من الأشعار مالا يحفظه رجال طالت لحاهم وحسن يرسم
الخط رسماً وتستقيم سطورهم كأنما هى أفريز بديع من
أفاريز المساجد والصفحة تخرج من بين يديه متعة
للناظرين، ومعلمو الصغيرين يستبشرون بذكائهما خيرا
فيفدق أبو جعفر فى مكافأتهن حتى وإن اقتطع من ثمن
ملف أو مركوب يتوجب شراؤه عوضاً عن المرقوع البالى.

وصل الرجل الى غرناطة فى يوليو ١٤٩٩. حرب أو لا
حرب، احتلال أو فرح، التلال فى الصيف تقيم أعراسها،
تنشر على الملأ أخضرها العميم تدغدغه زهور البر
بعطورها وألوانها وبينها شقائق النعمان تفوقها بهاء
وفجرا بأحمرها الكياد. صيف غرناطة عروق زيتون
تحمل، ومشمس مغلج يلوح ويخفى بين خضرة الأوراق،
ورمان كتوم يجمع حلاوته على مهل قبل أن يتفرط بين
أيدي أكليه، وتعريشات دوال، وأشجار جوز ولوز
وكستناء تظلل الطرقات، وماء دافق ينحدر من قمم
الجبال مقبلا على الوديان ضاحكا ومكررا.

لكن الرجل نزل المدينة فى الصيف. رأسه حليق الا
من طوق من الشعر يحيط بالقبعة الجلدية اللامعة. وجهه
صارم يضرب الى صفرة ممتعة، جبهته عريضة وعيناه
صغيرتان تتطلعان فى نفاذ محقق. له أنف أقنى وشفتان
دقيقتان مزمومتان زادت العليا على السفلى امتلاء.
جسده نحيل مشدود ويبدو، حين ينشر ذراعيه فى ثوبه
الأسود الفضفاض، كوطواط بشرى هائل.

من هو الرجل ومن أين أتى ؟ لم يتقن الناس نطق

اسمه الا بعد حين: فرانسيسكو خيمينيث دى سيسنيرو.
كان أسقف طليطلة وإن أتى إليهم، هكذا قيل، ومن مدينة
القلعة حيث كان يؤسس جامعة. إذن فهو عالم فقيه، فقيه
قشتالى جاء للقاء فقهاء العرب، اتصل بهم وتودد اليهم
وأغدق عليهم عطاياهم .

نادى المنادى فى الناس أنه سيفرج عن حامد الثغرى
فمن أراد من الأهالى رؤية الرجل رأى العين والتأكد
ليتوجه فى اليوم التالى الى كنيسة سان سلفادور لأن
الدخول مشاع والفرجة للجميع .

قال أبو منصور مستنكرا:

- وهل ندخل الى باحة مسجد حولوه الى كنيسة ١٩ .
قال سعد :

- المكان لنا حتى وإن غيروا اسمه. ثم أننا لا نذهب من
أجلهم بل من أجل رجل يخصنا. نحن جاهته وعزوته فهل
يصح أن يخرج الثغرى من أسره الطويل وحيدا عاريا من
أهله ١٩! سنخرج به من ساحة المسجد محمولا على الأعناق
كما يليق به وبنا.

بقى أبو جعفر صامتا .

فى اليوم التالى اتجه ثلاثتهم الى مسجد البيازين
الذى أصبح اسمه كنيسة سان سلفادور. وكان حشد كبير
من أولاد العرب قد توافد على المكان. بعضهم من أهل
مالقة الذين قدر لهم الوصول الى غرناطة، رجال ونساء
عرفوا الثغرى وتعلقت روحهم بالكلمة التى يقولها

والقرار الذى يتخذه، وبعضهم الآخر من أهل غرناطة
والقرى المجاورة الذين تابعوا بطولات حامد الثغرى
وابتنوا له فى قلوبهم بيتا صغيرا دافئا يجاور ذلك
البيت الآخر الكبير الذى سكنه على وعمره ببطولاته
وعدله .

توافد الناس على باحة المسجد وتربعوا فى صفوف
متراصة يتطلعون وينتظرون. ثم ظهر الكاردينال
خيمينيث فى ثوبه الأسود الضافى واتجه بخطوات
مشدودة ونيدة إلى الرواق الشرقى حيث وضع مقعد كبير
فخم جلس عليه. تطلع إليهم وتطلعوا إليه ثم صفق بيديه
فدخل حراس أربعة يحيطون برجل شديد النحول يرتدى
ملابس رثة. كان مقيد اليدين والقدمين مطأطئ الرأس
متعثر الخطى .

تهامس الناس :

- هل هذا حامد الثغرى ... هل يعقل أن يكون حامد
الثغرى ... ليس حامدا !!
- إنه هو !

قالها رجل من مالقة حارب معه. وتناقل الناس العبارة
بين الصفوف " أبو على الملقى تعرف عليه "، " هل تعرف
عليه ؟ "، " من تعرف عليه ؟ " " أبو على الملقى " .

أشار الكاردينال بيديه الكبيرتين وأصابعه الدقيقة الى
الحراس ففكوا قيود الرجل . قال الكاردينال :
- الآن يا حامد قل للناس ما رأيت ...

نظر حامد الى الحشد ثم أطرق ثم عاد ينظر نظرة زائغة مضطربة.

كتم الناس أنفاسهم. قال حامد :

- يا لأمس ...

قال أحد الحراس :

- ارفع صوتك .

تنحنح حامد وشد قامته بعض الشيء ورفع صوته :

- بالأمس، وكنت فى سجنى، رحت فى النوم و ...

تلعثم، سعل، ثم واصل :

- وأنا نائم بالأمس جاءنى هاتف قال لى يا حامد يريد لك

الله ...

توقف ومرت لحظات من الوجوم بدا فيها أن الرجل لم

يعد لديه ما يقوله . أغمض عينيه . قال :

- يريد لك أن تتنصر وهذه إرادة الله ومشيتته .

ساد صمت مطبق حتى بدا المكان المكتظ بمئات البشر

مهجوراً . اقتاد الحراس الثغرى بعيداً . وجفل الناس حين

صدحت موسيقى الأرغن فى لحن كنائسى تردد فى أرجاء

باحة المسجد .

قال سعد :

- بنا يا أبا جعفر، بنا يا أبا منصور، لنعد الى البيت.

التفت الى أبى جعفر فراعته دموع تنسال غزيرة من

عينيه كأنه ولد صغير. كرر سعد وهو يحيط كتف أبى

جعفر بذراعيه :

- قم بنا يا جدى .

ولكن أبا جعفر أوما برأسه إيماءة خفيفة وأشار بيده
لسعد الذى فهم أنه يريد البقاء .

دخل الحراس مرة أخرى ومعهم حامد الثغرى وقد فكوا
قيوده. كانوا قد غسلوا وجهه وصففوا له شعره وألبسوه
ثوباً من الحرير. مشى الثغرى باتجاه مقعد الكاردينال
بخطى ثقيلة غير متزنة وكأنه مازال مقيداً. ركع عند
قدمى خيمنيث الذى تناول كأس التعميد من يد أحد
معاونيه. غمس أطراف أصابعه فى الكأس ونثر شيئاً من
مائه على رأس حامد وهو يتمتم بكلماته المقدسة. اختار
حامد الثغرى لنفسه اسم جونزاليز فرنانديز زجرى.

لم يكن الناس قد أفاقوا من وقع المشهد ولا جرو أحد
منهم بعد على استحضار تفاصيله والخوض فى أوجاعها
عندما سرى الخبر همسا أن القشتاليين يداهمون المساجد
والمدارس ويجمعون ما فيها من كتب ويأخذونها الى مكان
غير معلوم .

طوال أسبوع شهدت حارة الوراقين نشاطاً لم تعهده
أبداً. تغلق الحوانيت فى النهار أوتظل مفتوحة ذراً للرماد
فى العيون وبعد صلاة العشاء بساعتين أو ثلاث تصحو
الحارة للعمل. يحرس أبو منصور وثلاثة من صبيان
الحارة من جهة الحمام ونعيم وشابان آخران يحرسونها من
الجهة الأخرى .

خلف الأبواب المواربة تضاء الشموع، فى كل حانوت
شمعة تتحرك فى ضوءها المرتجف الشحيح الأشباح.

خزانات الكتب مفتوحة على مصراعيها والأيدى تمتد بحذر، منها وإليها. تنتفخ الأكياس وتمتلئ السلال والصناديق. والأشباح تُحمل واحدا كيسا فيمضى، وغيره سلة فيذهب، ويتعاون اثنان فى حمل صندوق ويغادران. وتمور الطريق المعتمدة بخيالات صامتة محنية الظهر حدباء، أو كالأعواد مستقيمة يكلل هامة كل عود منها تاج هائل وغريب، أو أشكال غريبة كأُسرة عالية قوائمها تسير. تزدهم الحارة بالأشباح الصامتة تلتقى أجسادها وأحمالها، أو تومىء بأطرافها فتبدو مخلوقات خرافية هائلة يخلقها فى الليل الخيال ومع صياح الديك تتبدد.

كان أبو جعفر قد اتفق مع زملائه فى حارة الوراقين على نقل الكتب تحت جناح الليل إلى بيوتهم ثم نقلها بعد ذلك فى وضوح النهار إلى المخابىء الدائمة فى عربات أو على ظهور البغال مموهة ببعض المنقولات وكأنهم يقصدون الموانىء راحلين أو ينتقلون من بيت إلى بيت. وقرروا أن يتم ذلك تدريجيا ويتنسيق وهدوء وحنكة لا تلفت أنظار السلطات. واستقر رأى على توزيع الكتب على العديد من الأماكن: الكهوف فى الجبال، أطلال المنازل المهجورة وسرايب البيوت.

بعد أيام اكترى أبو جعفر عربتين وحملهما كتبه وبعض كتب لأصحابه وأركب زوجته وسليمة بغلة، وحسن وأمه بغلة، وركب الثالثة واتجهوا إلى عين الدمع. وقصد أبو جعفر أن يعلن فى طريقه بداع وبلا داع أنه كره الحياة فى البيازين وما عاد يطيق أسراب المبشرين التى اجتاحت الحى كالجراد.

نزلوا فى بيت عين الدمع وأنزلوا منقولاتهم وصرفوا
المكاريين والعربيتين ونقلوا الكتب الى السرداب.
وأشرفت أم جعفر النوافذ وانهمكت مع أم حسن تعاونهما
سليمة فى تنظيف الدار كأنما ينوون الإقامة فيها .

شاركت سليمة جدتها وأمها العمل بعض ساعة ثم
تعلمت بأنها سمعت جدها يناديها وتركتها ونزلت الى
السرداب. وكانت جدتها تبتسم لأنها تعرف أن حفيدتها لا
تطبق الأعمال المنزلية أما أمها فكانت تفكر فى الشيء
نفسه ولكنها لم تبتسم إذ كانت خائفة .

ما ان مر أسبوعان حتى اكترى أبو جعفر ثلاثة بغال
وعربية وعادوا الى البيازين. وكان هذه المرة أيضا يكرر
على كل من يقابله فى الطريق: "قلت اذهب الى عين الدمع
أقضى فيها آخر أيامى فلم أقدر ... لا غنى لى عن
البيازين. ولدت فيها والله أعلم أنتى سوف أموت فيها
أيضا"

* * *

ما ان فتحت أم حسن الباب حتى اندفع نعيم الى داخل
البيت لاهثا.

- أين أبو جعفر ؟

- ما الذى أصابك يا ولد، قل صباح الخير !

ولكن الولد كمن فقد عقله راح ينادى على أبى جعفر
بأعلى صوته. أتى أبو جعفر مهرولا. قال نعيم :

- إنهم يكدسون ما استولوا عليه من كتب فى باب
الرملة ... إنهم سيحرقون الكتب !

لبس أبو جعفر مركوبه وخرج مهرولاً وراء نعيم.
وجاءت سليمة تستفسر عن سبب الجلبة فكررت عليها
أمها ما سمعته فركضت إلى صندوق ملابسها وفى دقائق
كانت قد تهيأت للخروج .

- إلى أين ؟

- سأذهب مع جدى .

ولم تنتظر لتسمع ما تقوله أمها إذ انطلقت كالسهم
إلى باب الدار فلم تملك أمها إلا أن تنادى على حسن لكى
يلحق بأخته .

التقوا جميعاً عند رصيف حدرة. كان النهر يتدفق بين
شاطئيه وأعداد غفيرة ممن يعرفون ولا يعرفون تهرول
بمحاذاته صامته وصاخبة . عندما وصلوا قنطرة الدبّاغين
انحنى النهر فى طريقه إلى شانيل وواصلوا طريقهم إلى
باب الرملة.

فى ساحة باب الرملة رأوا توافد العربات تجرها
الثيران و البغال والحمير. تقترب العربية من مركز
الساحة ثم يشد الحوزى اللجام فتتباطأ الدابة وتصر
العجلات وتتوقف، يقوم ثلاثة من الحراس الجالسين فوق
الكتب المكدسة فى العربية يشدون قاماتهم ويحركون
أطرافهم لحظة كأنهم يتخلصون من خدر أصابهم من
القعود طوال الطريق ثم يشرعون فى العمل: تنحنى
جذوعهم وتختفى رءوسهم ثم تظهر الرؤوس وتنتصب

الجدوع وتلقى الأيدي بحمولتها، وتعود القامات تنحنى
والأيدي تقبض وتطوح، وتتوالى الحركة فى اتصال
وسرعة فتسقط على الأرض الكتب وترتطم ببعضها
البعض مغلقة أو مفتوحة أو أشلاءً ومزقا تتطاير كأوراق
الخريف فى الفضاء لحظة قبل أن تحط فى هدوء وتسكن .
تابعوا تساقط المصاحف الكبيرة والمصاحف الصغيرة
تنفصل عنها أغلفتها الجلدية المزينة بالزخارف والخطوط،
تابعوا المخطوطات المفروطة ، قديمها وجديدها، والأوراق
المفردة تحمل نفس الكلام منشورا ومتتابعا سطرا بعد
سطر أو منظوما فى كل سطر شطرتان .

كان الحراس يواصلون العمل وكانت سبع عربات أخرى
قد وصلت للتو وكانت عربات سواها تقترب من الساحة
اختلط صرير عجلاتها بأصوات ارتطام الكتب بتعليقات
الأهالى المحتشدين بتهديدات المسلحين تأمرهم بعدم
الاقتراب من الكتب .

كان أبو جعفر يحدق فى المشهد ثم يغمض الطرف ثم
يعود يحدق ويتمتم بكلام غير مفهوم لا يعنى قبضة سليمة
المشدودة على يده ولا أغلافرها المغروسة فيها ولا صوتها
وهو يعلو ملحا مكررا السؤال : « لن يحرقوا الكتب
يا جدى، أليس كذلك؟ لا يمكن أن يحرقوا الكتب !؟ » وسعد
وحسن واجمان ونعيم يبكى ويمسح مخاطه فى كفه .

يقترب المزيد من العربات من الشمال والشرق
والغرب، من جهة البيازين والمارستان ومن جهة الحمراء
وغرناطة اليهود ومن جهة المدرسة والجامع الأعظم .

لم تطلق سليمة المشهد قالت لجدّها إنها لا تريد أن ترى شيئاً وانسحبت راکضة. ولكن أبا جعفر كان يتشبّث بقشة الغريق : فهل يُعقل أن يتخلى الله عن عباده! وإن تخلى فهل يمكن أن يترك كتابه يحترق ؟! كان أبو جعفر يتطلع الى السماء ويحدّق وينتظر حين سمع شهقة الأهالى المحتشدين ورأى تصاعد الدخان.

كان بعض العسكر قد تفرّقوا بين الكتب وراحوا يوقدون النار فيها ثم ينسحبون ركضاً لتلافى الלהب الذى أخذ يمتد أفقياً ويعلو ويتصاعد. تلتهم النار الكتب، تفحم أطرافها، تجفف أوراقها، تلتف الورقة حول نفسها كأنما تدراً النار عنها ولا جدوى فالنار تصيب وتأكّل وتلتهم وتأتى عليها سطوراً سطوراً وورقة ورقة، وكتاباً بعد كتاب. نار موقدة توجّج فى الساحة تستعر وتضطرم، تلهب العيون وتخفق بدخانها الصدور وأبو جعفر يحدّق فيها مستريعاً ويصرخ دون صوت: لم تكن غابة أضرمت النار فيها فطاشت فى أخضرها تلتهم الفصون والجدوع، لم تكن غابة حملت الريح بذورها وسقتها أمطار السماء فنمت برية وشيطانية، ولم تكن كفحص غرناطة حقلها تعهده الفلاحون عاماً بعد عام حنطةً وتينا وزيتونا وليمونا وبرتقالاً ليحترق أمام عيونهم فيقولون لا حول ولا قوة الا بالله ويشمرون عن سواعدهم ويحرثون الأرض ويتعهدونها فتكرمهم بحصاد جديد. لم تكن، ولكنها بدت لأبى جعفر كحقل أو غابة يحاصرها الموت تحوم عقبانها على رؤوس الأشهاد وتتخاطف من الصدور القلوب .

قفّل أبو جعفر عائداً إلى البيازين يبصر الأهالى

السائرين حوله ولا يرى سوى النار المستعرة. يسعل ويحك جفنيه ويمشى ولا يعي سوى أن بابا مشرعا للرحمن عاش عمره موقنا بوجوده وقربه كان موصدا كجدار مصمت. توقف وقد انتابته نوبة سعال متصل كادت تخنقه.

عندما أعطى ظهره لحدره ليصعد التلة بدت له الطريق الجبلية الصاعدة صعبة لا يقدر عليها. كانت ساقاه واهنتين بالكاد تحملانه وكأنه يحمل جذع شجرة ثقيلة لا طاقة لإنسان على حملها. يصعد ثم يتوقف ثم يعود يصعد. تعثرت قدماه وسقط على وجهه، تفصد من أنفه خيط دم رفيع وانجرحت ركبته، لم يلاحظ ذلك. قام وواصل الصعود حتى وصل إلى ساحة مسجد البيازين الذي صار كنيسة سان سلفادور وقعد على مصطبة حجرية وظل جالسا بلا حراك حتى غروب الشمس.

قبل أن يأوى أبو جعفر إلى فراشه، فى تلك الليلة، قال لزوجته "سأمت عاريا ووحيداً لأن الله ليس له وجود!" ومات.

غسل الرجال الجسد المديد العارى وقرأوا عليه الشهادة وكفنوه وحملوا على أكتافهم نعشه وصلوا عليه ثم أوصلوه إلى مثواه الأخير .

هبط أبو منصور وسعد ونعيم إلى الحفرة الغائرة واستقبلوا جثمانه بأيديهم المرفوعة وفى بطاء ورفق وسدّوه الأرض وصعدوا ثم أهالوا التراب .

واكتظت دار أبى جعفر بالمعزيات من النساء اللائى
جئن يشاركن أهل الدار حزنهم بالبكاء والحديث عن جميل
صفات الفقيد وضرورة الصبر على قضاء الله الذى لا
يُحمد على مكروهه سواء. وحدها سليمة لم تبك ولم تبادل
أيا من الجالسات الكلام. يقلن " لكل إنسان أجل " فهل كان
هذا أجله حقا أم أن حرق الكتب هو الذى قتله ؟

تذهب المعزيات ويتوغل الليل وينام أهل الدار وتبقى
سليمة فى فرشتها تحرق فى الظلام وتتساءل. هى أيضا
لم تطق حرق الكتب وكان نعيم يبكى بحرقة وسعد وحسن
مفزوعين امتقع وجهاهما ... ولكن جدها وحده هو الذى
مات هكذا فجأة دون مرض ينذر أو يمهد . لم تكن قد بلغت
الرابعة من عمرها حين مات أبوها. قبلها كان مريضا
ويتعذب . تسأل :

- لماذا يئن ؟
- لأنه مريض .
- ومتى يطيب ؟
- عندما يأذن الله .
- أذن الله ولكن بشيء آخر ... حملوه إلى قبره .
- أين ذهب ؟
- مات .
- ماذا يعنى " مات " ؟
- اختاره الله ليكون بجواره فى الجنة .

تخيلته وقد اختصه الله بمقعد عال الى جواره فى جنة
أجمل من جنّات عين الدمع يكركر الماء فيها جاريا بين
الأشجار السامقة والزهور على كل لون. هل تطلب من

الله أن يختارها هي أيضا فتذهب إليه لتعيش معه في ذلك المكان الجميل أم تبقى مع جدها وجدتها وأُمها وأخيها؟ أم تدعوه أن يأخذهم جميعا معا؟ وماذا عن رفيقاتها اللائى يشاركنها اللعب؟ لعله من الأفضل أن تبقى.

بعد سنة أو أكثر قليلا وجدت سحلية صغيرة فى فناء البيت. اقتربت منها فلم تهرب مدّت يدها وأمسكتها من ذيلها. كانت باردة ميتة حملتها إلى جدتها :
- هذه السحلية ميتة أليس كذلك ؟

شهقت جدتها قرفا ووبختها وطالبتها بأن تلقىها وتغسل يديها ولكنها ظلت فى مكانها.
- عندما تموت السحلية يا جدتى هل تصعد الى السماء ؟
تلجلجت جدتها ولم تحر. جوابا .

ظل السؤال معلقا ثم نبتت فى رأسها أسئلة أخرى: ما نفع السحالى والخفافيش والعقارب، لماذا خلقها الله أصلا ولماذا يميتها بعد ذلك ؟

بعد شهور سألت جدها :
- عندما تموت العقارب والسحالى هل تذهب كالبحر إلى السماء ؟
جذبتها أمها بعيدا وقالت لها إنها تزعم جدها بأسئلة سخيفة وطلبت منها أن تخرج للعب مع رفيقاتها فى الحارة ..

وقفت عند باب الدار وهى تفكر انه من غير المعقول أن
تذهب العقارب الميئة والسحالى والأفاعى إلى الجنة
فتخيف الناس وتزعجهم . عادت ركضا الى جدها!
- جدى هل تذهب السحالى بعد الموت إلى الجنة أم الى
النار ؟

- إلى النار .

- وما الذى فعلته لكى تذهب إلى النار ؟
- إنها تسبب الأذى للبشر ولذلك تدخل النار .

تركت جدها وخرجت إلى الحارة غير مقتنعة بما
سمعتة . غريب أن تذهب العقارب إلى الجنة وأغرب منها
أن تذهب الى النار . ألم يخلقها الله عقارب قارصة مؤذية
... لم تختار ذلك فلماذا يعاقبها الله على ما لم تختاره ؟

عادت تفكر فى جدها وفى النار المشتعلة فى أكوام
الكتب فى ميدان باب الرملة ، تغفو ثم تصحو فزعة ، ثم
تشعر باللهب يحاصرها فتفتح عينيها فتنتبه إلى أن
جسدها يترتجف بردا وأن أسنانها تصطك . دثروها بأغطية
كثيرة وبدا لها وهى محمومة انها تلحق بجدها ...

يوم شفيت سليمة من الحمى التى أصابتها بكت أم
حسن بحرقه لأنها أيقنت ان المرض ذهب بعقل ابنتها
وسلامة إدراكها إذ فوجئت بالبنت تقوم من فرشتها
وتغسل وجهها وتغير ملابسها وتقول إنها ذاهبة الى عين
الدمع .

- نعم سآذهب إلى عين الدمع إن أردتم أن تأتوا معى
تعالوا وإن لم ترغبوا فى ذلك أذهب وحدى !

حاولوا جميعا إقناعها بالعدول ولم يفلحوا فسايروها
لعل إرضاءها يهدىء من اضطراب عقلها فيعود لآتزانه.
اكتسروا عربة ورافقوها إلى بيت عين الدمع. وما أن
وصلوه حتى نزلت سليمة إلى القبر ونظفته وأعدت
ترتيب الكتب التي فيه وأتت بورق وريشة ومحبرة
وسجلت أسماء الكتب، تكتب اسم المؤلف وعنوان
الكتاب ثم تنتقل إلى السطر التالي حتى سوّدت قائمة
من عشر صفحات تحمل كل منها عناوين سبعة كتب
مأعدا الورقة الأخيرة التي سجلت فيها ستة عناوين.
وعندما انتهت أجلسست حسن أمامها وأعطته الريشة
والمحبرة و ورقا أبيض وراحت تملأ عليه القائمة مرة
أخرى.

- لماذا يا سليمة ؟

- أريد نسختين من القائمة !

فى ساحة البنود التى تتفرع الطرقات منها إلى
البنازين والقصبة الجديدة والقصبة القديمة فتاة تحمل
سلتها وتمشى كباقي خلق الله . خرجت من بيتها لتشتري
غرضا أو تزور دار عمه لها أو خالة . ذاهبة أو عابدة ، الله
أعلم ، ولكنها كانت تمشى فى حالها لا يخفى غطاء رأسها
جديلتها الطويلة ولا ثوبها الفضفاض قدها المشقوق .

لمحت رجلين قشتاليين يقتربان فغضت الطرف وواصلت
السير لتتجاوزهما أو يتجاوزاها . رفعت عينيها فبدأ
لها أنهما يحدقان فيها . تجاهلت نظراتهما وأسرعت
الخطو . رفعت عينيها فبدأ أنهما يقصدانها . ازدردت
رأسها وتحيرت للحظة . ثم اندفعت تركض فى الاتجاه
المساكس . ركضا خافها حتى لحقا بها .

- ما الذى تريدانه ؟

- ما اسمك ؟

لم تملك الركض ثانية . كان أحدهما قد طوقها بذراعه
وأمسك الآخر بجديلتها ولفها كالحبل حول قبضته .

صاحت البنت طلبا للنجدة فإنها لا عليها بالضرب . علا

- صياحها وتواصل حتى وصل أسماع أربعة من الشباب
اقتربوا راكضين. رآهم القشتاليون فتوالت صفعاتهم
وأوسعا الفتاة ركلا بالأقدام حتى سقطت مغشيا عليها.
- هذا بلاسكو دى بارينويغو مفوض الشرطة .
- ومن ذلك الآخر ؟
- انه سالثيو خادم الكاردينال .

تعرف الشباب على الرجلين زادهم غضبا على غضب
فاشتبكوا بهما فى مشاجرة استخدمت فيها القبضات
والرءوس والأقدام. وفى حين حمل شابان الفتاة الى
أقرب بيت وهما لا يعلمان إن كانت على قيد الحياة أم
فارقتهما كان الاثنان الآخران مشتبكين مع القشتاليين
" الكلب سالثيو أفلت ! " صاح أحد المشابين ملتفتا فركض
الآخر وراءه واختفيا. تلقى الشاب الذى التفت وصاح
لكمة من بلاسكو أدارت رأسه ومكنت غريمه من الإفلات.
قام الشاب وانطلق راكضا وبواءه وكاد يمسك به فى مدخل
الحارة ولكنه قبل أن يفعل ألقى شخص حجرا من نافذة
أحد البيوت على رأس بلاسكو فسقط على الأرض
وفارقتة الحياة .

فى ساعات معدودة كان الخبر قد انتشر فى البيازين
كلها ومعه انفلت الغضب المكتوم فى الصدور. "والعمل ؟"
"تُغلق الأبواب ! " .

تفرق الرجال شرقا وغربا، شمالا وجنوبا وأوصدوا
الأبواب بمزاليجها الحديدية الضخمة ومن خلفها أقاموا
المتاريس بالأخشاب والحدائد وأجسادهم. أغلقوا الأبواب

كلها الا بابا واحدا خرج منه الشباب المتجهون الى قصر
الكاردينال بالقرب من الحمراء. خرج الحشد الكبير من
باب البنود الى القصبة القديمة وعبروا نهر حدره
مندفعين متوقدين. والحزن، الحزن الثقيل الذى ركب على
أكتافهم وناءت تحت وطأته الرؤوس وانقبضت القلوب
اعتلوه ، وعلى صهوته انتصبت الجذوع وعلت الهامات
وتألفت العيون ودفعت الأقدام بمهاميزها فراح يركض
منفلتا كأنما قد من لهب .

وفى البيازين سهر الناس فى أمان الله الذى أضاء لهم
طريقهم بنوره الربانى بدرا تماما فى السماء. فى البيوت
أشعلت النساء كوانين النار والتنانير وأدركن الرحي
وطحنن الدقيق وخلطنه بالماء وذرات الملح وبسسنه
وكورنه وفردنه وخبزنه وصففنه فى سلال حملها الصبية
والصبايا على رؤوسهم وساروا بها فى حذر متقد تسبقهم
رائحته الشهية الى الرجال الساهرين خلف المتاريس .

وكان النساء أشعل الحدادون نارهم وانهمكوا فى العمل
ينفخون ويطرقون ويطوعون ويشكلون، يصلحون ما
أتلفه الدهر وأراد الرجال استعادته فى تلك الليلة. كان
الرجال قد أخرجوا سيوف أجدادهم وخناجرهم والسكاكين
ومسحوا الغبار عنها يصقلون الصالح منها ويرسلون
الباقى الى الحدادين ليصححوا مقبضا مكسورا أو نصلا
مائلا .

لم تنم فى الليل البيازين كأنها ليلة الرؤية تمور
الأزقة فيها بصوت الصغار وركضهم وحديث الكبار

وفعلهم وتتقد البيوت بالشموع والقناديل وألق العيون
فيسكن فى الليل النهار.

وقبل طلوع الفجر دار المنادى فى الناس معلنا أن
مسجد البيازين هو مسجد البيازين فمن يريد صلاة
الفجر فيه فأهلا به وسهلا. ومن يريد المشاركة فى تدبير
الأمر فليخرص على صلاة الفجر فيه .

لم ينتظر الناس صوت المؤذن، بل قصد المكان فقهاء
ومدرسون وتجار وحرفيون ومحاربون قدامى وصبية لم
تخط شواربهم بعد. التقوا عند الساحة المتاخمة للمسجد
وراحوا يتحدثون واقفين أو سائرين أو جالسين مفترشين
الأرض ثم انطلق صوت المؤذن رنانا ومجلجلا فدخلوا
المسجد وضموا الصفوف وكبروا خلف الإمام .

لم يكن إمامهم شيخ المسجد وكان من كبار الفقهاء
الذين حملوا أمتعتهم وهاجروا بعد إعلان الاتفاقية بأيام
قليلة بل أمهم نجار مسن يعرفه البعض ولا يعرفه البعض
الأخر .

عندما انتهت الصلاة قال الإمام :

- طلب منى أن أؤم صلاتكم هنا فى مسجد البيازين بعد
أن أعاده الله لنا .

اختنق صوت الشيخ بالدموع، تنحنح ثم واصل :

- هذا شرف لى وليتنى له كفو .. يا أهل غرناطة
والبيازين هذه مدينتنا نطعم حلوها ومرها وها هو ذا
أمرنا اليوم بين أيدينا نفلح فى تدبيره بحسن التفكير

والمشورة أو لا نفلح فنجرع كأسا مرة ونعيش بحسرتنا
حتى نموت فما قولكم يا أهل البيازين ؟

سادت لحظات من الصمت ثم قام الناس وعدلوا من
جلستهم مستبدلين بصفوف الصلاة المتراسة دائرة تمكن
الواحد من رؤية الآخرين .. وتمكن الآخرين من رؤيته .

امتد الحديث بالرجال من صلاة الفجر حتى صلاة
الظهر. وكانت أم حسن فى الدار تدور كحيوان حبيس
تحاول أم جعفر تهدئتها بلا طائل: - ذهب لصلاة الفجر
وتأخر، يعود بعدها بساعة، بساعتين، لم يعد، أين ذهب ؟ !

كانت الظنون تتوالى فى رأسها فترجّح ظنا وتعود
ترجّح آخر. هل ذهب ليعسكر مع الشباب خلف المتاريس
... وإن كان قد ذهب فكيف تأتى به ؟ هل تبحث عنه عند
باب فحص اللوز فى الشمال أم باب قشطر فى الجنوب
أم تشرق الى باب وادى العليا أم تتجه الى باب إلبيره
فى الغرب ؟ هل ركب الولد رأسه وخرج من باب البنود
مع الشباب ليحاصروا بيت الكاردينال ؟

كانت تبكى ولا تتوقف عن ترديد أن قلبها يحدثها أن
مكروها أصاب الولد " وقلب الأم لا يكذب ! "

وكانت أم حسن تواصل البكاء وأم جعفر وسليمة كفتا
عن الكلام بعد أن اكتشفتا أنه لا يجدى شيئا عندما دخل
عليهن حسن وكان متورد الوجنتين باسم الوجه ينعكس
انشراح صدره على طلعتة ومشيته.

استقبلته أمه وكأنه عائد من السفر. لم ينتبه لأثر
الدموع على وجهها ولا لاحتفائها الملهوف بعودته وأعلن
بصوت مجلجل :

- اليوم فى مسجد البيازين تشكلت لنا حكومة مستقلة
عن قشتالة اخترنا أربعين رجلا ليتولوا أمرنا وأمر إدارة
البيازين .

لم يبد أن أم حسن أدركت ما يقال لا نشغالها بحزنها
السابق على غياب ابنها وفرحها اللاحق بعودته، أما أم
جعفر فبدا وجهها شاحبا متوجسا ولم تقل إلا " ليوفقكم
الله يا ولدى ولينصركم وهو على كل شىء قدير " .

كانت سليمة هى التى تتقافز توقدا للخير وتطالب
أخاها بالجلوس ليحكى لها ما حدث فى المسجد
ولتستنطقه فيقص عليها التفاصيل فلاتفلت منها شاردة
ولا واردة كأنما كانت تشارك الرجال جلستهم .

ولم يكن حسن قد أتم حديثه عندما جاءه نعيم وأخبره
بأن الرجال الذين يحاصرون بيت الكاردينال قد عادوا
فخرجوا ركضا غير مباين بالإجابة عن سؤال سليمة " لماذا
عادوا؟ " ولا بصياح أم حسن التى كانت تلح فى عدم
خروج ابنها ولا تملك أن تمنعه .

عند باب البنود تحلق الأهالى حول الشباب العائدين
ليسمعوا ويسألوا :

- رجمنا بيته بالحجارة ولم يوفر مسبة .

- ولم لم تقتحموا عليه البيت ؟

- حاولنا ولكن الأبواب منيعة والبيت قلعة .
- والنوافذ ؟
- لم نُبِق واحدة منها على حالها .. تحطم زجاجها وتساقطت الشظايا أمام عيوننا .
- لم يظهر الكلب ؟ !
- لم يظهر، بقى لا بدا كالخفاش فى وكره فقررنا محاصرة البيت حتى يخرج إلينا جوعا وعطشا .
- لماذا عدتم إذن وما الذى حدث ؟!

كانت القوات القشتالية قد أحاطت بهم .

- قوات كثيرة تفوقنا عددا وكانوا مسلحين ولم نكن ... رحنا نتشاور هل نقاتلهم ونحتسب أنفسنا عند الله شهداء أم هناك بديل آخر. عندها ظهر الكونت تانديا معتليا حصانه الأشهب المطهم. ترجل وقال بصوت عال " من يمثلكم فأحدث معه ؟ " وجمنا فقد خرجنا معا ولم يكن بيننا قائد ومقود فلما أعاد السؤال تقدم أربعة من الشباب اقتربوا منه وإستمعوا إليه ثم عادوا إلينا وأخبرونا أنه يطلب رفع الحصار عن بيت الكاردينال فورا قال: " غدا أذهب بنفسى إلى البيازين وأحدث مع زملائكم وأنهى المشكلة " قلنا إننا سنبقى حتى يذهب فإن أجاب زعماءنا واستجاب لمطالبهم نفك الحصار. ذهب الشباب إليه ثم عادوا إلينا ينقلون ما قاله " فكوا الحصار أولا وإلا قمنا بذلك بالقوة. ولستم سوى حشد صغير عار من أى سلاح. وهاهم جنودنا ، كما ترون ، راكبون وراجلون مسلحون كامل التسليح " تشاورنا ثم قررنا فك الحصار ... هل أخطأنا ؟

كان سعد الذى رافق الشباب إلى بيت الكاردينال هو الذى طرح السؤال " هل أخطأنا ؟ " لم يجب عن سؤاله أحد وإن كانت العيون قد جاوبت شكه بنظرتها الحائرة.

ساعتها تعالت صيحات الأولاد الذين اعتلوا الأسوار والأبراج يعلمون الناس بأن حملة من الفرسان القشتاليين تقترب من الأبواب. ساء التوتر وانهمك كل فيما يراه ضروريا من عمل. البعض يقوى المتاريس والبعض يعد سلاحه والبعض، كنعيم، يصعد الأسوار محملا بالحجارة والشتائم لكى يلقيها جميعا على رؤوس أولاد الحرام الذين يريدون اقتحام الحى. وانهمرت الحجارة والسباب من كل مكان والفرسان الذين نجحوا فى اتقانها ووصلوا الى الأبواب وجدوها مغلقة محكمة الإغلاق فاستداروا بأحصنتهم وانسحبوا وسط صخب هائل اختلطت فيه صيحات الغضب وصيحات الابتهاج والسباب والبصقات بكلمات الحمد لله .

ليلة أخرى مستثارة قضتها البيازين موزعة بين السهر والنوم والعمل والسكون المنهك .

والأربعون الذين اختيروا لإدارة أمر البيازين لم تتح لهم فرصة للنوم أو التفكير فيه . كان عليهم التشاور فيما يقولونه للكونت تانديا ان جاءهم للتفاوض كما وعد، وفيما يفعلونه لو حاول الجنود اقتحام الحى وكان عليهم تنظيم الأمور المعيشية لمائة ألف نسمة هم سكان البيازين فيما لو دام الحصار، أسابيع أو شهورا ... هل يكفى الطحين؟ والطريق الى حדרه مقطوعة فهل تفى

بالماء الأبيار ؟ وهل يتوجب تقنين ما يستهلكه الأهالى ؟
وهل يتوجب تسريب رسائل أخرى الى الأهل فى الجبال ؟
وكيف يرسلون طلبات النجدة الى المغرب ومصر
والسلطان بايزيد سلطان بنى عثمان ؟ وفى حالة اقتحام
الجنود للحى واشتعال القتال هل يفتحون الأبواب
الشمالية الغربية لتخرج النساء والأطفال والشيوخ
ويحتتموا بعيدا أم تقتضى الحكمة بقاءهم فى حماية
الرجال المتمرسين خلف الأبواب ؟

فى اليوم التالى جاء الكونت تانديا والتقى مع حكومة
الأربعين. قال:

- ثورتكم على ملكى البلاد تمرد لا تحمد عقباه .
قالوا :

- بنود المعاهدة التى وقعها الملكان والتزما بها خُرقَت:
تنصروننا قسرا وتحرقون كتبنا وتعرضون لنسائنا.
قال :

- اهدأوا وارجعوا الى أعمالكم فنبحث فى مظالمكم .
قالوا :

- ليفادر خيمينيث غرناطة فهو الذى أمر بحرق الكتب
وهو الذى أملى على الثغرى التنصر بعد تعذيبه لشهور
طوال. انه أس البلاء، شرطنا أن يرحل !
قال :

- ان لم تفتحوا الأبواب سنقتحم البيازين عنوة .
قالوا :

- اطرّدوا خيمينيث والتزموا ببنود المعاهدة تفتح
الأبواب .

اعتلى تانديا حصانه ومضى يتبعه حراسه من الفرسان
وعم الناس ارتياح يعازجه شيء من زهو فقد بقيت
أبوابهم مغلقة ومتاريسهم قائمة وكانوا قادرين على
الاستمرار راغبين فيه .

استمرت المفاوضات عدة أيام جاء فيها الكونت وذهب
ثم جاء وذهب ثم عاد فى صحبة الأسقف تالافيرا . مر
الأسقف من باب البنود وهو يبتسم ابتسامته الاليفة ثم
تبعه تانديا ورفع قلنسوته من على رأسه وطوحها فى
الهواء فسرى الهمس بين الناس : " إنه يريد السلام .. "
ركض صبى التقط قلنسوة الكونت الحمراء ورفعها إليه
فابتسم الكونت وابتسم الصبى . تحدث حاكم غرناطة
وكبير أساقفتها مع حكومة الاربعين ومع آخرين أيضا من
التجار والفقهاء .

قال الكونت :

- لنعش معا فى سلام ... ولتكن هذه أزمة عابرة ، ما
قمتم به ليس تمردا على ملكى قشتالة ... أردتم تنفيذ
بنود المعاهدة وهذا ما نضمنه مستقبلا.

قالوا :

- ومن يضمن ؟

قال كبير الاساقفة :

- أنا أضمن .

قالوا :

- كيف ؟!

قال تانديا :

- لا بد من توافر الثقة ...

سكت ثم واصل :

- سأجعل زوجتى وأولادى يسكنون هنا بينكم فى البيازين ... ألا يكفى هذا الضمان ؟! إذن اتفقنا ، اليوم تنتقل أسرتى للإقامة بينكم واليوم تفتحون الأبواب وتلقون بالأسلحة وتعودون لأعمالكم .

ذهب الكونت وحراسه وكبير الأساقفة وخُدامه وبقي الناس فى أماكنهم واجمين. وانتشر الخبر فى لحظات معدودة، حتى النساء اللاتى لم يخرجن من بيوتهن عرفن به وهن منحنيات على صفار يطعمنهم أو ملابس يغسلنها. هل يصدقون الكونت أم قلوبهم ؟ ولماذا لم تقل حكومة الأربعين شيئاً ؟ وهل يمكن أن يضحى تانديا بزوجته وأولاده ؟ لابد أن الرجل صادق وقلوبهم تتطير بلا داع ... كذبوها.

ورغم الاتفاق الذى أبرم والقصر المتروك المجاور لمسجد البيازين الذى أشرعت أبوابه للشمس والهواء وشهدت قاعاته حركة محمومة استعدادا لاستقبال أسرة الكونت انسحب الألق من العيون وبدأت الوجوه شاحبة مشدودة كوتر، لاتطلق حزنها ولاتنحيه، وراح الشباب يرفعون المتاريس من خلف الأبواب ويشدون المزاليج الكبيرة فيحدث صريرها العالى قشعريرة فى الروح، يدفعون بمناكبهم الأبواب لتنفتح فيزيدهم أزيزها توترا.

بدأت الساعات ثقيلة والأيام كئيبة، فلماذا والأزمة حلت ورئيس الأساقفة الذى يقدرونه ضمن لهم حسن المعاملة والاحترام ؟ ومن أين أتت تلك الغربان التى تنعق فتصبغ

الفضاء من حولهم بقتامة لونها ؟

كانت القلوب عنيدة فى تطيرها ولكن أهل البيازين كذبوا قلوبهم واتهموها زورا ثم عادوا فعدلوا بعد أن نصفتها الأيام. طالب القشتاليون بدم بارينويفو فأطاعهم القاضى بتسليم قاتله . ولكنهم عادوا فألقوا القبض على ثلاثة غيره. وعُلِّقت المشانق وتدلَّت على الملاء أجناس أربعة من الشباب. عرف الناس أن الضربة التالية ستوجه الى حكومة الأربعين. ثم انتشر خبر هربهم الى جبال البشترات. أدان البعض هروبهم ودافع البعض الآخر عنهم " هل كانوا ينتظرون أن تعقد حبال المشانق حول أعناقهم ؟ " نفر قليل لايتجاوز أصابع اليد الواحدة استبشروا خيرا وراحوا يحصون الأيام .

بعد موت أبى جعفر انتقل سعد للعمل فى حمام أبى منصور أما نعيم فقد وجد عملا فى محل إسكافى علمه الحرفة فتعلمها وصنع مركوبا لسعد ولما سأله سعد لماذا لم يصنع زوجا لنفسه راوغ نعيم فى الإجابة ثم أقر بالحقيقة " لم يكن بإمكانى عمل زوج آخر دون أن يلاحظ معلمى نقصا فى الجلد والمسامير "

كان الصديقان على عهدهما يلتقيان كل يوم، يجلسان بباب الحمام بعد إغلاقه أو باب الاسكافى أو يسيران معا فى الطرقات يثرثران.

كان سعد يسرف فى الحديث عن حبه لسليمة ورغبته فى طلبها للزواج وخوفه من رفض طلبه. وكان نعيم يستمع اليه دون أن يتحدث عن قلقه الذى كان يتزايد يوما بعد يوم . فى بداية الأمر كان يسخر من سعد وكان سعد يسخر منه. جعل الله له قلبا أخضر يتمايل كالغصن مع النسمة العابرة ثم رأى تلك الأسيرة فأخذت قلبه وذهبت الى أين؟ الله وحده يعلم. ذهبت وتركت طيفها يسكن يومه ولياليه. يسبها ويسب اليوم الذى رآها فيه

و يقسم أنه سيقع فى حب أول صبية تلمحها عيناه فلا يرى من الصبايا الا طيفها الذى يأتية كما فى الصحو فى المنام، وسعد تأخر فى الحب ثم وقع وقعة لا يحسد عليها. تسمر أمام سليمة وكأنه بغل حرون لا يرجع عنها ولا يتزحزح وهاهو فى التاسعة عشرة وسعد فى العشرين ولو بقيا على هذه الحال سنوات أخرى لاكتهلا وماقبلت بهما صبية لها سن ضحوك .

- توكل على الله ياسعد وقل لأبى منصور يخطبها لك .

قال أبو منصور لسعد عندما فاتحه فى الأمر :
- وهل هذا وقت للنكاح والبذار. أقسم برب الكعبة أننى أقول لنفسى كل ليلة ليتك ما تزوجت ... لولم تكن لك زوجة تعولها لتحررت من قهرك بدب خنجر فى صدر قشتالى أو دب نفسك فى النهر فتريح وتستريح .

ولكنه بعد أسبوع وكان سعد منهما فى تنظيف الحمام قال :
- ذهبت الى بيت أبى جعفر وتحدثت مع حسن. سيجيبنى بعد يومين .

ظل سعد واقفا لا يتحرك والمكنسة فى يده ثم كأنما سمع الكلام فجأة سقطت المكنسة من يده واندفع يقبل رأس أبى منصور وكتفيه ثم ركض كالممسوس الى حانوت الإسكافى .

كان نعيم منحنيا على السندان يثبت وجهه سباط جلدى فى نعله والمطرقة فى يده يدق بها. لم ينتبه لمقدم سعد

وجفل حين سمع صوته فسقطت المطرقة على إبهامه. صاح
- متى أتيت وماذا حدث ؟
- طلب لى أبو منصور يد سليمة !

قفز نعيم واقفا فسقطت المطرقة على قدمه. تأوه متألما
ثم راح يضحك ويتراقص .
- سأرقص فى عرسك رقصا يذكره أهل الحى حتى عندما
يشيخون ويفقدون ذاكرتهم !

" لو كان جدى أبوجعفر على قيد الحياة هل كان يقبل
تزويج سليمة من سعد ؟ " كان السؤال هو أول ما فكر فيه
حسن بعد ذهاب أبى منصور. ستقول أمه " فقير معدم
ولا يملك سوى قرش يومه ". ونحن ألم نعد أقرب الى
الفقراء لا نملك الا قرش يومنا ؟ سعد شاب أصيل يصون
سليمة فلم يرد طلبه ... وسليمة ؟ توقف حسن كأنما
واجهته معضلة. قد تفرح وترحب وقد تقول لا قاطعة
مانعة لا يملك معها أحد سوى الانصياع لها. لم يقدر أبدا
على فهمها، وهى أخته التى لم يعرف صبية سواها، كثيرا
ما تساءل هل هذا طبعها لأنها سليمة أم أن هكذا طباع
الصبايا تستغلق على الفهم .

أسر حسن لجدته أول ما أسر. قالت :
لو وافقت سليمة فعلى بركة الله. هذا زمان صعب
وسعد أصيل لن نصبح يوما لنجده قد غير جلده وصار
خادما للقشتاليين.

- هل كان جدى يوافق ؟
- الله أعلم يا ولدى !

- فى المساء جلس حسن وجدته مع أخته وأمه قال :
- اليوم جاءنى أبو منصور وطلب يد سليمة لسعد .
- سعد !؟
- بدا صوت أمه مستغربا لا يخلو من استنكار .
- ما قولك يا أمى ؟
- ولماذا يطلب سليمة، إنه من مالقة فليبحث عن ابنة مهاجر من مدينته ويطلب يدها .
- أى كلام هذا يا أمى ... ما الذى يعيب سعدا ؟
- يعيبه فقره ويعيبه انه بلا أهل نعرفهم ونطمئن اليهم ويعيبه ...
- قاطعها حسن :
- لا يعيبه شىء من ذلك !
- ويعيبه انه لا يملك حتى دارا يسكن فيها عروسه .
- ضحكت أم جعفر:
- هذا العيب الأخير لصالحك يا زينب ... لن تخرج ابنتك من الدار بل تبقى معك هى وزوجها .
- . قالت أم حسن :
- لم يكن جدك ليقبل به .
- جدى كان يحبه كأنه أنا ولقد قال لى يا حسن لو طلب سعد يد سليمة زوجها له .
- هل قال لك ذلك !؟
- نعم قال !
- قالت أم حسن :
- ولكن سليمة لن تقبل.
- أجابت سليمة بسرعة وحسم :
- من قال لك ذلك ... لن أجد زوجا كسعد !

قضت سليمة وأمها وجدتها الليلة بلا نوم. كن يرقدن
فى نفس القاعة على ثلاث فرشات متجاورة ورغم ذلك
فان أيا منهن لم تتحدث مع سواها بل أبقت حديثها مفردا
وداخليا .

كانت أم جعفر تعرف أن زوجها لم يقل لحسن إنه يريد
سعدا لسليمة فلم يكن يشغله زواج البنت ولا كان يتعجله
بل كأنه كان يتمنى فى ضميره أن يظل يعلمها بلا حد
أونهاية، وكأنها ليست صبية مآلها إلى الزوج وخلف
الأطفال. حسن يحب سعدا ويألفه ويريد أن يرتبط به
بتزويجه أخته، لم يفاجئها لا ترحيب حسن ولا تحفظ أمه
فلو جاء ابنتها أمير من عدوة المغرب يعتلى حصانا
مُجنّحا لقاتل يعيبه أنه أمير ويعيبه أن قصره وراء
البحر فهى لا تقدر على بعد ولديها ولا تهدأ ولا ترتاح الا
وهى تراهما أمام عينيها. تأوّهت أم جعفر وهى تتقلب
فى فرشتها: الصغار يكبرون ومن رحل رحل " ألف رحمة
ونور عليك يا أبا جعفر " تشبّثت بصورة زوجها لكى لا
تداهمها صورة ذلك الآخر الأغلى الذى لم تتعود بعد كل
تلك السنوات على مواجهة فقدّه ... ابنتها أبو الولدين،
الذى لم تقدر أبدا بعد ذهابه على النطق باسمه فما بالك
باستحضار هيئته ورسمه .

وكانت سليمة كجدتها تتقلب فى فرشتها مؤرقة تسأل
نفسها لماذا أجابتهم بهذا الحسم. لم تفكر قبل ذلك فى
موضوع زواجها من سعد ولا من غيره. واستغربت طلبه
الذى بدا لها غير مفهوم ولا متوقع. وعليها الآن أن تفكر
فى كيفية التعامل مع هذا الطلب، ليس رفضه أو قبوله

بل تأمله قبل رفضه أو قبوله .. أن تصبح امرأة لرجل تطيعه وتخدمه وتحمل له أولاده ... لماذا ؟ حين بدأت أمها تعدد عيوب سعد فوجئت بنفسها تماما كما فوجئت بالطلب تقول " لن أجد زوجا كسعد ! " هل تبحث عن زوج أصلا لكي تجيب هذه الإجابة. يتعين عليها الآن التفكير في هدوء. ولن تسقط السماء على الأرض إن أعلنت في الصباح أنها لا تريد الزواج من سعد أو سواه. ولولا حديث أمها الذي استفزها لما قالت.

وكانت أمها في فرشتها مثلها مضطربة قلقة. يبدو أنها نائمة ثم تنتبه إلى أنه صحو وليس مناما، تمر على مخيلتها أجزاء من مشاهد غير مكتملة وبعض صور وأطراف لحظات وكأن خطأ انتظم العمر نتفا وشذرات: وجه زوجها الملتحي، الصوت الأجش، عيناها الزرقاوان ونظراته الثاقبة، لفتة الرأس، رمشة جفنيه وهي تناوله سليمة بين ذراعيه يوم ولادتها. ملمس يده على بطنها وهي حبلى بحسن، صوتها ينتحب وظهر أبي جعفر يوم ولد حسن بعد رحيل أبيه. وسعد رثا وهزيلا يوم رآته للمرة الأولى وكلام أبي جعفر " ولد مسكين من مالقة فقد كل أهله " .

وافق حسن على تزويج أخته لسعد ولكن سعدا حين نقل له أبو منصور الخبر اضطرب وسرت في بدنه رجفة يصاحبها شعور كأنه الخوف أو الحزن أو شيء آخر. واصل عمله في صمت ثم سار في الطرقات ليختلي بنفسه ويفهم ما ألّم بها . ألا يريد سليمة؟ يريد لها ويطلبها ويلح في الطلب ويرى في النعم واللا حياة الروح أو موتها.

وها هي النعم جاءتته تحمل فرحا تاقت اليه نفسه سنوات
متتالية . ولكنه كان بانسا يفتقد أباه ويفتقد أمه ويفتقد
الصفيرة والبحر وحقل العنب ويفتقد الحكمة في حكم
السماء بأن يطرق باب عروسه عاريا ووحيدا .

جلس سعد تحت شجرة كستناء برية وأغلق عينيه فرأى
الصبى الذى كانه يركض فى الوعر وقد خلف وراءه بيتا
كان عامرا بأمه وأبيه وجده وأخته، بيتا عاد قفرا فى
مدينة هدها الحصار والجوع وقذائف المدافع اللُمباردية.
كان يركض من ذلك كله الى أين لا يدري، فى النهار يشغله
النهار ورغم الوحشة يقدر، ولكن حين يأتى المساء تتحول
جبال مالقة الصخرية الجرداء بقممها وخوانقها ووديانها
إلى مخلوقات مفزعة يكاد قلبه يتوقف هلعاً من حضورها
الطاغى. لا يجروُ على الالتفات يمينا حتى لا يرى تلك
الحيوانات الهائلة يمتزج فى شكلها طول الأفاعى وظهور
الجمال ورءوس البوم عملاقة تقترب منه تكاد تلمسه
وتقبض. والقمر المعلق فوق رأسه نحاسى أحمر وكبير
يزيده فزعا على فزع، والفضاء من حوله عدو يطلب
روحه، وهو يركض مذعورا يصرخ فيسمع صدى الصوت
فيبتلع الصرخة التالية. يحدث نفسه همسا " قال أبوك
كن رجلا يا سعد، لا تخف، لأن الرجال لا تخاف " يقول
"تشجع يا سعد هذه جبال من حجر رأيتها فى وضح
النهار، جبال جرداء لا تملك لك أذى" ولكن أسنانه تصطك
وبدنه يرتجف ويتفصد عرقا . يجلس منكمشا يسند رأسه
إلى ركبتيه المضمومتين يلف جذعه بذراعيه ثم يهده
التعب فينام جالسا حتى توقظه شمس الصباح وتبدد
بضوئها شيئا من مخاوف الليل.

قام سعد ومشى منهكا ببطء عائدا إلى الحمام. وجد
نعيما مقرفضا بالباب ينتظره .

- أين كنت ؟

لم يجب .

- هل قالوا لا ؟

- قالوا نعم .

واحتار نعيم وهو يحدق في وجه صاحبه ، وجهه يقول
شيئا ولسانه يقول سواه فما الخبر ؟

- وافقوا أم لم يوافقوا ؟

- وافقوا .

- وما الذى دهاك ؟

- لا أدري !

- هل أحببت سواها ؟

- نعيم ... أنا لم أمزح .

- وهل أمزح أنا ؟ !

"سارا معا كان سعد صامتا فلم يجد نعيم بدا من الصمت
... لم يفهم صاحبه ولكنه كان قد وطّد نفسه في سنوات
صحبتهم الطويلة على قبول مثل تلك الحالات التى
لا يفهمها والتى يبدو فيها وكأن سعدا قد أغلق أبوابه
بالمفتاح و القفل والمزلاج وقبع بالداخل زاهدا فى الخروج
لا يفتح لطارق حتى لو كان نعيما أو يفاجئه بالرغبة فى
الخروج الى الطريق وحده "المكان خائق، يطبق على
الأنفاس، أريد هواء نقيا " "أى هواء يا سعد، الثلج يغطى
الطرق والبرد يجمد الأطراف؟ ولكنه يذهب كأنه لم
يسمع. تعود نعيم أن يترك صاحبه لحاله يوما أو بعض

يوم وينتظر حتى يعود سعد اليه يشرع أبوابه ويمتد جسر
المودة والتواصل كأن شيئاً لم يكن.

* * *

ما الهدية التى تليق بسليمة؟ سار سعد فى باحة
المسجد الأعظم المزدحمة دوماً بالباعة والشارين. تطلع إلى
قوالب الصابون وقوارير العطور والخصر والسلال
والقناديل والمشكاوات والصناديق الخشبية. تأمل صندوقاً
مطعماً بالصدف والعاج فى أسفله صفان من الأدراج
الصغيرة، وآخر أصغر منه حجماً تزينه المسامير وتشكل
رءوسها الحديدية المدورة خطوطاً متوازية ومتقاطعة.
حياء البائع ودعاه للشراء فرد سعد التحية وشكره
ومضى. مر على أطقم الخيول والأجمة والركب وتطلع
وهو عابر إلى القدور والأواني الفخارية والمقصورة
والمزججة مختلفة الأشكال والأحجام والألوان ثم توقف
أمام حانوت صف صاحب أوانيه وقدره وقواريره على
بساط صوفى تداخلت ألوانه بألوانها فأضفت على المكان
صبخاً بهيجاً يشد العين ويستأثر. رفع البائع أنية
لازوردية نقشت عليها بمداد أسود لامع عبارات بالخط
الكوفى قال:

- إنها متعة للناظرين، وهدية ثمينة ما رأيك ؟

شكره سعد وانصرف إلى درب الصياغ حيث شاهد
المشغولات الذهبية والفضية الثقيلة والخفيفة والدقيقة.
تأمل الأحجار الكريمة وطالت وقفته أمام قلادة من حلقات
ذهبية متشابكة واسطة العقد فيها حجر كريم أزرق

كقاع البحر عميق. تتمم " تليق بسليمة ذات العينين
الزرقاوين " تطلع إليه البائع فانتبه سعد إلى أن وقفته
طالت فابتعد درءا للخرج ما دام لا يستطيع شراء حلى.

اتجه إلى شارع السقاطين ومنه دخل سوق القيصرية
مرّ ببائعي الحرير وقد بسطوا الحرير الخام والمضفور
والمنسوج. تطلع إليه أحد الباعة قال:

- حرير البشورات، يأتون لشرائه من جنوا ويطلبونه فى
القاهرة وحتى فى دمشق !

- هل عندك حرير من مالقة ؟

ابتسم الرجل ابتسامة مشفقة

- وهل هذا سؤال يا ولدى ... ومن أين لنا بحرير مالقة
وهل عاد فيها أحد منا !؟

سار سعد مبتعدا دون أن يقول شيئا فما الذى يقال
سوى الاعتذار عن القلب الذى يطلب فجأة ما لا يُنال ...
قطعة حرير من نسج أبيه يحملها بين يديه فتهب عليه
منها رائحة البحر وأمه ... غريب هذا القلب، غريب !

واصل السير فى أزقة القيصرية يدخل إلى زقاق يقوده
إلى زقاق ينتهى به فى زقاق، يتطلع إلى مقاطع الرجال
وأثواب النساء والمناديل والقلانس والنعال والسبابيط.
غادر القيصرية وعاد إلى باحة المسجد الأعظم وظل يمشى
حتى وصل إلى باعة المأكولات والحلوى والتين المجفف
والجوز واللوز مكدسة فى سلال كبيرة معروضة على
الشارين، تجاوزها.

ما الهدية التى تليق بسليمة ؟ كان يفكر وهو يمضى إلى الأرض الخلاء المتاخمة للسوق، فى جانب منها كان سوق الدواب معقودا. مشى إليه وراح يشاهد الخيول والبغال والحمير والخراف والماعز. كاد يدير ظهره ليعود أدراجه حين رآها.

هل استوقفه خدر العينين أم رجفة الجفنين ؟ أم أنها النظرة الموزعة بين الخوف والدعة ؟ كان جلدها رقيقا يضرب بياضه إلى صفرة محمرة. جسمها صغير تحمله قوائم دقيقة.

- هل يمكن أن أحملها ؟
حملها وشعر بجفلتها بين ذراعيه. "سأخذها" دفع للبائع الثمن الذى طلبه وذهب.

الظبية التى اشتراها لسليمة سعد، وحملها بين ذراعيه من السوق إلى بيت أبى جعفر جعلت أم جعفر تضحك عاليا وطويلا حتى ترقزقت عيناها بالدموع. أما أم حسن فقد حدقت فى الظبية وقالت مواصلة حديثها السابق "ويعيبه أيضا انه مجنون !" ولكن سليمة التى فاجأتها الهدية اقتربت من الظبية ومدت يدها لتتحسسها فجفلت الظبية وجفلت سليمة، سحبت يدها. راحت تتطلع إليها، لا حظت العينين السوداوين الواسعتين وحركتهما القلقة "إنها خائفة" مرة أخرى مدت يدها ببطء حريص، لم تجفل الظبية وإن أحست سليمة برعشة فى الجسد وهى تتحسسه برفق. أتت لها بأنية صغيرة بها حليب وتربعت بجوارها وهى تشربه.

قضت سليمة بقية اليوم منشغلة بالطبية لا تتركها إلا لتأتى لها بطعام أو شراب وفى الليل دب خلاف بين سليمة وأمها لأن أمها أرادت أن تربط الطبية فى الباحة الخارجية للدار وأصرت سليمة أن تبقيا معها فى الحجرة التى تنام فيها. قالت أم حسن :

- وهل هذا عقل ... هل تنام البهيمة بجوار فراشنا ؟
- أولا ليست بهيمة، ثانيا لو تركناها فى الباحة الخارجية قد تصاب بالبرد وقد ينقض عليها طير جارح .

أصرت أم حسن على رأيها وكذلك سليمة ولم ينفك الخلاف إلا تدخل أم جعفر التى اقترحت أن تترك الطبية فى الرواق .

- بشرط أن تنظف المكان فى الصباح.
- قبلت سليمة وقبلت أمها وأوت كل الى فراشها. وعندما تأكد لسليمة أن أمها استغرقت فى النوم حملت فرشتها وتسملت الى خارج الحجرة:
- الى أين ؟

سألتها جدتها فأجابت :

- سأنام فى الرواق، الحر هنا خائق تصبحين على خير يا جدتى .

- تصبحين على خير .

قالتها أم جعفر وهى تغالب الضحك

* * *

قبل الفرح بأسبوع فاح العرس من دار أبى جعفر فسبقت رائحة الفطائر المقلية فى زيت الزيتون خطوات

نعيم وحسن إلى بيت الجيران والمعارف والأحباب. يحمل كل منهما متردا جلديا صُفَّت عليه الفطائر مغمورة بعسل النحل ويوصله إلى بيت من بيوت الحارة ثم يعود ليحمل سواه.

وكانت أم جعفر وأم حسن وامرأة ثالثة من القريبات قد انهمكن منذ الفجر في نخل الطحين وغجنه وتخميده وتقريصه ثم قلبه في ثلاث قلايات نحاسية لم تُرفع عن كانون النار منذ منطلع النهار حتى العصر، يغلى الزيت فيها تستوى فطائر فتُرفع منها وتصفى في حين تستقر في زيتها المقدوح فطائر غيرها.

وقبل العرس بيومين تحركت ثلاث عربات تجرها البغال من بيت أبي جعفر قاصدة " حمام الهنا " حاملة سليمة وأمتها وجدتها ونسوة الحى وصفارهن وصبايا يقاربن سليمة في العمر .

وبجوار النسوة صُفَّت السلال والمناديل المصرورة على المناشف النظيفة والغيارات وأكياس التفريك واللوف والطباسات المكيّة والصابون وأوان وقوارير أودعت فيها النساء حاجتهن من الحناء والمسك وزيت اللوز وزيت الزيتون .

وكان الخروف المحشو الذى سوته أم جعفر في الليلة السابقة مستقرا في قدر نحاسى كبير محكم الإغلاق تعاون على حمله الى العربية اثنان من المكاريين الثلاثة .

ولم يفت الجازات إحضار الطيلة والدف ولا إعلان المحبة
بصنع فطائر شهية محلاة بالعسل ومحشوة بالجبن
والينسون أو بالجوز المطحون . ولا فاتهم حمل شراب
الفاكهة اللائى ركزته وحلّينه وعبأنه فى القناني
واحتفظن به شهورا فى انتظار المناسبات السعيدة .

دخل الموكب الحمام واختلط صخب صفاره بزغاريد
النساء ودعواتهن بالسعد والأفراح . وضعن أحمالهن
ورحن يخلعن ملابسهن ويأتزرن كل بمنشفة حول خصرها
وأخرى على الكتفين ، تستر ولا تستر النهود العارية .

ثم انتقل الموكب الى المغطس وعلا صوت إحدى الجارات
مذكرة أم حسن بما كان منذ أربعة عشر عاما يوم ولدت
سليمة .

- حملتها بين ذراعى وضممتها إلى صدرى وقلت لك
يا أم حسن لو أمد الله فى عمرى أحممها يوم عرسها . .
أتذكرين ؟

لم تكن أم حسن تذكر شيئا من ذلك ولكنها قالت :
- طبعا أذكر .

أجلست الجارة سليمة أمامها وحلت لها ضفاثرها
وراحت تغترف بالطاس ماء ساخنا من الجرن وتصبه على
رأسها .

زغردت النسوة وأمسكت إحداهن بالدف وانطلقت
أهازيج الفرح تقطعها دعوات المسنات بطول العمر
والخلف الصالح إن شاء الله . وكان الصغار يرقصون
مستثارين فتنهرهم الأمهات محذرات من سقوط

أحدهم فتنكسر ساقه أو ذراعه .

وبعد أن كُيسَت الجارة لسليمة جسدها وصبنت لها شعرها وجسدها وسكبت عليها الماء الساخن قالت لها قومي لأرى، فقامت . سحبت المرأة الإزار من حول خصرها فوجدت سليمة نفسها تقف بين النساء عارية تماما كما ولدتها أمها فداهما الحياء وتضرج وجهها بحمرة الخجل وكادت تنتزع الإزار لتستر به نفسها . ولكنها تخرجت من أن تبدو صغيرة وبلهاء فظلت واقفة بلا حراك موزعة بين الحياء والمكابرة .

صاحت امرأة " سبحان الخلاق ... عريسك مُسعد يا صبية ... أشهد لله أنه مسعد " وكانت قطرات الماء وحببات العرق تنحدر على عنق سليمة يغطيه شعرها الأسود المجعد الكثيف ويلتمع بدنها الأسمر متوردا بفعل اللوفة والماء الساخن .. الشديان ناهضان مستديران صفيران والخصر نحيل والردفان بهما امتلاء طفيف تحملها ساقان مصبوبتان " سبحان من صور . " علقَت امرأة " بنا يا عروسة " قالت أخرى وهي تسحب سليمة إلى مقصورة إزالة الشعر .

وتواصل الغناء مصاحبا لانهماك النسوة في تحميم صغارهن وبعضهن البعض وذلك الطقس الآخر الأكثر إنهاكا الذى يدور فى المقصورة مستورا عن العيون وكانت أم جعفر وأم حسن قد أجلتا حمائمهما إلى بعد الغداء فانهمكت أم حسن فى إعداد الحنّاء، حنّاء وفيرة ملأت قصعة كبيرة تكفى الجميع وانشغلت أم جعفر بترتيب

الأطعمة فى الوسطانى . وكانت كعادتها قلقة يشغلها
توفيقها فى صنع الطعام الطيب وما يكفى ويفيض منه
فتعلق أم حسن " وهل هى أول مرة تولين فيها يأم جعفر
لا أطعم من أكلك ولا أوفر منه " وعلى ما فى الكلام من
ثناء فلم يكن يهدأ لها بال الا بعد أن تأكل النسوة ويتأكد
أن الأكل طيب ويكفى ويزيد . تراقبهن وهن يأكلن وتدور
عليهن وعلى صفارهن تشدد الدعوة وتثنى وتثلك لا تقرب
الأكل ولا يشبعها الا شبع ضيوفها وتثبتها من أن واجب
الضيافة قد تم على أكمل وجه .

بعد الانتهاء من الطعام استراحت النساء بعض الوقت
ثم عدن الى المغطس ليواصلن الحمام . وأعلنت أم جعفر
بحسب: " سأحمم سليمة " صبنت لها رأسها ثلاث مرات
وليفت جسمها مرة ومرة ومرة وسكبت عليها الماء
الوفير، جففتها ثم دهنت لها شعرها بزيت اللوز ودلكت
بدنها بالمسك وزيت الزيتون . وفى حين انهمكت يداها فى
العمل كان وجهها يشرق ويغيم وعيناها تتألقان لحظة
وثترقرقان بالدمع لحظة وهى تنتقل من قطعة اللحم
الصغيرة التى حملتها وليدة بين يديها الى الصبية
البهية، الغالية ابنة الغالى .. ترى أبا جعفر فتتشبث
بصورته كطفلة خائفة من طيف ذلك الآخر الذى لا تملك
أبدا التحديق فيه الا وخذلتها نفسها فانسحبت روحها
وبدا لها أنها تموت ..

- لماذا لا تغنين يأم جعفر ؟

- أغنى، سأغنى .

- شاركتهن الغناء بصوت راجف .

- هات الحنة يأم حسن .

صاحت احدى الجارات :
- أنا أحنيتها !

واقتربت من القصعة واقتطعت بيدها اليسرى شيئا من العجينة اللينة الرطبة " قفى يا سليمة " وقفت سليمة وتربعت المرأة على الأرض وأخذت قدرا صغيرا من الحناء على طرف سبابتها اليمنى ورسمت بها فى حرص دقيق خطا يتمايل صاعدا من مفصل القدم ثم أخذت قدرا آخر وواصلت . أعادت الكرة حتى اكتمل الرسم زخرفا جميلا كالغصون المزهرة تزين حمرة الدكناء الكاحل ووجه القدم " أقعدى ياسليمة " قعدت فحنت لها المرأة الكعبين وبطن القدمين ثم انهمكت فى تحنية الكفين وما إن أتمت المرأة مهمتها حتى علت الزغاريد مرة أخرى ثم أخذت النساء الواحدة بعد الأخرى يقططن من القصعة شيئا من الحناء ويتحننن والأكبر سنا اغترفن قدرا أكبر لصباغة شعورهن.

وظلت سليمة جالسة بلا حراك ويداها وقدماهما مشرعة حتى يجف ما عليها من الحناء .. كانت تتطلع الى المكان تتأمله وتتأمل نفسها فتستغرب ولا تفهم تماما وتود لو كانت مع طبيبتها تتحسس رأسها أو تتابعها وهى تتحرك فى ألفة الدار بخفة ورشاقة.

* * *

كانت ليلة العرس صاخبة عم المدعوين فيها الفرح المستثار ليس فقط لأن هكذا سنة الأعراس ولكن أيضا لأن

الثورة التي اندلعت في البشترات ونجاح الثوار في الإيقاع بالقشتاليين والاستيلاء على بعض الحصون الواقعة على البحر فتح أبواب الأمل على مصاريحها : قد يصلون المَرِيَّة وقد تمتد ثورتهم فيستعيدون غرناطة وقد يأتي المدد من مصر والمغرب وقد يلتقي المجاهدون والمنفيون القادمون على متن السفن بإخوانهم المقاتلين على الأرض.

كان الخوض في حديث ثورة البشترات قد أصبح للأهالي خمرتهم اليومية يقبلون عليها في نهم ويسرفون في تعاطيها فتسرى في عروقهم جذلا ونشوة: لا يعملون ترديد التفاصيل ولا الاستماع اليها كأنما هي تقاسيم عود أو غناء موشحة يزيدك ترددها طربا: .

صعدت خيول القشتاليين الطريق الجبلية الوعرة تحمل فرسانهم منتفخين زهوا وخيلاء كأنما النصر في متناول اليد ليس عليهم سوى أن يلكزوا أحصنتهم إليه، لكزتان في بطن الحصان فيصهل مندفعاً الى القمة المنشودة: ثم انهمرت عليهم الحجارة من أعلى الجبل، سيل من الأحجار على رؤوسهم فتساقطوا مع خيولهم وتدحرجوا الى الوادي السحيق ويا مغيث ولا مغيث. يضحك الأهالي طربا ويردد أحدهم والابتسامة لم تفارق شفثيه " ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل. ألم يجعل كيدهم في تضليل. وأرسل عليهم طيرا أبابيل. ترميهم بحجارة من سجيل. فجعلهم كعصف مأكول. "

وتانديا الأفعى جرد حملة الى الجبل وجلس في قصره

مفتبظا ينتظر أخبار اقتحام القرى فى حين كانت
الشلالات تغرق فرسانه بناء القنوات التى فتحها الثوار
من أعلى الجبل وكأنه الطوفان سلطه الله عليهم بلا نوح
ولا سفينة.

كانت ضحكاتهم الحرة العالية تختلط بأهازيج النساء
ونقر دفوفهن. وكانت أم جعفر وأم حسن وحسن ونعيم قد
أعدوا فناء الدار لجلسة الرجال وفرشوا أرضها بالأبسطه
والزرابى ثم رافق نعيم وحسن سعدا الى حمام أبى
منصور الذى أصر أن يضم العريس بنفسه " هذا حمام
العمر يا ولد ! " يحك له ظهره وقفاه وهو يضحك كأنما
أعادت له ثورة البشرات شخصه القديم لطيفا ظريفا
ضحوكا مقبلا على الدنيا والناس محتفيا بوجوههم .

وفى العرس رقص أبو منصور على دق العود وصفقات
الأيدي منتظمة الإيقاع. كان يحرك كتفيه ويشرع ذراعيه
ويشد قامته ويتمايل بجذعه فيرتج كرشه فيضحك
ويضحك الحاضرون. ويواصل الرقص عفيا مشرق الوجه
جذلا كأنه العريس. والعريس سعد يسحب به أبو منصور
ويملى عليه الرقص فيرقص متعثرا خجلا لا يلاحق أبا
منصور فى خفة حركته وليونتها فيزداد تعثرا ويشعر
بالدماء تصعد الى رأسه حياء وخفرا كأنه صبية عليها أن
ترقص أمام الرجال.

جلس سعد وجلس أبو منصور وقام عدد من الرجال
يرقصون ويغنون وحمل بعضهم العصي وصار كل اثنين
منهم يرقصان معا . يرفع الواحد منهما عصاه فوق رأسه
أفقية ما بين يديه فينزل عليها بالعصى رقيقه. يقفز

عاليا فتقطع عصا الآخر الهواء تحت قدميه وواصلوا حتى
التصقت مقاطعهم بأجسادهم من شدة العرق.

ثم قام نعيم وقال وهو يضحك: " افسحوا لى مكانا
لانى أريد أن أرقص وحدى" وغمز لسعد بعينه مذكرا
بوعده له.

أشرع ذراعيه على امتدادهما وشد قامته وشب على
أطراف أصابع قدميه ثم رفع قدمه اليسرى عن الأرض
ودار بجسمه فجأة دورات متصلة سريعة خلعت من قبضة
الأرض وأضاعت حدود جسمه الملتف مستطيلا فى
دوامتها، ثم فجأة توقف فصفق الحضور وتعالص صيحاتهم
إعجابا بافتتاحيته المدهشة ثم بدأ نعيم رقصته منمقة
مرهفة ووئيدة فى أن كالتقاسيم تتتابع تعلو وتخفت
يصاحبها إيقاع الأيدي المصفقة فى انتظام، ترتفع ذراعا
فتستطيل قامته المشدودة ثم يتمايل جذعه قليلا قليلا
كأنه لا يتمايل ثم يدق الأرض بقدميه وينزل ببطء
ذراعيه لا يلامسان ردفيه وينفخ صدره كقوس مشدود ثم
ينطلق وتتسارع دقات الساقين والفخذين يعلو ويهبط ثم
يعلو ويهبط تتابعه العيون ، محدقة وأنفاس مبهورة كأن
فى الرقصة بيانا وفى البيان سحرا .

قبل أن يستيقظ سعد وسليمة كانت أم جعفر وأم حسن أعدتا كل شيء: الماء الساخن لاستحمامهما وخبزا طازجا بكرتا فى عجنه وخبزه، ودجاجتين مغمورتين فى مرقهما هنيئا مريئا للعروسين، وأصنافا من الحلوى صنعت أم جعفر بعضها قبل العرس وأتى ضيوف الليلة السابقة ببعضها الآخر.

وما إن خرجت سليمة من الحجرة حتى رمقتها أم جعفر بنظرة سريعة فاحصة. كان وجهها متورداً وملامحها مستقرة. اطمأن قلب الجدة فصبحت على سليمة وقبلتها وانصرفت لمواصلة أشغالها.

وأكد اليومان التاليان مالحظته أم جعفر فعلمت وهى ترى العروسين هادئين متألقين: " يبدوان كفرخى حمام! " وقالت أم حسن لابنتها وهى تبتسم مداعبة: " لو كنت أعرف ان الزواج يجعلك هكذا وديعة لزوجتك يوم تعلمت الكلام! "

فما الذى حدث بعد ذلك ؟ لاحظت أم جعفر وجه سليمة الشاحب وجفنيها المنتفخين كأنما من أثر بكاء " يحدث

أحياناً أن يختلف الزوجان ولكن هل يختلفان فى الأيام الأولى لزواجهما ؟ " أسرت بما يشغلها لأم حسن وقلبت معها الأمر على وجوهه .. تشاجرا ؟ أم يثقل عليها بما لاتطيق ؟ أم يعجز عن الإيفاء بما تطلب ؟ لو لم تر سعدا لقالت أساء إليها واستبد كبعض الأزواج الذين يظهرون القسوة لنسائهم منذ البداية ليضمنوا طاعتهم وانصياعهم ولكن سعدا بدا مرتبكا مثل سليمة ، شاحب الوجه زائغ العينين فما الذى حدث ؟ سألتها أمها :

- مابك يا سليمة ؟
- ليس بى شىء .
- هل أساء لك سعد ؟
- سعد ؟ !
- هل تشاجر معك ؟
- هل هذا كلام يا أمى ؟ طبعاً لم يتشاجر معى !

تداولت أم جعفر و أم حسن فيما يتوجب عليهما فعله . فكرتا فى التحدث مع حسن فى الامر ثم عدلتا وبعد طول تفكير توصلتا الى حل قررنا أن تتقاسما تنفيذه . حين يدخل العروسان إلى مخدعهما ويفلقان الباب تقف أم جعفر خلف الباب وتصيحخ السمع ولا بد أنها تسمع شيئاً مما يدور بينهما . وعندما تتعب ويثقل جفניה النعاس توقظ أم حسن لتواصل المهمة وتأوى هى إلى فراشها . ونفذت أم جعفر وأم حسن خطتهما فتقاسمتا الليل متناوبتين على باب الحجرة ، كل منهما بدورها تلصق أذنها لصقاً فى الباب وتركز حواسها جميعاً فى هذه الأذن.

وفى الصباح عندما اخذت أم جعفر حصتها المقررة من

النوم وقامت لتلتقى بكنتها المرابطة خلف الباب
انسحبت أم حسن من موقعها وخرجت المرأتان بخفة
وحرص الى الباحة لتتبادلا نتائج مهمتهما الليلية.

بدأت أم جعفر الحديث أولا مراعاة للسن ولتسلسل
الأحداث . قالت :

- وقفت طويلا حتى كلت قدمي ولم يحدث شيء !
- ما الذي تعنيه بلم يحدث شيء ؟
- لم يتشاجرا ، ولم أسمع صوت سعد يوبخها أو يعلو
بالكلام ولا صوتها المعتاد وهي تجيب بحدة عندما يعاتبها
أحد .

- كانا صامتين !
- لا كانا يتحدثان بصوت منخفض كأنما يسرأحدهما
بشيء للآخر ، بدا لي ذلك ولكني لم أفسر شيئا من الكلام
ولم أدر هل هو الباب الذي كان يحجب بغلظة خشبيه
الصوت عنى أم أنهما أذناى ضعف سمعهما .

- لم تسمعى أى صوت آخر ؟
- أبدا وكأنه لم يقربها كما يقرب الرجل امرأته !
- وأنا ايضا لم أسمع صوتا من هذا النوع !
بدا وجه أم حسن حائرا وهي تقرر أنها لم تعد تفهم
شيئا .

- قلت لنفسي لابد أن ما حدث حدث أول الليل وسمعت
أم جعفر وهما الآن يتصافيان ويتواصلان بحديث لطيب
النفس ولكنهما قضيا أول الليل يتحدثان وآخره يتحدثان
.. هذا مالا يمكن السكوت عليه .

وقررت أم حسن أن تنقل الأمر برمته لابنها لى

يتصرف فى أمر هذا الشاب الذى زوجه لأخته . حاولت أم جعفر أن تثنيها ولكنها أصرت واتجهت الى حيث ينام ابنها وجلست مستنفرة أمام فراشه تنتظر استيقاظه لكى تحكى له ماتأكدت منه بعد طول سهر ومراقبة. ولكنها حين حكى لحسن وبخها وقال لها إن ما تقوله حديث نساء ناقصات عقلا " لم لا تتركين سعدا وسليمة فى حالهما يبدآن حياتهما بالشكل الذى يروق لهما ؟ " فزادها كلامه غيظا على غيظ !

لو أن أحدا قال لسليمة قبل يومين اثنين من وصول الظبية أنه سيكون لها ظبية تحبها كما تحب أمها وجدتها وحسن مجتمعين لضحكت منه ووصفته بالخبيل. ولكن الظبية التى فاجأتها الى حد الدهشة والانبهار تسالت الى قلبها واستقرت فيه كأنما هو بيتها الذى سكنته دائما. كانت فى الليل تقيدها فى الرواق الشرقى وما إن يطلع النهار حتى تطلقها وتبدأ يومها مع سعد باطعامها وملاعبتها وتبادل حملها . وحين يذهب سعد الى عمله تقوم سليمة بما تلح عليها أمها من الأعمال المنزلية بعجلة ونفاد صبر وتنتهى بسرعة لكى تفرغ للظبية ولكتاب تقرأه . تحمل الكتاب وتتربع على بساط فى باحة الدار تقرأ قليلا ثم ترفع عينيها تراقب ظبيتها وهى تتقافز أو تقف ساكنة. وأحيانا كانت الظبية تأتى من نفسها وتتمدد عند قدميها فتواصل سليمة القراءة فى الكتاب الذى تمسكه بيمنها وبيسرها تملس على جسد الظبية المستكينة بالقرب منها.

عندما قالت " لن أجد زوجا كسعد " باتت ليلتها مؤرقة

بسبب تسرعها غير المفهوم. والآن، تسترجع مامر برأسها تلك الليلة فتبتسم للعبارة نفسها التي أقلقته وتبدو لها الآن إلهاما إلهيا لأنها حين قبلت سعدة اقتربت منه أكثر وعندما اقتربت أحبته.

فى الليلة الأولى أقبل عليها سعد باستحياء فأقبلت لاتدرى كيف والتقيا ولما التقيا لفتنهما سكينه لم تعرف شيئا يماثلها، سكينه أطلقت فى داخلها فيضا من حنو ودعة وعذوبة لم تعدها فى نفسها.

وفى الليلة الثالثة حكى سعد عن البحر والسفن الراسية والتى ترحل وتعود. "ومالقة بين البحر والجبل، وعلى الجبل قصر وقلعة والقلعة عالية الجدران وبهية، ليست أكثر بهاء من قصبة الحمراء وقصورها ولكنها أكثر مهابة وجلالا تثير فى النفس شعورا غريبا كاختلاط الخوف بالأمان. ومالقة مدينة كبيرة كثيرة العمائر والبساتين والمدرجات الخضراء المغروسة بأشجار التين والزيتون والبرتقال وكرمات العنب والنخيل. هل راقبت يا سليمة انهمار المطر على حقل كروم؟ السحب فى السماء الغائمة تخفى الشمس إلا قدرا من الضوء شحيحا ينفذ إلى أوراق الكروم ويضرب فى أخضرها اليانع صفرة بهية تزيدها حبات المطر تألقا، كريات كالندى. كان الحقل قريبا من بيتنا، لم يكن لنا، ولكن كان ملاصقا للبيت فتملكه عيوننا أكثر من مالكه

" أبى اسمه محمد عبدالعزيز الحريرى من أسرة توارثت نسج الحرير، كان طويلا منحوت القسمات وجهه

أسمر وشعره أجعد مثلى وكانت عيناه شديدتى السواد
ثاقبتين تضفيان عليه حضورا وهيبه. وكان جدى يقيم
معنا بالببيت، كان يشبه أبى وان جعلته الشيخوخة نحىلا
يبدو أقصر من أبى. كان يطيل الصلاة ويحمل بين يديه
مسبحته طوال اليوم حتى وهو لا يسبح بها. يصيح فينا
حين نسرف فى الصخب ولكنى لم أكن أخافه، لا أدري لماذا
لم أكن أخافه.

" أمى اسمها عائشة. كانت بيضاء، فى جسمها امتلاء،
تميزها ضحكتها، تضحك فيصير وجهها وضاء شديد
الجمال. وكان أبى ينسج لها قطعة من الحرير كل عام
فتفصلها ثوبا ترتديه فى ليلة النصف من شعبان وأول
رمضان وليلة القدر والعيدىن وعندما تدعى لعرس من
الأعراس. أتذكرها فى ثوبها الحريري الأزرق وفى ثوب
آخر كحلى به نقوش بيضاء .

"وكانت أختى نفيسة تصفرنى بأربع سنوات، تقول
أمى " فطمتك فحملت بها " أتذكر وأنا أحملها وأهددها
حتى تنام. وأتذكر خطواتها الأولى وهى تتعثر فى المشى،
وأتذكر أننى كنت أحملها على ظهري وأركض بها فى حقل
الكروم وهى تضحك . "

كان وجه سعد شاحبا وكانت سليمة تغالب البكاء. لم
ينتبها لطلوع الفجر ولم ينبههما صوت مؤذن إذ كان
القشتاليون قد منعوا ذلك منذ زمن. غير سعد ملابسه
واستعد للذهاب الى عمله.

لم يكن سعد راغباً فى مواصلة الحكاية ولكن سليمة ألحّت فحكى على مدى ثلاث ليال تفاصيل كثيرة عن حصار مالقة ثم سقوطها فى نهاية المطاف بعد قصف مروّع من البر والبحر. قال سعد: " كان القشتاليون يقصفون المدينة بكرات اللهب وكرات الرخام والمدافع اللمباردية التى يقتلك صوتها قبل أن تصلك قذائفها ثم اقتحمت قواتهم المدينة ووزعوا الأجراس والصلبان على المساجد وارتفعت بيارقهم على القلعة والأسوار وأبنيتها.

"بعد أيام عندما أعلنوا أن الملكين الكاثوليكين قد أمرا بتوزيع حصص من القمح على الأهالى كان جدى قد مات جوعاً أو قهراً وكانت نفيسة الصغيرة قد قتلها الجوع أو ربما الخوف. بكّت أمى وكررت " ما نفع ذلك الآن ؟ " ولكنها ذهبت وعادت بحصتنا من الطحين وعجنته وخبزته وقالت لى " كل " فأكلت.

" فى أول الأمر قالوا إن بإمكان أهل المدينة أن يجمعوا مشتركين قُدية لكل أهلها من المال والذهب والمتاع المنقول: ثلاثين دُبلة ذهبية عن كل رأس حتى وإن كان طفلاً رضيعاً. قيل إن بالمدينة خمسة عشر ألفاً من السكان فكيف لأهلها بجمع مايفتديهم جميعاً؟ أرسلوا المراسيل الى غرناطة وقيل انهم طلبوا العون من المغرب .

"جمع القشتاليون ما استطاعوا جمعه من الأهالى ثم قالوا إن القدية لم تكتمل وأعلنوا أن أهل مالقة جميعاً صاروا عبيداً للملكى قشتالة وأراجون يتصرفان فيهم كيفما يريدان. وقرر الملكان تبادل الثلث مع أسراهم

المحتجزين فى بلاد المغرب، وفرض على الثلث الشغل المؤبد لسداد ما تكبدته الخزانة القشتالية من تكاليف الحرب أما الثلث الباقي وأغلبه من النساء فقد خصص لاهدائه للبابا ونبلأ أوروبا وأفراد البلاط والمقاتلين، وكانت أمى من هذا الثلث الأخير.

" عندما أخذوا أمى كنت أصيح وأنتحب وألطم خدى، فعطف على جندى قشتالى وربت على رأسى وجعل يسرى عنى ويحكى لى عن أولاد له فى سنى كنت فى الثامنة قال " إبقى معى ولن يمسك أحد بأذى، سأخذك اليهم وأربيك معهم " أمضيت معه شهرا فى مالقة ثم ونحن فى طريقنا، أقصد أنا وذلك الرجل، كان اسمه خوسيه بلانكو، الى حيث يقيم هربت منه " .

كانت سليمة تستمع الى حديث سعد وهى جالسة بجواره مقوسة الظهر قليلا رأسها مائل ويدها معقودتان على بطنها. كانت تشعر برجفة تسرى فى بدننها وألم فى رأسها وتقلص فى أحشائها ثم قفزت من على الفراش خشية أن تفرغ مافى جوفها وهى تهزول " سأذهب الى بيت الخلاء " اندفعت الى الباب وفتحتة بسرعة فاصطدمت بأمها وصرخت كلتاها فى صوت واحد، ثم واصلت سليمة ركضها الى بيت الخلاء لتفرغ مافى أحشائها.

غلت لها جدتها أوراق النعناع مرتين ثم عادت وأعدت لها كأسا من منقوع البابونج الساخن، كان النهار قد انتصف قالت لها أمها وهى تتأملها:

- يبدو لى أنك أفضل الآن، وجهك أقل شحوبا ... هل
تشعرين بأنك أفضل ؟

أجابتها سليمة وهى تحقق فيها :
- ما الذى كنت تفعلينه خلف الباب يا أمى !؟

رأها حسن فى الخان، كانت تمسك بصاجتين بأطراف أصابعها، تصاحب عزف ثلاثة رجال. رجل كبير يُنزل من كتفه الأيمن حزاما جلديا يقطع صدره وينتهى عند خاصرته بطبلة أسطوانية كبيرة يدق عليها بعصاتين خشبيتين صغيرتين، وشابان ينفخ كل منهما فى مزممار فتنتفخ وجناتهما ويصطبغ وجهاهما بالأحمر.

كانت الموسيقى بصخبها المحبب وانسيابها وتقاطعها هى أول ماشده فنظر فى اتجاههم، ولما نظر تعلقت عيناه بالبنت. قدر أنها فى الثانية عشرة من عمرها، أو الثالثة عشرة على الأكثر. صغيرة ونحيفة لم يتكور جسدها تكور الفتاة البالغة. وجهها خمري وشعرها مموج أسود وملامحها مليحة وعادية كبنتات كثيرات يراهن فى الأسواق فما الذى استوقفه اذن ؟ شىء ما فى عينيها أو وجهها أو كلها يفتح لك بابا فتدخل من الظلام إلى النور أو تخرج من عتمة سجنك الى الفضاء الرحب وتتعجب لانك لم تع أبدا وجود ذلك الباب الموصد عليك .. فما الذى حدث ؟ هل تكون البنت من بنات الفجر اللاتى يسحرن عقول الرجال فتملاً رءوسهم التهيؤات ؟!

تعلقت عيناه بها ولما غض الطرف عرف أن روحه هى
التي تعلقت. غادر المكان فبقى طيفها يلزمه. كانت
سمراء، كان واثقا من ذلك، سمراء، شعرها أسود وعيناها
سوداوان فمن أين أتت الألوان ؟! هل كان ثوبها فى لون
الحناء على كفيها ؟ هل هى خضرة الوشم أسفل شفتها أم
كان ثوبها أخضر ؟ أم هو وقع الصاجات وصخب
الموسيقى تثير فى الخيال وهجا كزرقة اللهب ؟

لزمه الطيف وألح فقال أذهب الى الخان وأراها
فتتبدد الألوان فأعود لحالى .

ذهب مرة ومرة، ذهب مرات، ينظر ويغض الطرف حتى
يراهم يحملون آلاتهم ويغادرون الخان.

ثم ذهب وعزفوا ولما انتهوا توجه الى الرجل وقال :
- اسمى حسن تربيت فى بيت جدى أبى جعفر الوراق
رحمه الله، أعمل خطاطا وأتدرب على كتابة العقود لم
يتلعثم، واصل ..
- إن كانت هذه الفتاة بنتك زوجها لى .

ارتعش جفنا الرجل ثم مد يده مصافحا .
- تفضل مع أهلك الى دارنا وإن شاء الله يصير خير .

ذهب حسن مع جدته وأمه وأخته وسعد . لم يكن البيت
فقيرا كما توقع. كان بيتا عتيقا من تلك البيوت الكبيرة
المتوارثة لأجيال عديدة تتوسط باحته نافورة ماء وتحيط
به من جهات ثلاث عقود تفضى الى القاعات.

دخلت النساء الى حيث النساء ودخل حسن وسعد الى قاعة مفروشة بالأبسطة والزرابى التى لم يطل قدمها الواضح جمال نقوشها وإن أفقد ألوانها رونقها الأصيل. ولم تكن الجدران عارية بل مكسوة بالمعلقات، سيف قديم فى غمده، نقش كتابية، خنجرين غمداهما من الفضة المشغولة، أية قرآنية مكتوبة بخط كوفى وبيرق قديم.

جلس حسن وسعد فى حضرة الرجل ورجلين يقاربانه فى السن، قال إن أحدهما أخوه والآخر ابن عمه، والشابين نافخى المزمار اللذين عرف حسن أنهما ابنا الرجل.

قدموا البرتقال والتين المجفف والتمر والزبيب، وكان حسن يدعو الله فى سره أن يفك عقدة لسانه وظل لسانه معقودا. تكلم سعد وتكلموا وتبسطوا وتبسط ثم توكلوا على الله وقرأوا الفاتحة.

قالت أمه معاتبة بعد عودتهم إلى البيت " لم تقل لى إن الرجل وأبناءه يعزفون فى الخان ! « تلعثم حسن ولم يجد ما يقوله. جدته هى التى قالت: لا يعيب الرجل شىء. كان منشدا ينشد فى الأعياد والمواسم سيرة الحبيب وكراماته وبطولات ابن عمه. ثم جاء الشياطين إلى بلادنا ومنعوا الانشاد فهل كان يسرق أم ينشد لملوك الروم ؟! " ولكن أمه قالت " لا أدرى ما الذى أعجبك فيها إنها سمراء مخضرة ونحيفة كالعود. ابنة الجيران أحلى منها ألف مرة فلم لا أطلبها لك ؟! " نظر حسن إلى أمه نظرة عاتبة وقال " لقد قرأنا الفاتحة يا أمى وما دار بيننا كان حديث رجال! ثم اننى أريد هذه الصبية بالذات " بدا على أم حسن

الامتعاظ وقالت " يعز على أن تتزوج من ابنة طبأل " اكفهر وجه حسن وتدخلت أم جعفر لكى تنهى الحديث، قالت " ما الذى دهاك يا زينب البنت لطيفة وخفيفة الروح، وهى صغيرة لم يكتمل نموها بعد، عندما تزوجت كنت أنحف منها ... مبروك يا حسن، إن شاء الله تكون عروسك قدم السعد عليك وعلى الدار كلها، ألف مبروك "

بعد أسبوع عقد حسن على عروسه. وقام أستاذة الذى يدرجه على كتابة العقود بنسخ العقد .

" بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه من المهاجرين والأنصار وأحبابه وأوليائه أجمعين.

أما بعد فهذا كتاب نكاح سعيد انعقد بيمين الله وبركاته وعلى منهاج الشرع الواضح بين حسن بن على بن أبى جعفر الوراق وبين البكر السعيدة مريمة بنت أبى ابراهيم على صداق قدره خمس دبلات من الذهب والدار المتخلفة للزوج عن أبيه رحمه الله والواقعة بعين الدمع خارج غرناطة المحروسة، وجميع أصول الزيتون وجميع الكرم المغروس فى الأرض المحيطة بها، قبليها دار أبى محمد الشاطبى وجوفيها منية أم السعد بنت طه المسعود وشرقيها لرضوان أبى خليل وغربيها الجبل.

وعلى ما ذكر انعقد العقد وتم وكمل منه القصد . «

* * *

لمريمة صندوق ألفته منذ درجت قدماها على الأرض
وتعلمت الأسماء وعقلت معناها. كانت أمها تقول " هذا
صندوق مريمة تحمله معها يوم تذهب الى دار زوجها " كان
الصندوق لجدتها ورثته عن أمها عن سلسال من الجدات
القديمات.

صندوق خشبي مستطيل عليه رسوم عصافير وزهور
وغصون تميل منقوشة. بالبرتقالى والليمونى والفسيقى
والأخضر وحدة منمنمة من نقش عصفورين متشابهين
متقابلين بينهما وردة تحيط بها وبهما الغصون. وحيث
ينتهى قوس الجناح المضموم وطرف الذيل تبدأ وحدة
منمنمة جديدة ذيل عصفورها يكاد يلامس ذيل عصفور
الوحدة الأولى ثم يصعد مبتعدا مع قوس الظهر وينتهى
برأسه المتطلع الى الناحية الأخرى حيث وردته وإلفه.
وفى المثلث مقلوب الرأس الفاصل بين الوجدتين تكثر
الفروع والأوراق ومنمنمات الزهور. تتكرر الوحدة كأنها
نسج من الألوان المبسوطة على خلفية زيتونية زائدا
القدم دكنة وعمقا .

كان الصندوق كبيرا يمكن مريمة حتى سنوات قليلة
مضت من أن تجلس فيه. تلح على أمها فلا تقبل الا فيما
ندر. تقفز مريمة داخله وتجلس متربعة فيه يشاركها
قارورة لازوردية مملوءة بماء زمزم حملها جد من الأجداد
الى امرأته وهو عائد من الحجاز، ومنديل مطرز، وجلالة
من المخمل الكحلى المقصب، وقبقاب تتداخل فى خشبه
البنى مربعات ومثلثات دقيقة من الصدف اللامع،
ومكحلتان إحداهما صغيرة من الذهب الخالص على شكل
طاووس دقيق والثانية من الفضة لها مرود مستدير من

غصون متفرعة، وحق من العاج، وحجر غريب وردى اللون
مائل الى دكنة.

تجلس مريمة وهى فى الخامسة من عمرها تلمس
الأشياء فى رفق كما أوصت أمها يزيد من سرورها وعيها
بأن الجلوس فى الصندوق عزيز كالأعياد التى لا تأتى إلا
بعد طول انتظار ولا يصح لغيرها من بنات الحارة. تحكى
لهن وتسهب وتضيف مايعن لخيالها فيصدقن لأن أيا
منهن لم يتح لها رؤية الصندوق إلا مغلقا بقفله الحديدى
العتيق .

بعد أن طلبها حسن وقرأ الفاتحة مع أبيها أضيف
لصندوق مريمة ثلاثة أثواب جديدة وسباطان جلديان
ومنديل مرقوم وخمار وقميصان وأربعة سراويل وزوجان
من الجوارب الثقيلة وملف صوفى. طوتهم أمها ووضعتهم
بحرص مع الأشياء الأخرى وأضافت مصحفاً صغيراً
تتوسط غلافه الأخضر كلمتا " القرآن الكريم " داخل نجمة
ثمانية محاطة بزخرف نباتى وكأنها قلادة ذهبية
مستطيلة أودعت اطارا دقيقا من خطين ذهبيين تتداخل
فيهما خضرة الغلاف بافريز من متتاليات مسدسة
ومزخرفة.

الصندوق وسليمة وأهلها وبعض الجيران حملتهم
جميعا عربة يجرها بغلان قويان قطعت بهم الطريق من
غرناطة الى البيازين حيث كان حسن ينتظر وصول
عروسه ضاويا ومتألقا .

وصلت العروس وتهللت الوجوه وعلت عبارات الترحيب والدعوات بالسعد والخيرات، ولكن واحدة من أهل البيت أو الجارات لم تطلق الزغاريد، ولا زغرودة واحدة. وكان هذا رأى أبى منصور الذى قال لسعد فنقله سعد لحسن. وافقه حسن وأبلغه أمه وأخته وجدته فأعلمن به الجارات.

قال أبو منصور :

- ياسعد هل تقيمون عرسا فى بيت أبى جعفر وقرى البشرات تحترق وأهلها يذبحون بالمنات كل يوم !؟ طأطأ سعد رأسه ولم يجد ما يقوله .
- هل تنطلق من بيت أبى جعفر الزغاريد والبشرات فى حداد !؟

لم يكن أبو منصور غاضبا إذ كانت أيام الغضب قد ولت. كان يجلس أمام باب الحمام ساهما ولا يتحدث الا لما، يترك العمل فى الحمام الى معاونيه ويقول لسعد: « انت عاقل ومسئول فتصرف بما تراه لائقا » لم يكن يدخل الحمام الا لحظات ثم يخرج كأنما لم يعد يطبق الوجود فى مكان مغلق بسقف فوق الرأس وجدران من كل جانب .

حين نقل حسن الى أمه وجدته كلام أبى منصور الذى قاله له سعد قالت أمه :

- وما الذى يقوله أهل الصبية، عرس بلا طبل ولا زغاريد !؟
- وقالت جدته :

- سيأتى أهلها وجيرانها وأهل حارتنا فكيف نحبيهم
ونحتفى بهم ؟

قال حسن :

- اذبحى الخراف وأعدى طعاما مناسباً ولا داعى
للزغاريد والأهازيج .

لا أم جعفر ولا أم حسن بدتا مقتنعتين بهذا الكلام وان
نقلتا للنساء الحى .

قال بعضهن : " أبو منصور على حق ... " وقال البعض
الأخر : " لو لم نقم الأعراس وندفء قلوبنا بشيء من
الفناء تقتلنا الأحزان ! " وقالت أم جعفر " ولكننا
سنفرح، سنجتمع ونشارك حسن فرحته ... لن نزعرد ولن
نغنى ولكننا سنفرح ! " قالتها وقامت لكى لا ترى النساء
الدموع المترققة فى عينيها والتي انسلت رغما عنها
فأدارت ظهرها لهن .

وحده أبو ابراهيم كان يعرف أن عرس ابنته سيكون
ليلة فريدة يظل يذكرها كل من شارك فيها من أهل
غرناطة والبيازين. حين أخبره حسن برأى أبى منصور
علق قائلاً : " إنه على حق وياليت ماقاله قلته أنت أو أنا
قبل أن يقوله هو " ولحظتها عقد عزمه وقرر أن يذهب
القشتاليون الى الجحيم بقوانينهم وأوامرهم، سينشد فى
عرس ابنته، ومع قراره أتاه ذلك اليقين انه حين ينشد
سيأتى سحرا .

وفى يوم العرس جلس الرجال فى فناء الدار وانهمك
سعد ونعيم وأخوة مريمة فى نقل الطعام وقنان ملاتها أم

جعفر بعصير اللوز. وبعد أن أكل المدعوون ورفع الشباب بقايا الطعام قال أبو ابراهيم : " تعال يا حسن أريدك أن تجلس هنا بجوارى " ثم رفع صوته أكثر وقال موجهًا حديثه للمدعوين : " انتبهوا لحظة فأنا أريد أن أقدم هذه الهدية الى زوج ابنتى. " صمت الرجال وتطلعوا الى أبى ابراهيم الذى لم يروا بين يديه شيئًا .. فأين هى الهدية يا ترى ؟ ابتسم أبو ابراهيم ابتسامة عريضة قال : " أول ما نبدأ نصلى على النبى " .

خيم صمت مطبق واشترأبت الأعناق مستطلعة أمر هذه البداية غير المتوقعة لتقديم هدية.
ثم ارتفع الصوت منشدا :
لله در عصابة سارت بهم

نحب اللقاء بحضرة الرحمن
قطعوا زمانهم بذكر حبيبهم
وتحققوا بسرائر القرآن
ورثوا النبى الهاشمى المصطفى
من أشرف الأعراب من عدنان
ركبوا براق الحب فى حرم المنى
وسروا لقدس النور والبرهان
قرعوا سماء جسومهم فتفتحت
أبوابها فبدت لها عينان
عين تبسم ثغرها لما رأت
أبناءها فى جنة الرضوان
وشمالها عين تحدر دمعها
لما رأتهم فى لظى النيران*

ما الذى حدث ؟ ولماذا جفل الناس كأنهم حراثون
فاجأهم انهمار السيل بعد انقطاعه سنين طوال ... ومن
أين أتتهم تلك الرعشة التى سرت فى أبدانهم فراحوا
يغالبنها فتزداد وجوههم امتقاعا ؟

واصل أبو إبراهيم انشاده عن " النبی الزین " ، " نور
العیون " و " صفوة الرحمن " ، " المصطفى الغالى " ،
" طه المكمل من بنى عدنان " وهم واجمبون لا يدرون إن
كانوا قد وقعوا فى شرك الحنين أم أن إبليس من أعوان
القشتاليين قد جاءهم متنكرا فى هيئة ملك من ملائكة
السماء ... ولكن هذا بيت أبى جعفر فمن أين لابليس أن
يطأه !

ثم بدأ أبو إبراهيم ينشد حكاية الملك المهلهل بن
الفياض مع خالد بن الوليد، حكى عن الرسول وهو يصلى
بالناس ثم يبكى وهو يعلمهم بأن عدوا قادمًا لقتالهم
ومعه مائة ألف فارس وخمسون ألف راجل وأربعون ألفا
من العبيد ... " ماذا تقولون ؟ "

قال أبو إبراهيم : " قال الصحابة :
" يا محمد نحن سيفك القاطع ورمحك الطائل
وحجارتك الكاسرة وسهامك الجارحة وأفراسك الجارية،
وستضرب ونضرب حتى نموت بين يديك " *

وأرسل النبی صلوات الله عليه فى طلب خالد .
" - يا خالد ما منعك عنا ؟ يا أخى خالد، ألم تسمع بلالا
ينادى للصلاة الجامعة مع نبيكم يرحمكم الله ؟

فبكى خالد وبكى النبی لبكائه ثم قال :
- يا رسول الله، منذ ثلاثة أيام ولم توقد نار في داري
... ولدى ثلاثة أبناء وثلاث بنات ألعب معهم حتى يأخذهم
النوم على شدة الجوع .

النساء اللاتي أطلن برءوسهن من الأبواب على
استحياء لم ينتبهن الى أقدامهن وهي تتقدم بهن خلسة،
خطوة، خطوتين، ثلاثة، ثم تركز. وقفت النساء في رواق
المشرقية المحيطة بالفناء، الجذوع ثابتة، الفروع تميل من
حين لحين فيميل معها ظلها المديد، وفي ظلها المديد كان
الرجال جالسين متربعين.

" من بين كل صحابته اصطفى الرسول خالد بن الوليد
ليحمل رسالته الى المهمل. قال النبي صلوات الله عليه :
- يا أخى خالد، اذا طلعت جبلا فاذكر الله، واذا مررت
بواد فكبر الله واذا فطر الحزن قلبك فاتل من القرآن فإن
القرآن شفاء للصدور المحزونة. و اذا بلغت هؤلاء القوم
فلا يدخل قلبك الفزع ولا الخوف منهم.

ثم خرج خالد من باب المدينة، ولم يكف عن المسير
الحثيث ليلا ولا نهارا حتى دخل في أرض موحشة داخلها
مفقود، والخارج منها مولود ... لا ماء فيها ولا زرع فوق
الجواد من شدة العطش والجوع ... قال خالد:
- يا جوادى يا صاحبى أتركنى وحدى وتذهب ؟

تطلع اليه الجواد بعينين كسيرتين فربت خالد على
رأسه وقلبه ثم وضع ثيابه في حزامه، وحمل السرج على
عاتقه وودع حصانه ومشى. سار مسافة فرسخين ثم لم
تطاوعه نفسه وعاد فوجد الحصان مسبل العينين وطائر

الموت على رأسه، فقال :

- يا طائر الموت ألا تعلم أن معى كتابا من رسول الله
... ياطائر الموت دع حصانى واذهب ... ويا حصانى يا
حصانى قم ...

فلم يتم كلمته حتى حلق طائر الموت مبتعدا ونهض
الحصان على قوائمه وضرب الأرض بحوافره وتحرك
فتبعه خالد على قدميه وظلا يسيران معا حتى وصلا جبلا
شاهقا فصعدا بطينا وبرفق حتى وصلا إلى قمته فشهدا
فى أسفل الجبل واديا تظلل الأشجار وتجرى من تحته
الأنهار فهبطا إليه رويدا رويدا وقال خالد :
- يا حصان كل من هذا فان الله من رزق.

فطعم الحصان وشرب فصيح وصهل معافيا .
قال خالد :

- يا صاحبى يا حصان، احرسنى قليلا حتى أنام .

وخلع درعه وضم سيفه الى صدره وغشيه النعاس
فنام. فوجد حصانه يضرب فى الأرض بحذافيره، فشعر به
خالد فاستيقظ من نومه مذعورا فوضع رجله فى الركاب
وامتطى صهوة جواده حتى استوى على سرجه ... فرأى
ألف فارس يتقدمون نحوه ... أطلقوا لخيولهم العنان،
وأشرعوا فى أيديهم الرماح.

أنشد أبو ابراهيم عن لقاء الفارس بالفرسان، وسيوف
بتارة تلتمع وثياب تخضببت بالأرجوان وحممة الخيول
فى حومة الوغى .

قال أبو ابراهيم :
- ولكنهم اجتمعوا على خالد وأخذوه وأوثقوه بالحبال.

وقال الملك :
- خذو حصانه واذبحوه واسلخواه وضعوه فى جلده
وأوثقوه الى هذه النخلة وأعدوا الحطب. غدا نحرقه
فنحرق معه قلب أبى القاسم وركنا من أركان الحجاز.

وظل خالد على هذه الحال حتى إذا جن الليل رفع رأسه
الى السماء ونظر إلى النجوم. ولما نامت العيون ولم يبق
فى الثقليين سوى الحى الذى لاينام، هبت عليه نسمة من
الغرب " راح يغنى ويقول :

ارتفع صوت أبو ابراهيم بالأغنية الحزينة وهم
ينصتون اليه ويتطلعون لا يعرضون عنه طرفة عين. ما
هذا الصوت ومن أين جاء ؟! كان الذى أمامهم رجلا مثلهم
يمشى فى الأسواق ويسعى لإطعام عياله فما الذى فى
صوته لكى تسرى روحهم هكذا إليه ؟!

العيون المستديرة ارتسمت صورة الصوت فيها، فهل
للصوت رسم وهل فى الصوت ضوء ؟! كانت الوجوه كماء
النهر تترجرج، مرايا متقابلة صقيلة تعكس ضوء الشمس
وصورتها المعكوسة على صفحة بعضها البعض.

" على هو الذى سمع الصوت وأتى لنجدة خالد. الفتى
على حمل سيفه ذا الفقار وركب حصانه السرحان وركض
لنجدة خالد. تابع صوته حتى وصل اليه وهز النخلة.

فقال خالد :

- من ذا يهز مشنقتى ؟

قال على :

- يا خالد إن الله مع المحزونين .

" وانتزع على النخلة من جذورها وتلقف خالد بين ذراعيه بزفق شديد حتى لا تؤذيه الأرض وأخرج سكيناً كان معه وقطع حباله من أسره، وحمله الى النهر، ونظفه مما علق به من جلد الحصان ودمه، وتناول على ثوباً من ثيابه، وأخذ العصاة التى كان يعقدها على رأسه وشطرها نصفين وأعطى خالد نصفها وألبسه الثوب. وعندما أذن الله للصباح الطيب بأن يطلع صعد على وخالد الى ذروة الجبل وتجلى النهار وأشرقت الشمس وتحرك القوم وركب العدو اللعين والشيطان الرجيم فى خيله وقواده وجيشه، يتقدمهم ملكهم المهلهل. فأخذ على يضرب الجواد بالمهماز، وقفز عليهم كما يهبط العقاب من السماء وكشف عن علامته الهاشمية فقال له المهلهل :

- يا على ليس كل أبيض برداً ، ولا كل أسود فحماً، ولا

كل ما يبدو أخضر ريحاناً ولا كل حصان يدور فى الميدان .

يا على أنا الملك المهلهل بن الفياض، لم تلد النساء مثلى فإن أردت أن تنجو من الذعر أعطيك ما تنجو به .

قال على :

- ماتريد يا لعين الله ؟

قال المهلهل :

- ترجل عن حصانك وقيل ركابى وقدم لى التشريف

العظيم بين أصحابى.

فقفز على الى حصانه وهو يصيح :

- يا حصانى يا سرحان استحلفك بالله أن تنطلق
بخفة.

واستقر على صهوة الحصان ونقل السيف من
اليمنى الى اليسرى ومد ذراعيه تحت إبط عدو الله
ونزعه من السرج كما لو كان طائرا فى مخالب عقاب
وقذفه على الأرض وضربه بسيفه ذى الفقار فقتله .

ثم عطف على خالد وهو يصيح " الله أكبر " فهجم
كلاهما كأسدين ضارين، على من جانب وخالد من جانب
آخر، وتساقط العلوج أكواما، ولم تزل الشمس من قبة
السماء حتى لم يبق أحد منهم . "

انطلقت زغرودة مجلجلة ترددت فى أرجاء الدار،
تطلعت عيون الرجال ودارت رؤوس النساء، كانت أم
جعفر بطولها المديد منزرعة فى قلب الفناء تزغرد .

يوما بعد يوم كان نعيم يزداد يقينا أن عين حسود
أصابته إصابة من ذلك النوع قوى المفعول الذى يمتد أثره
لسنوات طويلة وإلا فكيف يفسر أن تسرق قلبه صبية لا
يعرف لها اسما ولا أصلا ولا دارا يدق بابها ويقول
زوجونى ابنتكم ويمر عام وعامان وثلاثة وهو لا يرى فى
وجوه البنات الا وجهها يقيم معه فى صحوه ومنامه
ويعذبه بالغياب حتى يملأه الغيظ منها والحنق على نفسه
ويقسم أيمانا مغلظة أن يتزوج ويقع اختياره على أول
صبية صبوحه الوجه تمر بالحارة وفى اليوم نفسه يسأل
عنها ويحسم أمره ويذهب مع سعد الى أبيها فيوافق
فيقرأون الفاتحة ويهنئ نعيم نفسه قبل أن يهنئه
الأخرون على العروس وزوال النحس معا ثم يأتيه أبو
البنت ويقول :

- يا نعيم ، القشتاليون يضيقون علينا ويحملوننا مالا
طاقة لنا به وأخى فى فاس قال لى تعال العمل متوافر
والخير كثير .

- لاتحمل هما يا والدى، سأصون ابنتك وأكرمها، سافر
بالسلامة وحين يفرجها الله تعود .

- سافر أنت معنا وليتمم الله بخير !

لا يقبل نعيم السفر فيحمل الرجل ابنته ويرحل ..

يحكى نعيم همه لام جعفر فتقول له :

- سأجد لك عروسا أحلى منها.

- يا أم جعفر لا أريد لا أحلى منها ولا أقبح، أريد بنتا طيبة أتزوجها لأننى صرت كالبيضاعة الراكدة والسنوات تمر وقد أجد نفسى كهلا بلا زوجة ولا أولاد.

تضحك أم جعفر لكلامه .

- اترك لى الأمر وسأزوجك صبية كالبدنر التمام.

تبحث أم جعفر عن العروس المناسبة وتجدها وتحديث عنها .. طولها وعرضها ووجهها وشعرها وخفة روحها فيذهب نعيم برفقة سعد وحسن لمقابلة والد العروس، وقبل كتابة العقد بيوم واحد تأتى أم العروس الى أم جعفر وتقول لها والدموع تملأ عينيها إن زوجها قرر أن يتنصر بعد قرار القشتاليين بمنع الاتصال بين مسلمى غرناطة وسكان المدن القشتالية الأخرى :

- انه مكارى ورزقه ورزق عياله يا أم جعفر فى تلك الحمولات التى ينقلها حماره من هنا وهناك. وعلينا الآن أن نتنصر جميعا، أقصد الأسرة كلها وإن أراد نعيم أن يتزوج ابنتنا فعليه هو أيضا أن يفعل ذلك.

حكى أم جعفر لنعيم :

- الحق أنها كانت تبكى ورغم أننى وبختها على قرار زوجها الا أن قلبى كان مشفقا عليها ذهبت المرأة بعد أن قلت لها إن نعيما لايفعل ذلك ولو وضعوا السكين على عنقه ، أليس كذلك يا نعيم ؟

- طبعا يا أم جعفر .

ساعتها عرف نعيم أن حظه تعس وأن سوء الطالع قد يرافقه حتى ينحنى ظهره وتسقط أسنانه. تهون أم جعفر الأمر عليه :

- تأخرت صحيح ولكنك مازلت فى العشرين من عمرك!

- الثانية والعشرين يا أم جعفر !

لا يقول لها إن عينا أصابته وأنه فى الثالثة عشرة كان يحب كل أسبوع صبية جديدة. يقتهد متحسرا على حاله وهو يفكر: ترى عين من تلك التى أصابتنى؟ لو عرفت لطلبت من صاحبها أن يوجه مفعولها الى القشتاليين فمفعولها شديد ، شديد جدا !

كان سعد قد تزوج واختزلت لقاءاتهما اليومية الى لقاء واحد يتم كل أسبوع. سعد منشغل بعروسه وهى الآن حبلى وغدا تأتيه بالأطفال فينشغل أكثر، وحسن أيضا تزوج وصار له زوجة تشغله، وهو ؟ تشغله النعال التى ينحنى عليها طوال النهار وفى المساء يدور وحيدا فى الطرقات أو يجلس بباب الحانوت يفكر فى العين التى أصابته .

كان نعيم يجلس ضجرا بباب الحانوت حين رأى سعدا مقبلا عليه. لم يكن يوم لقائهما الأسبوعى. قفز نعيم متهللا وحيا صاحبه بصخب ثم ركض الى داخل الحانوت وجاء بعنقود من العنب وخمس حبات من التين وحفنة لوز وضعها أمام سعد مبتسما.

- اشتريتها اليوم كأن قلبى حدثنى أنك ستأتى

لزيارتى، تفضل كل يا سعد .

انتبه الى وجه سعد، كان هناك ما يكدره .

- ما بك يا سعد ؟

- سليمة تضع مولودها بعد شهرين .

- أعرف .

- ربما أخطأت فى الزواج منها .

فتح نعيم عينيه فى استغراب ثم قال وعلى شفتيه
شئ من بسمة:

- هل شربت من خمر أبى منصور ؟

- لم أشرب .

- تشاجرت مع سليمة ؟

- لم أتشاجر .

- ما الذى حدث إذن ؟

- ما الحكمة فى الزواج إن لم يكن المرء قادرا على إعالة

أهل بيته ؟

- هل قالت لك أم حسن ما ساءك ؟

- لقد جاءوا اليوم الى حمام أبى منصور وأغلقوه،

وأغلقوا كل حمامات البيازين.

كان نعيم فاغرا فاهه ، لم يفهم كلام سعد .

- هل أنت متأكد ؟!

- قلت لك أغلقوا الحمام. جاء جنود وأخرجونا منه

وأغلقوه وقالوا إن فتح أى حمام بعد اليوم تعرض صاحبه

والعاملون فيه لأشد العقوبات !

- لماذا ؟

علت وجه سعد ابتسامة ساخرة مرة .
- يقولون إن الحمامات ضارة بالصحة وإنها عادة عربية سيئة وبلا معنى .

- وأين يتحمم الناس ؟
- ولماذا يتحممون، هل يتحمم أسيادهم القشتاليون ؟
- وما دخل سليمة، هل تشاجرت معك بسبب إغلاق الحمام ؟

- يا نعيم الله يرضى عليك ... لم أتشاجر مع سليمة ولا تشاجرت هي معي. أنا الآن بلا عمل، ألا يكفي أنني أقيم في دار حسن؟ هل أقول له يا حسن أنفق على وعلى زوجتي وعلى طفلنا حين يأتي ؟
- حسن أخوك ونعيم أخوك وستجد عملا .

مرت لحظات صمت قطعها نعيم وهو يقول كأنما لنفسه:
- أولاد الكلب ... يغلقون الحمام، أين نتحمم إذن ؟

عادا للسكوت بدا كل منشغلا بما في رأسه حتى قال نعيم وهو يلتقط حبة عنب ويضعها في فمه .
- غدا تعال عندي، ما إن يطلع الفجر تعال، سأعلمك بعض الأشياء التي أقوم بها، ثلاثة أيام أو أربعة وتتعن كل ما أقوم به ثم نسأل معلمي أن يشغلك معه. سيفضبه خبر إغلاق الحمامات وقد يرق قلبه ويعطيك عملا. طبعاً سيسألك " هل عملت اسكافيا من قبل ؟ " قل له عملت عدة سنوات قبل أن أنتقل للعمل في حمام أبي منصور سيقول لك أين ومع من ؟ قل له في مالقة سيقول لك أرني كيف تعمل فتريه ما علمته لك، ما رأيك ؟

ذهب سعد وراح نعيم يتأمل ذلك الأمر العجيب بإغلاق الحمامات، أن يقاتلك عدوك أمر مفهوم ولكن ما الحكمة فى إغلاق حمام أو إجبار الأهالى على التنصر ؟ القشتاليون قوم غريبون مختلو العقول على ما يبدو ولكن ما السبب فى اختلال عقولهم ؟ ألم تلدهم أمهاتهم أطفالا أصحاء عادين مثل باقى الخلق ؟ كيف تفسد عقولهم فيأتون بهذه الأفعال الغريبة ؟ فكر نعيم فى ذلك ولم يجد إجابة شافية . لعله البرد القارس فى الشمال يجمد جزءا من رءوسهم فلا يسرى الدم فيه فيموت أو يفسد وربما هو لحم الخنزير الذى يسرفون فى أكله يصيب بالخبل ؟

ورغم قلق نعيم من أمر إغلاق الحمامات وفقد سعد لعمله إلا أن شيئا بداخله كان يتعجل الغد يكاد ، لولا الحياء، يعلن السرور لامكانية أن يعمل سعد معه فى الحانوت فيعودان كما كانا يلتقيان كل يوم ويتحدثان بلا انقطاع كعهدهما القديم .

ما إن استقر نعيم على فراشه حتى استغرق فى نوم هادئ ولم يستيقظ إلا حين سمع دقا على الباب فإذا بالفجر طالع وسعد أمامه وقد جاءه حسب اتفاقهما فى الليلة السابقة .

- معلّمى لا يأتى قبل الضحى . أمامنا متسع من الوقت. احك لى أخبارك أولا ثم نبدأ فى العمل ...

ابتسم سعد وهو يتطلع إلى نعيم الذى انتبه أن صاحبه تركه فى ساعة متأخرة من الليل فمن أين الأخبار الجديدة

ولكنه قال مبررا كلامه:

- قصدت أن أسالك هل التقيت أحدا وأنت عائد من
عندي؟ هل لقيتك أم حسن بتعليق سخيف من تعليقاتها؟
هل حلمت بشيء هذه الليلة أم كان نومك عميقا بلا أحلام؟
طبعاً هناك دائماً جديد !

ضحك سعد فضحك نعيم ثم قاما للعمل .

* * *

أم حسن لا تكف عن إعلان تبرمها من كبتها وتقول لأم
جعفر :

- النساء يزوجن أبناءهن فتاتى الكنات ويحملن
العبء كله .. وهذه مريمة بلهاء لا تتقن شيئاً !
فتقول لها أم جعفر :

- إنها صغيرة يا زينب علميها فتتعلم !
- وكيف لى أن أعلمها وهى لا تأتى لتقف معى وأنا
أطبخ ولا تسرع لأخذ المكنسة من يدي وهى ترانى منحنية
أقش الدار .

فتضحك أم جعفر وهى تشير الى أن سليمة لا تفعل
ذلك وأن مريمة، رغم أنها أصغر، تسمع على الأقل الكلام
وتجيب إن طلب شيء منها. أما سليمة فتتبرم أو تختلق
لنفسها عملاً آخر وتقول : ليس بإمكانى أن أقوم بعملين
فى وقت واحد !

- انهما صغيرتان والحمل يثقلهما، ستعلمهما الأيام
والأطفال أيضاً.

ولكن أم حسن تواصل شكواها من مريمة دون سليمة
فتضحك أم جعفر وتكرر أن الحماية هي الحماية لا تقبل
كنتها وإن كانت كعكة بالسكر... " هكذا كل حماوات الا
أنا ! "

تدافع أم حسن عن نفسها وتعزز دفاعها بانها لم تر أبدا
امراة يقوم زوجها من نومه ويذهب الى عمله وهى بعد
نائمة فى فراشها وتقضى النهار بعد ذلك وهى تثرثر،
فتكرر أم جعفر فى عناد :
- ابنتك مثلها تماما، كأنما ولدتا من نفس البطن،
فلماذا تلومين الواحدة دون الأخرى !؟

لم تكن أم حسن تقارن مريمة بسليمة بل بنفسها
فتتيقن ان ابنها خانه الحظ فى الزواج من صبية ماهرة
نشيطة فى تدبير أمور بيته . أم جعفر تدافع عنها تقول
صغيرة ولكن الصغير يتعلم، يتبع الكبير ويقلده
ويستفيد من معرفته وهذه المريمة خرقاء بلداء لا تريد أن
تتعلم شيئا. كانت فى سنها حين تزوجت ولكنها كانت
حريصة على كسب ثقة حماتها وإعجابها. كانت تتبعها
كظلها وتراقبها وتحاكيا وتبذل كل جهدها فى قش الدار
ومسحها، فى غسل الملابس وفى دك القدور النحاسية
المقصودة حتى تصير لامعة كالمرايا.

وفى المطبخ تقف بالقرب من أم جعفر أوتجلس
بجوارها لا تغفل عيناها لحظة عن متابعة الطريقة التى
تعد بها حماتها الكسكس والمرقة الحلوة والثريد والقطاثر.
حتى عندما كانت تعرف طرقا أخرى لإعداد الطعام تعلمتها

من أمها وعماتها كانت تنتبه للطرق الجديدة لكي تتعلمها ولم تمض شهور معدودة حتى صارت أم جعفر تعتمد عليها في إعداد الكثير من الأطعمة. كانت في سن مريمة عندما أصبحت تتقن حفظ اللحم بتقديده وأمعاء الخراف بحشوها والسّمك بتمليحه والزيتون و الليمون والباذنجان بتخليلها وتتقن صنع أنواع الفطائر و الجبن و المعجون والشراب وغيرها مما لا تخلو منه دار عامرة بالأكليّن من أهلها ومن الضيوف .

قبل أيام انتبهت إلى أن الغسول الذي يفركون به أيديهم بعد الأكل كاد ينفد فنادت مريمة وطلبت منها أن تعد قدرا جديدا منه. لم تطلب منها أن تحشو خروفا ولا أن توقد نارا ولا أن تعجن وتخبز. طلبت منها أن تعد غسولا لا أكثر ولا أقل. قالت لها مريمة " صفيه لى فأعده " فاستعجبت من جهل الصبية ولكنها تحلت بطول البال وقالت " تخلطين ثمار النبق بالزعر الجاف وأوراق الورد وأوراق الليمون الجافة وتضيفين لها بعض مسحوق خشب الصندل وقدرا من مسحوق جوزة الطيب، هذا هو كل المطلوب " ذهبت مريمة الى المطبخ، وجاءت إليها أكثر من عشر مرات ؛ مرة تسأل عن مكان الزعر الجاف ومرة عن مكان المهراس لكي تطحن ما يجب طحنه ومرة تسأل عن المقادير. وعندما قامت الى المطبخ لترى الغسول الذي أعدته كنتها قلبت شفتها امتعاضا وقرفا وكادت تلقى به لولا أم جعفر التي رجتها ألا تكسر بخاطر البنت. ماذا لو كانت طلبت منها ان تعد وجبة من الكسكس ؟! لو فعلت لجاءتها البنت بعجين مخبوص في لحم نيء ... لا تدري ما الذي أعجب حسن في تلك البنت، لا هي جميلة ولا ماهرة

ولا تتقن سوى الثثرة مع سليمة !

كانت العلاقة بين سليمة ومريمة سلسلة تتعمق يوما بعد يوم يعززها أن سليمة التي كانت تكبر زوجة أخيها بثلاث سنوات تقوم بدور الأكبر. وكانت مريمة عذبة لطيفة تتقبل ذلك ولا ترى فيه غضاظة وكانت تشعر باحترام بل هيبة أمام قدرة سليمة أن تفتح كتابا وتحقق فيه وتفك طلاسمه وتتفضل عليها بالحديث عما فيه. وزاد شعور مريمة بالمحبة لسليمة حين اقترحت عليها يوما أن تعلمها القراءة والكتابة .

- وهل أصلح ؟

- ولماذا لا تصلحين !؟

وعلقت أم حسن :

- لم يكن ينقصنا الا هذا !

زاد على حديث البننتين معا وثرثرتهما التي لا تنتهى تلك الجلسات اليومية التي تمسك فيها مريمة باللوح وتجلس سليمة أمامها وتملى عليها الحروف والكلمات ثم تصححها لها.

وأم جعفر وأم حسن تعدان الطعام وتنظفان الدار وتفسلان ما اتسخ من الثياب والبننتان جالستان فى مكانهما بلا حراك حتى عندما لا تتحدثان أو تدرسان تجلسان متجاورتين ، سليمة تقرأ فى كتاب من كتبها ومريمة تطرز أقمطة لوليدها ولويد سليمة القادمين.

* * *

تحدث نعيم مع معلمه، قال :

- صديقى إسكافى ممتاز. تعلم الصنعة فى مالقة ثم جاء إلى غرناطة وعمل مع اسكافى كبير ثم وجد أن معلمه يجارى القشتاليين ويصاحبهم فأقضى بهمه إلى أبى منصور وانت تعرف أبا منصور لا يقبل الحال المائل. قال له تعال أعمل معى فى الحمام واترك هذا الوغد.

- مسكين أبو منصور أغلقوا حمامه !

- أقول يا معلمى، أخشى أن يذهب صديقى للعمل فى محل الاسكافى الذى فى الحارة المجاورة فتنافس بضاعته بضاعتنا .

ظل معلمه صامتا فلم يجد نعيم بدا من الحديث مباشرة فى الموضوع.

- أقول يا معلمى، لم لا تطلب من سعد أن يعمل معنا ؟
- ليس بمقدورى أن أدفع أجرا لعاملين ثم أن العمل ليس كثيرا الى هذا الحد .

الشعوب الماكر. كل أهل الحارة يعرفون أنه من شدة تقتيره ادخر ذهباً كثيرا ويقولون إنه أخفاه فى داره فى ثلاث جرار. هل يقول له إن العمل كثير وإنه لم يعد قادرا على القيام به وحده ؟

- والله يا معلمى إن العمل والحمد لله كثير لو كنا اثنين نتقنه أكثر.

- ليس فى مقدورى دفع أجر لاثنتين !
لا فائدة ... ليطرق بابا جديدا :
- دعنى أقل لك الحقيقة يا معلمى ... لم اللف
والدوران وأنت معلمى الذى أكرمنى ولم يضمن على
بشئء ؟!

- الحقيقة ؟
- الحقيقة أننى مقدم على الزواج .
- هل وجدت عروسا ؟
- لم أجدها بعد لكننى مقدم على الزواج، ولقد وجدت
عملا مجزيا أكثر يسمح لى بتوفير المال اللازم للقيام
بأعباء أسرتى ... ولكنى قلت لنفسى يا ولد ليس هذا
سلوك رجال ... تترك عملك هكذا فجأة وتقطع بمعلمك.
ذهبت الى صاحبنى وسألته ان كان يرغب فى العودة الى
حرفته القديمة.

- إذن تريد أن تترك العمل معى ؟
- حاشا لله يامعلمى كل مافى الأمر أننى مضطر لقبول
عمل آخر قد لا أحبه ولكنى أحتاج الى أجره .

- وهل صديقك هذا أمين ... هل يمكننى الاعتماد عليه ؟

- انه أفضل منى .

- إذن دعنى أراه .

هب نعيم واقفا ..

- أذهب لاحضاره ؟

- لا ليس الآن، أكمل ما بين يديك من عمل وعندما

تنتهى اذهب إليه .

ما إن انتهى نعيم من عمله حتى انطلق قاصدا بيت أبى
جعفر قطع الشوارع ركضا حتى إذا وصل الحارة التى يقع
فيها بيت أبى جعفر انتبه إلى أنه لم يفكر فيما سيقوله
لسعد حين يسأله عن العمل الذى سيترك من أجله حانوت
الاسكافى، عليه أن يختلق كلاما مقنعا لايثير فى صاحبه
أى شك. تراجع نعيم عن طريقه وراح يتمشى ببطء وهو
يفكر فى حل هذه المعضلة الجديدة.

فى ستر الليل خرج أبو منصور إلى حمامه حتى اذا وصله توقف لحظات أمام بابه الخشبي العتيق قبل أن يخرج المفتاح من جيبه ويديره دورتين فيه بحرص. دفع الباب ودخل ثم أغلقه وراءه بالحرص نفسه. ورغم ذلك أحدث الباب صريرا عاليا بدا لأبى منصور أنه لابد تردد فى البيازين كلها.

ورغم الظلام الدامس لم يتحسس أبو منصور طريقه بل تقدم خمس خطوات ثم مال يسارا وصعد ثلاث درجات ومد يده وأنزل السراج من مكانه وأشعله وأعادته، ثم انتقل الى قنديلين آخرين وأشعلهما. نزل واتجه الى الجهة المقابلة وفعل الشيء نفسه .

عاد الى مصطبيته وجلس ثم مال برأسه قليلا الى الوراء وأغمض عينيه كأنه يسلم نفسه للنعاس. لم يكن بحاجة لكى يفتح عينيه ويضىء القناديل لكن يتملى تفاصيل المكان ومع ذلك فقد عاد وفتح عينيه واسعتين وراح يتطلع: الصحن المربع وأرضيته المغطاة بالأبسطة، والأقواس الأربعة العالية تلتقى فى قبة دائرية مزينة

برسوم توريقات وتعريقات أخضرها عميق وغائر كأخضر الزيتون. وعلى المثلثات التي تفصل بين القوس والقوس رسوم قرطبة، مسجدھا الجامع وحدائقھا وقصورھا.

حدق أبو منصور فی الصور ثم رفع رأسه وعاد يتطلع إلى القبة ثم انحدرت عيناه إلى الرقبة التي تحملها تحصى الخوافذ التي فيها والتي يعرف انها اثنتا عشرة، عدها ثم راحت عيناه تنتقل بين المقصورتين المتقابلتين تصعد إليها ثلاث درجات فتجد المصاطب الثلاث مغطاة بالسجاجيد والزرابى وفى الحائط من وراء المصاطب الحنايا المتقابلة يحمل بعضها القناديل والبعض الآخر خُصص للمناشف المطوية تفوح منها رائحة الخزامى مصرورة فى أكياس قماشية صغيرة مدسوسة بين الطيات.

فرد أبو منصور ذراعيه وأسندهما إلى ظهر المصطبة وأغلق عينيه فرأى أباه يصرخ غاضبا ويصفعه فيخرج راكضا من البيت وفى نيته ألا يعود أبدا إلى تلك العائلة التي تسجن أولادها جيلا بعد جيل فى قفص أنتجه جنون جد قديم .

كانت حكاية الجد وهو فى الحقيقة أبو جد الجد تركة عائلية تتناقلها الجدة والجد والأب والأم والعمة والعم بتفاصيل التفاصيل بلا ملل أو كلل وكأن الوجود قد اختزل فيها .

الجد الكبير الذى هاجر من قرطبة بعد سقوطها منذ أكثر من مائتى عام تاركاً وراءه بيته وحمامه وصل الى غرناطة ومعه عياله وشيء من المال ورغبة تلح لا يريد من الدنيا سوى تحقيقها. أحلامه فى الليل وأحاديثه فى النهار وفعله اليومى ما بينهما كلها تركزت فى تلك الرغبة: أن يبني حماماً أكبر من حمامه القديم . ترك زوجته وأولاده وارتحل الى الشام ليتحقق إن كانت حمامات الشام حقاً أجمل من حمامات قرطبة كما يقال. سافر وشاهد وضاهى وعاد بعد عامين. أنزلته السفينة فى مالقة ومنها عاد فى موكب من خمسة بغال ركب أحدها وأركب المهندس الدمشقى ثانيها وحمل الثلاثة الأخرى ما اشتراه من دمشق والقاهرة والاسكندرية لأجل الحمام. وعندما دخل على زوجته وأفرغ حمولته بكت، ليس فقط لأنه لم يتذكرها بقطعة حرير دمشقى ولكن أيضاً لأنه لم يأت بشيء لابنته العروس ولا لابنه الذى كان ينتظر عودة أبيه لكى يعقد على عروسه.

شرع عفيف فى بناء الحمام . عامان كاملان قضى كل يوم من أيامهما يشرف على البناء. من مطلع النهار حتى مغيب الشمس، فى شهور الشتاء يتدثر بملفه الصوفى العتيق وفى شهور الصيف يتخفف مكتفياً بمقطع تونسى رقيق ويقف، فى البرد القارس والقيظ، مع المهندس البنائين والنجارين. ينتهون من الباب فيصيح مخذولاً: " وهل هذا باب ... إنه قطعة مصمتة من الخشب !؟ " ويدهش النجارون وهم يتأملون الباب المحفورة تفاصيله

بحرفة وأناة. ولكن عفيف يحلم بأبواب رآها فى القاهرة
والشام وقرطبة التى راحت " سأوفر الخشب وأدفع
ماتطلبونه، والله يعين على صنع باب جديد ! "

الباب والبركة والحوض الرخامى وتعريقات النباتات
على القبة والصندوق والمصطبة والمشكاة، كلها تسرق
نقود عفيف وأيامه . يستدين نقودا ولكن الأيام ... من
أين؟! بعد أسبوع من انتهاء بناء الحمام مات عفيف
تاركا لزوجته وأولاده السبعة ديناً ثقيلاً للأهل والأصحاب
والجيران. عمل أولاده وأحفاده فى الحمام وفتح الله عليهم
أبواب الرزق. كانوا نشطاء وكان " حمام الزين لصاحبه
عفيف القرطبى " متعة للعين والبدن. سددوا ديون جدهم .

قام أبو منصور من مكانه واتجه الى الصندوق،
صندوق الأمانات الذى يودع الرواد فيه بقجاتهم
المصرورة على ملابسهم ونقودهم. صندوق كبير مستطيل
تحمله أربعة قوائم خشبية ترتفع به عن الأرض شبراً.
كان مصنوعاً من خشب الجوز حفرت عليه تعريقات
نباتات تتمايل لتتصل وتنفصل يتداخل بينها مثلثات
ومربعات من العاج يلاطف دكنة الخشب العتيق بصفرة
أبيضه المضىء .

وضع أبو منصور المفتاح فى القفل الحديدى ورفع
غطاء الصندوق، لم يكن به سوى مصحف صغير ومنديل
معقود على زهر الخزامى المجفف ينشر رائحته النفاذة
فى أنفه وصدره .

- لا أريد أن أعمل فى الحمام .
- وما الذى تريده ... الركض وراء المنشدين
والسكر والفناء ١٩

- هذا أفضل من العمل فى الحمام !
لطم أبوه وجهه. فى الشباب قسوة، فى الشباب غباء،
وفى الشباب عيون لا ترى. الآن يفهم ما أصاب أباه من
فزع. لم يكن الحمام حماما بل تاريخا عائليا لم يبق من
الأحفاد سواه للمحافظة عليه. ترقرت الدموع فى عيني
أبى منصور. مات أبوه وهو شارد بين المنشدين يحمل
عوده ويدق عليه. علم فعاد الى أمه فأسلمته المفتاح. فتح
الحمام وعمره، كان فى الثامنة عشرة من عمره.

أربعون عاما وهو يحمل المفتاح الذى حمله أبوه وجده
وجد جده، يفتح الباب الذى أعمل النجارون حرفتهم فى
خشبه المصمت فتحاورت على سطحه المستطيلات
والمربعات والمثلثات، أخايد غائرة تعرفها وتألّفها وكأنما
هى وجهك فى المرآة تراه .

قام أبو منصور ودلف الى " الوسطانى " كانت
تتوسطه بركة من الحجر الوردى ثمانية الاضلاع فى قلبها
كأس من المرمر على شكل زهرة يتدفق الماء منها. هو
الذى أضاف هذه البركة وجدد بيوت الراحة على الجانبين
واشترى القنديل المصنوع من الزجاج المعشق .

مر أبو منصور من " الوسطانى " الى " الجوانى " . هنا
ظل كل شىء كما كان . مصطبة ممر بيت النار تقطع
القاعة من جنوبها الى شمالها، أجران الماء على الجانبين،

المغطس الصغير والمغطس الكبير والأحواض الرخامية
الخمسة والأرض المبلطة بالرخام الوردى المكحل بالأسود،
هذا خيال الجد القديم وما أنجزه الصنّاع إرضاء لخياله .

تطلع أبو منصور ودار بعينه يتفقد المكان. فى الحنايا
المتقابلة كانت الأسرجة المضاءة تلقى بظلالها الراجفة على
الجدران. استلقى على مصطبة ممر بيت النار. كانت باردة
فلا الوقت أتى ولا النار أشعلت. فرد ذراعيه على
امتدادهما وأغلق عينيه. أخذته سنة من النوم فرأى فيما
يرى النائم نفسه فتى لا يعلو شفّتيه سوى زغب أخضر.
كان متربعا على بيت النار مستمتعا بدفئه ويمسك بين
يديه عودا يدق على أوتاره ويترنم بأغنية. دخل عليه شيخ
مهيب مديد القامة يفوق البشر طولا. قال الشيخ :
- قم يا ولد .

فقام، وضع العود جانبا وخلع عن الشيخ ملابسه
واغتترف بالطاس المكيّة ماء ساخنا من الجرن وصبه عليه.
ثم كيّس له جسمه وصبّ له شعر رأسه ولحيته وليفه
وسكب الماء عليه وقلم له أظافر يديه وقدميه وعاد
ففسلهما. وكان يفعل وقلبه وجل تسرى الرعشة فى بدنه.
ولما انتهى تطلع الى الشيخ وسأله متمما :
- هل أنت جدى عفيف ؟

تطلع الشيخ إليه فازداد خوفا، كان فى العينين ضياء
ونظرة ثاقبة قال :

- نعم أنا جدك محيى الدين ... كيف لم تتعرف على ؟!
فاضطرب وسقطت من يده الطاس النحاسية
وتدحرجت على الأرض محدثة قرقة .

قام الشيخ وانحنى ليلتقط عن الأرض الطاس وملاه
من الجرن وأمره أن يجلس قائلاً :

- هل غسلت قدمي ؟

- غسلتهما .

- اذن جاء دروك .

انحنى الشيخ على قدمي الولد وراح يغسلهما برفق
وهو يبكي حتى ابتلت لحيته واختلط ماء العين بماء
الطاس المكيّة التي يسكب منها.

كانت الحياة برغم هموم تدبير شأنها اليومى فى ظل مهانة الاحتلال ميسورة فى بيت أبى جعفر المفتوح والعامر بأنفاس ساكنيه وأم جعفر عماد الدار ترفع سقفها العالى وتنشر فى أرجائها رائحة الخبز الذى تسويه، والخزامى التى تجفف زهرها، والزيت الذى تعتصره من زيتونات عين الدمع، وضحكاتها الحرة العالية وهى ترى الأولاد، رغم كل شىء، هانئين: يعشق حسن مريمة التى تكور بطنها على الصغير القادم، وتنمو سليمة البرية الشاردة فى ظل سعد الذى يحنو رغم حزن فى عينيه يتمكن منه أحيانا فيأخذه بعيدا حيث لا يطوله إنسان. " الحمد لله " تكرر ها أم جعفر من قلب قلبها وتتمنى أن يتم الله نعمته فيأتى الأحفاد ويعمرون الدار بالصخب والحياة .

كانت سليمة فى شهرها السابع فى ذلك اليوم الذى أتت جدتها راكضة تلهث فوبختها على سلوكها الأخرق قبل أن تسمع ما لديها. لكن سليمة لم تعر التوبيخ بالا. كانت مضطربة إلى حد الفزع، وهى تكرر " لا أدري ما الذى أصابها إنها ترقد على الأرض بلا حراك! " تبعت أم جعفر سليمة إلى فناء الدار حيث كانت الطيبة راقدة على

جنبها، جسدها متيبس وعيناها كالزجاج.
- إنها ميتة ! منذ أمس على الأرجح !
حدقت سليمة في جدتها وصاحت :
- ليس صحيحا !

ولكن الظبية كانت ميتة ولم يكن هناك شيء يعمل إلا
التخلص منها بإلقائها بعيدا للجوارح ووحوش البر .

كيف ماتت ولماذا ؟ شغلت الأسئلة سليمة حتى عن
حزنها أم أنه الحزن تخفى واستتر وراء أسئلة ضمنيتها
الاحتجاج والرفض ؟ هل من أماتها الله ؟ وما الذي يريده
الله العلي القدير من ظبية كنسمة الهواء تداعب القلب
وتطيب الروح ؟ ليس الله ظالما فهل يكون الشيطان ؟
وما الشيطان ومن خلق الشيطان وأطلقه في العباد ؟
تقول جدتها إن الموت حق وهو مصير كل حي. وجدها أبو
جعفر مات ولكنه كان شيخا، والعمر حين يطول يقصر
والجسد حين يكبر يشيخ، والثمرة تستوي ناضجة ثم
تفسد، وحين يقدم النسيج يهترىء. ولكن هذه الظبية لم
يطل عمرها لينقصف، ظبية جميلة تضيء عيناها بألق
الحياة فتتقافز .. فمن سرق منها الحياة ؟ عقربة ؟ أم
شيء ما كالعقربة في البدن ينفث سمه الأصفر فينشر
الموت في النسيج المتألق الجديد ؟

- كيف مات أبي يا جدتي ؟
باغت السؤال أم جعفر بوجه الولد العفى وضحكاته
العالية التي ترد الروح وهو يسكن في المرض فيشحب
الوجه، وتغور العينان، وينعقد اللسان، تتحرك الرأس

فى ضيق تطلب هواء يستعصى، والروح تخرج فى صخب
متحشرج، تستبقها نظرة العينين ولا تقدر فيسكنها مع
الرجاء عتب كسير .

- مرض و مات .

- أعرف، لكن بأى مرض مات ؟

لم تطق أم جعفر التحديق فى وجه الولد فتركت سليمة
وقامت .

* * *

وضعت مريمة ابنتها أولا فانتشرت فى الدار فرحة
متوقدة وانهماك بالأم ووليدتها. ثم وضعت سليمة الولد
فأصبحت الفرحة فرحتين والانهماك مضاعفا. ولكن
الطفل الذى وضعتة سليمة أسلم الروح بعد أسبوعين من
ولادته فعرفت أم جعفر أن موت الظبية كان علامة وإشارة
وأن الله فى سمائه له حكمة تجل عن الفهم. ما العمل ؟
توزع البيت مرتبكا بين فرحة بوليد وحزن على وليد،
واضطرب قلب من فيه مشتتا بين إعلان الفرح وخرج من
إعلانه والحزن يجاوره، وإعلان الحزن وخرج إظهاره
والفرح يقيم فى البيت معه .

وحدها سليمة كانت خارج الحزن والفرح تعايش سؤالا
حارقا كالجرح هل الله شرير يقصد إيذاءها أم أنه سعد
يمنحها ما لا يدوم فتنحول بهجة الهدية إلى ألم يسرى فى
الروح يعذبها .

كانت ولادتها عسرة كادت تشطر الجسد وتهلكه والجسد

كوتر مشدود يحتمل مالا يحتمل حتى اندفع الوليد
وسمعت صراخه الواهن. حملته بين ذراعيها، تأملته
وتحسسته وقبلت وجهه فأحست بمذاقه على شفتيها
وفاض حليبها فألقت فمه حلمة ثديها فتحرك حشاها
كانما تشق تربته نبتة طالعة. لم يكن فرحا ذلك الذى ملأ
صدرها لأن الفرخ يضيق. كان شيئا يسري فى الروح
والبدن يدخله مع الرهبة الفرخ والوجل والدهشة وألف
شيء آخر كأنما تجمعت الحياة بتلالها وأنهارها وسماؤها
وشمس النهار ونجوم الليل والبدر فى العالى، تجمعت
وتركزت هنا فى التصاق الفم الصغير بحلمة الثدي
والصدر الذى يضم ويحنو ويطعم حليبا يعلم الله وحده
من أين أتى وكيف وكأنه نبع معجز تدفق من باطن
الأرض أو ديمة سكوب فى السماء.

أسبوعان وسليمة مع صغيرها لا ترى ولا تسمع إلا
وجوده الضافى يغللها ويغنيها فتستغنى عن البشر ودنيا
البشر، ثم أخذه الله فلماذا ؟

وكان سعد الذى سلم متمررا بفقد الصغير يزداد
اضطرابا يوما بعد يوم وهو يدق باب سليمة بلا طائل
فيعود الى نفسه منغيا وعاريا خارج الأسوار. لا تتحدث
اليه لا تقترب منه وتنفر من كل وصل للروح أو الجسد.
يواصل الحياة ويحكى لنعيم شيئا من همه ويملؤه الخوف
من الغد .

تبدو المصائب كبيرة تقبض الروح ثم يأتى ما هو أعتى
وأشد فيصغر ما بدا كبيرا وينكمش متقلصا فى زاوية

من القلب والحشا .

أصدر الملك الكاثوليكيان أمرهما بالتنصير القسرى
لكافة الأهالى ونُشر المرسوم وأُذيع فى الناس . كان على
أهل غرناطة والبيازين الاختيار بين التنصير أو
الترحيل .

قال حسن إنه لم يعد من الرحيل بد وأنه سيبيع بيت
عين الدمع والبيت الذى يسكنونه فى البيازين ويرحلون
الى فاس .

- أم أن لكم قولا آخرًا ؟

قالت أم جعفر إنها لن ترحل فلم يبق من العمر مثل
الذى فات .

- لن أترك بيتى ولا أبا جعفر وحيدا ينتظرنى بلا
طائل . سأبقى لأضع غصونا خضراء على قبره حتى يأذن
الله فألحق به .

- وتتنصرين يا جدتى ؟

- لن أتنصر !

- وما العمل إذن ؟ ما رأيك يا سعد ؟

ظل سعد صامتا كان يفكر فى مألقة التى تبتعد . حين
تحمله السفينة الى عدوة المغرب تصير البيازين بعيدة
ومألقة أبعد .

- الرحيل صعب ولكن ...

- إذن نرحل .

- نرحل .

قالت مريمة :

- لانرحل. الله أعلم بما فى القلوب، والقلب لايسكن الاجسده. أعرف نفسى مريمة وهذه ابنتى رقية فهل يغير من الأمر كثيرا أن يحملنى حكام البلد ورقة تشهد أن اسمى ماريًا وأن اسمها أنا. لن أرحل لأن اللسان لاينكر لغته ولا الوجه ملامحه .

تطلعوا اليها فى دهشة فمن أين أتت مريمة الصغيرة بهذه الحكمة ؟ وكأنها طاقة أشرعتها فتدفق الضوء جلاء فى الحجرة المظلمة، قرروا البقاء.

الاختيار صعب ولكن الفعل أصعب. وقفت نساء الحى فى جموع غفيرة يتلقين قطرات التجميد الجماعى. يتمتم القس بكلمات لا يفهمنها وهن يحدقن فيه ساكنات صامتات. والوجه بحر صاخب متلاطم وعميق تترجرج على صفحته مراكب صغيرة تغمرها الموجة العالية بالضياح والفرع فتشبهق وهى تفرق ولا تفرق، تنحسر الموجة لتأتى موجة أعتى وشهقة أعلى كأنما تسلم الروح نفسها لعزرائيل الموت وهى تصرخ: " لا أريد " .

لم يكن الأمر كما قالت مريمة اسما على الورق يستبدل باسم بل حياة كاملة صارت كل مفرداتها تهما ومعاصى: طهور الصببية، عقد قرانهم على الشرع الواضح، زفهم على إيقاع الدفوف والأهازيج، استطلاع هلال رمضان والعيدىن، الإنشاد فى ليلة القدر، الصلاة والصيام، الاحتفاء بخميس الله وجمعبته، تكفين الميت وتشبيع جنازته بأيات الذكر، خضاب الحناء على أكف الصبايا

ورءوس النساء، كلها تهم وباب السجن مفتوح للخطاة
وأكوام الحطب مكومة تنتظر شعلة وتلتهب. وكأنما هي
عجلة للشيطان دارت والروح لاتلاحق دوراتها المرهقة.

" يحظر على المتنصرين الجدد ارتداء الملابس العربية.
ويمنع أى خياط من حياكة الملابس المحظورة وعلى النساء
التخلص من غطاء الرأس " .

" لايجوز لمتنصر جديد أن يبيع ممتلكاته لشخص من
أصل عربى مثله " .

" يحظر على كل شخص من أصل عربى بيع ممتلكاته
البتة ومن خالف الأمر صودر ماله وعوقب عقابا وخيما " .

" يتوجب على كل عربى يمتلك كتباً أو مخطوطات في
غرناطة والقرى التابعة لها أن يسلم كل مايملكه والا
عرض نفسه للمحاكمة والسجن ومن يثبت بعد التاريخ
المحدد انه يمتلك كتاباً تضاد كل ممتلكاته " .

" يحظر امتلاك سلاح أو حمله ويشمل المرسوم السيوف
والخناجر " .

" يحظر الإرث على الطريقة الاسلامية فالتركة لاتقسم
بل تنقل بما هو دارج فى أعراف مملكة قشتالة " .

" يحظر إيواء وحماية وإجارة المخربين من المسلمين
الذين يهاجمون شواطئ المملكة من السفن التى تحملهم
من عدوة المغرب ، ويحظر الاتصال أو أى شكل من أشكال

التعامل مع الثوار المعتصمين فى رءوس الجبال ومن يعصى الأمر عقابه الموت المؤكد "

" من يرحل من غرناطة ويعود إليها يحرم من ممتلكاته ويقبض عليه ويبيع عبدا فى المزااد العلنى " .

عجلة ترهق الروح تدور، والصفار، رغم ذلك، يكبرون.

رزقت مريمة بعد رقية بخمسة أطفال آخرهم هو الولد سموه هشاما. أما سليمة فلم يعطها الله وكيف يعطيها وهى نافرة من سعد مستغرقة فى قراءة الكتب وخلط الأعشاب وصنع الأمزجة والمعاجين والسوائل. فى أول الأمر كانت الكتب هى كل شاغلها، تسهر على قراءتها، تخطط تحت بعض سطورها، تكتب ملحوظات على هامشها ثم انهمكت فى سؤال النساء العارفات والاستفسار منهن عن الوصفات القديمة التى يعالجن بها الأوجاع وراحت تشتري القدر والقناني والأوعية والأحقاق، وتخلط الأعشاب، النضر منها والجاف، تمزج بعضها وتطحنه وتعجنه، وتسخن وتبرد وتستقطر فتأتيها نساء الحى يطلبن نصحتها فى علاج مرض أو آخر. لا تحتملها أم حسن فتتشاجر معها شجارا عاليا يسمعه الجيران ولكن صراخ أم حسن المتكرر ومحاولتها إعادة ابنتها إلى حظيرة الراجحات من النساء اللائى يسعدن أزواجهن بالبينات والبنين والعينين المكتحلتين والوجه الصبوح والبدن المعطر بمسحة مسك أو ياسمين لم تجد شيئا. بعد شهر من خوض حرب ضروس مع ابنتها سلمت أم حسن أمرها لله .

وكان سلوك أم جعفر على غير ذلك إذ قبلت بما تفعله سليمة منذ البداية، قبلته على مضض وبلا اقتناع، ولكنها قبلته، ربما لأن تقدمها فى العمر لم يكن يسمح لها بخوض الحروب. ولم تكن أم جعفر فى قرارة نفسها منزعجة بما تقوم به حفيدتها بقدر ما كان يقلقها إهمالها لسعد. كانت تراه منكمشا وحزيننا فتحنو عليه وتغدق من محبتها وتصر أن يدعو نعيما إلى الدار لأنها تعرف أن نعيما يطيب روح سعد ويخفف من وطأة الأيام عليه .

كان سعد بائسا لنفور سليمة منه ، يشكو همه لصاحبه فيقول له

- اضربها يا سعد ، اضربها ضربا مبرحا حتى تفيق .

ثم يقول :

- لطفها يا سعد فهي مسكينة فجعت بفقد وليدها، إنها تحتاج عطفًا ومسايرة.

أو يقول :

- قم الآن وحطم كل تلك القناني والقوارير والأحقاق والقدور التى تحفظ فيها أمزجتها الغريبة ومزق الكتب التى تفسد عقلها واطرد النساء اللائى يأتينها طلبا للنصح والعلاج.

تتعدد نصائح نعيم وتتناقض ولكن سعدا لم يكن قادرا على الأخذ بأى منها. كان متعلقا بسليمة يطلب قريبا كأنها أمه وأنكرته. تجلس منهمكة فى ذلك الشاغل الذى هبط عليها كالبلاء من السماء ينتظر، يلاطفها بكلمة، يحاول جذب اهتمامها بسؤال أو ملحوظة أو خبر ولكنها تبقى

بعيدة لا يطالها قلب ولا جسد، يفشاه حزن يتيم متروك،
تترقرق في عينه دمة يغالبها حتى يرحمه النوم.

فما الذى حدث فى ذلك اليوم حتى لا يتحمل سعد ما
احتمله أياما وليالى. سمعت أم جعفر صوته يعلو محتدا
وصوت سليمة يجاوبه بحدة مماثلة. ثم زاد الشجار
احتداما وسمعته أم حسن فجاءت مهرولة من المطبخ.
تستجلى الأمر فقالت لها أم جعفر
- اتركيهما سيتشاجران قليلا ثم يتصافيان.

لم تملك أم حسن الأخذ بنصيحة حمااتها إذ تعالى صراخ
سليمة وبدا واضحا أن سعدا يضربها. صاحت أم حسن فى
حنق: " هذا آخر المطاف، نلمه من الطريق ونأويه فى
دارنا فيتطاول على ابنتنا ويضربها ! " واندفعت إلى
حجرة سليمة فتبعته أم جعفر متعثرة من شدة
الاضطراب ولا هثة تقول : ابنتك محقوقة يا زينب،
وليس سعد أول ولا آخر الرجال الذين يؤدبون نساءهم
بالضرب. كونى محضر خير يا زينب " ولكن أم حسن
اقتحمت الغرفة على سعد وسليمة واختلط صياحها
بصياحهما ولم تكن أم جعفر قد استوعبت تفاصيل ما
يجرى عندما فوجئت بسعد يصّر ملابسه ويغادر البيت.
وكانت سليمة محتقنة الوجه تعض بأسنانها على شففتها
ولكنها لم تكن تبكى .

وما ان عادت مريمة من السوق حتى أخبرتها أم جعفر
بما حدث وطلبت منها أن تهدئ سليمة وتخفف
عنها. وحين عاد حسن حكّت له وطلبت منه أن يذهب

للبحث عن سعد لمراضاته. وافقها ولكنه قبل أن يذهب دخل على سليمة وسبها وضربها فبكت مريمة وأم جعفر وأم حسن وبكى الصغار فتركهم حسن وهو يلعن النساء الناقصات عقلا والصغار الأثقل من الهم على القلب وكل رجل حمار يفكر فى الزواج أو الخلفة.

وأيقنت أم جعفر أن عينا أصابتهم وقررت أن توصى مريمة أن تشتري لها بخورا من أفضل الأنواع لكى ترد عين الحسد عن الدار وأهلها.

وجد حسن سعدا عند نعيم كما توقع وحاول إقناعه بالرجوع معه إلى البيت. رفض سعد فأقسم حسن بالطلاق ثلاثا انه لن يعود إلا إن عاد معه .

فى الأيام الثلاثة التالية لم يتبادل سعد وسليمة أى كلام ثم بادأته سليمة الحديث قالت :

- لقد أخطأت بضربى يا سعد، ضربتني وتسببت فى ضرب حسن لى. لم يضربنى أحد أبدا من قبل، لا أبى ولا جدى.

صمتت لحظة ثم واصلت:

- وأنا أيضا أسأت إليك حين قلت لك " هذا بيتى ... تريدنى ابق ، لا تريدنى اذهب " كان كلاما غليظا قلته فى لحظة غضب.

كانت سليمة تتطلع اليه تلك النظرة الواضحة المباشرة فيرى فى عينيها الزرقاوين ذلك الضوء الذى أسره منذ سنوات ، ابتلع لعابه بصعوبة ثم قال :

- لم أقصد إيذاءك ولكن هذه المعاجين والأمزاج التي
تصنعونها ليل نهار يا سليمة تفقدني صوابي. لا أطيق
واثحتها إنها تسبب لي كوابيس، ازدرد ريقه ثانية،
كوابيس فوق الكوابيس.

- إن أردت أنقلها جميعا إلى مكان آخر ولكن ياسعد
أرجوك لا تطلب مني تركها ... أحتاجها وأحتاج تلك
الكتب التي تضج بها ... أحتاجها !

لمح سعد دموعا تتفرق في عينيها ورأى عبر الدموع
عنادها فعرف انه لن يملك أبدا أن يحول بينها وبين ما
تريد ليس فقط لأنه لن يقدر على كسر عنادها ولكن أيضا
لأنه لا يريد .

كانت أم جعفر وهى تتوغل فى مساحات الشيخوخة
تزداد تعلقا بنعيم فتحصى الأيام مابين زيارة وزيارة
وتنتظر. كانت قد عرفتة منذ طفولته وتابعتة وهو ينمو
وتعهدته أحيانا بالتوجيه أو التوبيخ ولكن الألفة بينهما
فى السنوات الأخيرة كانت قد اتخذت مساراً جديداً، هو
يحكى وهى تنصت بتوقد واهتمام . يحمل لها حديثه دفئا
والوانا تبدد شيئا من وحشة أشجار تتعري وغيوم
تتكاثف وبرودة تسرى فى شتاء العمر فى الأطراف .

لم ينقطع الحديث بينهما منذ ذلك اليوم الذى أخبرها
نعيم أن الملكين فرديناند وإيزابيلا كانا مصابين فى
ذريتهما.

- كيف ؟

كان نعيم يعمل فى خدمة قس قشتالى عالم ، يعاونه فى
تنظيف الدار وترتيب كتبه وتغليفها وتجليدها فيسمع
من القس مباشرة أو ينصت لما يدور بينه وبين زواره
فيعرف الأخبار وينقلها الى أم جعفر.

- سمعت من القس ميجيل أن الملكين قبل وفاتهما قد

فقد أكبر أولادهما، الأمير دون خوان، ثم لحقته الأميرة إيزابيلا شقيقته الأصغر. وكانت الأميرة إيزابيلا قد تزوجت من أمير برتغالي مات بعد زواجها بشهور قليلة. - إذن فالله قد عاقبهما، فما قيمة أن يكسب الإنسان حروباً ويوسع مملكته إن فقد فلذة كبده ؟

كان الكلام الذى نقله لها نعيم يثلج صدرها ليس لأنها تتشفى فى هذين الملكين اللذين أذاقا كل أهل غرناطة حنظل المرار ولكن لأنها كانت قد وجدت أخيراً عدالة من السماء أرقها غيابها وملأها بشك كان يداهما أحياناً متقمصاً صوت أبى جعفر بعد حرق الكتب فتدرونها بعيداً عنها وهى تستغفر الله .

الله فى علاه حكيم وعادل وقد عاقب الملكين فى حياتهما على ما اقترفاه . ليس خسران الحرب بأقسى من فقد الولد، ظهر الحق فهذا شئ فى داخلها وراحت كلما جاء نعيم تسأله وتستزيد .

- أصابتهما اللعنة يا أم جعفر. لم يمهلهما الله حتى يوم الحساب بل أنزل عقابه عليهما فى الدنيا والآن وقد رحلا فلا بد أنه سيزيدهما على العقاب عقاباً.

يجلس نعيم تقدم له الموجود من الطعام وتجلس بالقرب منه فتعلق عيناها به وتتأهب أذناها لسماع المثير من الأخبار .

- اسمعى يا أم جعفر هذا الخبر الجديد الذى لا يعرفه

أحد من أهل البيازين: خوانا ابنة فرديناند وإيزابيلا مصابة بالجنون !

- لا إله إلا الله !

- سمعت أنها تزوجت أميرا من بلاد أخرى يقال له فيليب الجميل .

- ما شاء الله، وبعدين ؟

- اسمه فيليب الجميل لأنه جميل وكل من وقعت عيناها عليه من النساء اشتعل قلبها بحبه .
- وبعدين ؟

- وبعدين ياستى لايعجب ذلك الأميرة خوانا وتأكل الغيرة قلبها .
- الحق معها .

- وتعبر لفيليب الجميل عما فى نفسها من غيرة فيضربها ضربا مبرحا، ولكنها تحبه. يجذبها الحب من ناحية وتجذبها الغيرة والضرب الموجه من ناحية أخرى فتفقد الأميرة عقلها ... ثم يموت فيليب الجميل .
- لا حول ولا قوة الا بالله !

- مات ... فما الذى فعلته الأميرة خوانا ؟

- بكته طبعاً حتى وإن كان قد خانها، لأنها تحبه .

- ليس هذا هو المهم .

- وما المهم ؟

- صبرا سأحكى لك كل شىء بالتفصيل. لقد كانت أم الملكة ايزابيلا أيضا معتوهة ويبدو أنها أورثت الجنون إلى حفيدتها .

- سبحان الله وهل جار علينا الزمن الى الحد الذى

تحكمنا فيه أسرة من المعتوهين ؟!

- هذا ما سمعته من القساوسة وهم يتحدثون وأنا
أحمل اليهم الطعام والشراب فيواصلون الكلام كأننى لم
أدخل عليهم أو كأننى الخزانة الخشبية التى وراءهم .
المهم مات دون فيليب الجميل وكان فى مقتبل العمر
ففقدت خوانا عقلها كلياً : أخرجت جثمان زوجها من القبر
ووضعتة كأنه مازال على قيد الحياة فى حجرة نومها ،
وكلما اضطرتها شئون الحكم للسفر حملت جثمانه معها .
ولما لم تكن تطيق اقتراب أى امرأة من جثمان زوجها فلقد
استبدلت بالخدامات رجالاً ينظفون حجرة نومها
ويخدمونها فى أسفارها .

- لابد أن الجثمان تعفن وعكرت عفونته دم خوانا
فماتت ...

ضحك نعيم قبل أن ينطق بالخبر الذى كان يعرف أنه
سيفاجىء أم جعفر ويمسرها فى مكانها كبرق مفاجىء
فى السماء .

- لم تمت بل ورثت عرش قشتالة بعد وفاة أمها وعرش
أراجون بعد وفاة أبيها وهى الآن مالكة البلاد وحاكمتها !

وكما توقع نعيم فقد فغرت أم جعفر فمها وحدثت فيه
غير مصدقة ... ثم قالت :

- تقصد أن الملكة ابنة الملكين التى تحكمنا الآن هى تلك
المجنونة ؟

- هى بعينها لقد قال القس ميجيل بعظمة لسانه
" خوانا لا لوكا " وهذا يعنى " خوانا المعتوهة " ، تحكمنا يا
أم جعفر امرأة مختلة العقل !

ضحك نعيم ملء شذقيه أما أم جعفر فقد اضطرب
فكرها وصعب عليها الفهم: يعاقب الله الملوك الظالمين
بموت أبنائهم وفساد عقولهم ولكنهم يحكموننا فتجنس
ثمار جنونهم ! يصعب أن يفهم الانسان حكمة الله، لغزها
عميق عسير ولست الا امرأة عجوزا .

ورغم ذلك فقد وجدت أم جعفر، بعد ذهاب نعيم وطول
تأمل، تفسير تلك القوانين الجائرة التى يسهل فهمها إن
كان من يسنها معتوها فقد عقله. فما الذى يضير إنسانا
لو أن إنسانا سواه امتنع عن أكل الخنزير أو خضب يديه
بالحناء أو عقد قران ابنته خارج الكنيسة وليس داخلها ؟
وما الذى يسيء حاكما لو أن بعض رعيته اقتنى كتباً
مكتوبة بلغة العرب وليست بلغة الأعاجم ؟ وما الذى
يغضبه حين تلبس امرأة مثلها ثوبا مقطوعا على طريقة
العرب وليس على طريقة القشتاليين أو تضع غصنا
أخضر على قبر زوجها الراحل ؟

لم تفهم حكمة الله فى تولية معتوها على عباده ولكنها
فهمت أن تلك القوانين العجيبة الجائرة أنتجها عقل
مختل. ولولا نعيم، وفقه الله، ما فهمت، ولولا أحاديثه
الشيقة لوجدت نفسها تقضى الأيام والليالى وحيدة لا أحد
يحدثها ولا تحدث أحدا فسليمة غارقة فى قدورها
وقواريرها و ام حسن تطبخ للعيال ومريمة تقوم
بشئونهم؛ والصغار مكتفون بأنفسهم يلعبون ويثرثرون
معا وحين ينهكهم اللعب والكلام يتحلقون حول أمهم تحكى
لهم الحكايات وعندما تناديهم لتحكى لهم تلمح فى عيونهم
السخرية المكتومة لأن الحروف لم تعد هى الحروف وقد

سقطت الأسنان وتعثرت فى الفم الكلمات؛ وحسن يعمل
طوال النهار وحين يعود مكدودا يشغله الصغار وزوجته.
لم يعد لها سوى سعد تحنو عليه وزيارات نعيم على
تباعدها تعيد لها الروح فتتقد بحكاياته المثيرة.

* * *

ما إن رأت أم جعفر نعيما حتى عرفت انه يحمل لها
خبرا مثيرا إذ أقبل عليها مشرقا بابتسامة يجتهد فى
ضبطها والتحكم فيها فتغالبه وتسرى فى ضوء عينيه
وانفراجة أساريه. قال بصوت مجلجل:
- يا صباح الخيرات يا أم جعفر.
- صباح النور يا نعيم ... جئت بحكاية عجيبة غريبة
أليس كذلك ؟

انفلتت الابتسامة وصارت ضحكة صافية. مد لها يده
بخيطة وإبرة
- هل يمكن أن تلصقى لى هذه الإبرة ؟

أخذت أم جعفر فلم يكن من عادة نعيم أن يسخر منها.
تطلعت إليه بنظرة تساؤل لا تخلو من عتب . ولكنه
واصل ..

- حاولى يا أم جعفر ... حاولى !
أجابته بضيق:
- ماذا دهاك يانعيم، تعرف اتنى لم أعد قادرة على
ذلك ؟
أصر:

- ولكنك ستلضمين هذه الإبرة !

أعطاهما الإبرة فى يدها اليسرى والخيط فى يدها اليمنى. أضاءت أم جعفر طريق الفهم تماما فاسلمت نفسها لانتظار مضطرب.

أخرج نعيم من جيبه لفافة صغيرة فتحها بحرص وأخرج منها شيئاً غريباً ، دائرتين من زجاج مسطح موصولتين ومؤطرتين بسلك ذهبى دقيق وتنتهى إحداهما بحامل دقيق صغير .

- ما هذا ؟

أمسك نعيم الحامل ورفع دائرتى الزجاج وقربهما من وجهها حتى صارتا ملتصقتين بعينيها. أغلقت عينيها:

- ما الذى تفعله يا نعيم !؟

- لا تخافى يا أم جعفر، افتحى عينيك والضمى الإبرة.

فتحت أم جعفر عينيها ببطء وهى تتمتم "بسم الله الرحمن الرحيم" ثم كررتها بصوت أحد حين نظرت عبر الزجاجتين فرأت ثقب الإبرة الذى لم تعد تراه منذ سنوات واضحا أمام عينيها. حاولت لضم الإبرة مرة ومرتين ولكنها لم تفلح لأن يديها كانتا ترتعشان.

- اهدئى يا أم جعفر والضمى الإبرة.

- هل صرت تشتغل بالسحر يا نعيم !؟

حاولت حتى مرّ الخيط من الثقب فناولته الإبرة وهى تسمع دقات قلبها عالية ومتسارعة .

رفع نعيم الزجاج عن عينيها وهو يقول بغبطة وزهو:
- هذه الآلة يا أم جعفر يستخدمها الإنسان حين يضعف
بصره فلا يتمكن من رؤية الأشياء الدقيقة، إنها للقس
ميجيل.

- وهل يحتاج القس للضم الإبرة ١٩

ضحك نعيم

- بل يحتاج لها ليقرأ تلك الكتب ذات الخطوط الدقيقة

- ومن أين اشتراها ؟

- أوصى عليها أحد التجار الجنوبيين .

- إذن تباع فى جنوا ؟

- لا أدري.

- هل هى غالية الثمن ؟

- لا أعرف .

- إن لم تكن غالية الثمن أطلب من حسن أن يوصى لى

على واحدة. لا أكثر من تجار جنوا الذين يأتون ويذهبون

من غرناطة. هات أجربها مرة أخرى يا نعيم .

مدت أم جعفر يدها وأمسكت بالقضيب الذهبى

الصغير ورفعت الزجاج إلى مستوى عينيها وراحت

تتطلع عبره إلى أنحاء الحجرة.

- غريب !

- ما الغريب يا أم جعفر ؟

- أرى الأشياء البعيدة أفضل بدونها !

- يبدو أنها لرؤية الأشياء القريبة ، أرى القس

يستخدمها حين يقرأ فقط .

نادت أم جعفر على بنت من بنات حسن وطلبت منها

أن تنادى عمتها سليمة
- لنر كيف تستخدمها سليمة فى قراءة الكتاب.

قبل أن تصل البنت الى حجرة عمتها أخبرت أمها
وجدتها وأخواتها بأمر الآلة العجيبة التى رأتها مع نعيم
فأتين جميعا وتحلقن حول نعيم يتطلعن بشغف
ويستفسرن دون أن يسمح لهن نعيم بالإقتراب أو اللمس.
قالت إحدى الصغيرات:

- هل تسمح هذه الآلة لمكفوف أن يرى ؟
- لا .

سكتت لحظة ثم قالت فى ثقة:
- لابد أن هناك نوعا أقوى يسمح للمكفوف أن يرى !
قالت أم حسن وهى تهز رأسها فى ارتياح.
- هذه بشرى سارة أحملها لجارتنا التى كفّ بصرها ،
بإمكانها أن توصى على آلة كهذه فيعود إلى عينيها ضوء
الإبصار !

وقامت فى الحال لتخبر جارتها بالأمر دون أن تلتفت
لنعيم الذى كان يكرر أن هذه الآلة تكبر الأشياء الصغيرة
فقط ولا تسمح لمن كفّ بصره بأن يرى .

ثم دخلت سليمة واستفسرت عن الأمر وأمسكت بالآلة
بين يديها ورفعتها إلى عينيها ثم أنزلتها وهمت بالذهاب
الى حجرتها ومعها الآلة لكى تجربها على كتاب من كتبها
ولكن نعيم لم يسمح لها .
- احضرى الكتاب هنا.

استرد منها النظارة فذهبت وأحضرت كتابا دقيق الخط واستعادت الزجاجتين من نعيم وتطلعت عبرهما إلى المكتوب فيه. كانت الكلمات صغيرة الحروف التي تنهكها قراءتها فتظل تبحث عن وضع يسهل لها ذلك فتبعد الكتاب عن عينيها وتضيّق جفنيها وتحقق تحديقاً فيها واضحة تماماً تقرأها بيسر مدهش .

- نعيم من أين أتيت بهذه الآلة ؟

- إنها للقس .

- هل تتركها لي الليلة ؟

قفز نعيم من مكانه ومدّ يده وأخذ النظارة من سليمة قائلاً :

- مستحيل. سيسألني القس عنها فماذا أقول ؟

- مادمت أتيت بها فلا بد أن القس مسافر .

- إنه مسافر ولكنه يعود غدا .

- اتركها لي فأعيدها لك صباح الغد .

اجتمعت أم جعفر وأم حسن ومريمة والصغيرات لإقناع نعيم بترك الآلة لليلة مع سليمة " ليلة واحدة فقط ! " وبعد أخذ ورد وطول مناقشة سلم نعيم أمره لله وأعطى الآلة لسليمة وهو يكرر أن عليها أن تكون حريصة في مسكها واستخدامها لأنها قد تنكسر .

- وغدا، غدا صباحاً، سأعود لأخذها .

ولكن نعيماً حين أتى صباح اليوم التالي لاستعادة النظارة كانت سليمة قد حسمت أمرها وقررت، قالت له :

- حدث ما كنت تخشاه ، انكسرت النظارة .

- انكسرت ا

أطلق نعيم هذه الصبيحة الواحدة ثم صمت ومرت
لحظات لا يدري ما الذى يقوله أو يفعله. ثم قال :

- كيف انكسرت ، دعينى أرها ؟

- سقطت وتحطمت تماما فخشيت أن ينجرح الصغار

فألقيت بها .

ملأه الشك ثم اليقين .

- سليمة أنت كاذبة، لقد قررت سرقة النظارة !

- احفظ لسانك يا نعيم .

ولكنه كان مشتتلا بالغضب فصاح فى سليمة فصاحت
فيه واشتبكا فى مشادة كلامية حادة وفشلت محاولات أم
جعفر ومريمة فى تهدئتهما أما أم حسن فقد ساءها أن
يتهم نعيم ابنتها بالسرقة فأنحازت إلى ابنتها وصارت
تصيح فيه وهو يصيح فى ابنتها. ثم غادر نعيم الدار وهو
يكرر:

- سأشكوك لزوجك ولأخيك وإن شاء الله يضر بانك

حتى يشيل دمك فتفصحين عن مكان النظارة التى
سرقتها !

الهموم تؤلف القلوب وتقرب ، والسنوات التى عاشها سعد وحسن تحت سقف واحد عززت صحبتتهما، يتواصلان ويسهبان فى الحديث ويتفقان فى الغالب فى حكمهما على الأمور. كان حسن لطيفا وودودا مع سعد ليس فقط لأنه صاحبه وزوج أخته ولكن أيضا لأنه كان قد نزل عليه ضيفا فى بيت جده فظل يراعيه حتى بعد أن مرت سنوات طويلة لم يعد فيها ضيفا ولاعاد أحد يتذكر انه نزل فى الأصل فى بيت ليس له. حتى المشاكل مع سليمة كانت سببا مضافا لتعزيز ما بين الرجلين من الصداقة اذ كان حسن، فى قرارة نفسه، يدين أخته ويشعر بالامتنان لسعد لأنه لايسىء معاملتها أو يطلقها أو يتزوج عليها .

فما الذى جرى فى ذلك اليوم لكى يتحول الحديث الهامس بين الرجلين إلى خلاف موتور فيعلو صوت حسن ويعلو صوت سعد وتهرول أم جعفر بقدر مايمكنها سنها لتستفسر عما جرى فيصبح حسن فيها :

- أرجوك يا جدتى ابقى بعيدا، بيننا حديث رجال، خذى مريمة وأمى والصغار إلى القاعة الداخلية واتركينا وشأننا !

وحتى فى القاعة الداخلية البعيدة كان حديث حسن وسعد غير المسموع تماما حديث شجار وغضب. وقالت أم حسن ان عينا أصابتهما " ذات العين التى أصابت سليمة ! " وتمتعت أم جعفر جزعة " ربنا يستر ! " .

نام الصغار وأوت أم جعفر وأم حسن ومريمة كل الى فرشتها وإن لم يغمض لأى منهن جفن. ترى ما الذى حدث، ما الذى يوتر النفس هكذا ويطلق الصوت عاليا ؟

فى الفجر دخل سعد على أم جعفر وجلس بجوارها . قال :

- يا أم جعفر، سأرحل .

هذا ما لم يدر بخلدتها أبدا .

- ترحل ١٩ الي أين ياسعد ولماذا ؟
تلعثم .

- ترحل من غرناطة وتتركنا نحمل الهم وحدنا ؟

ترقرقت عيناه بالدموع ومال على يدها وقبلها .

- أرحل الى الجبل ... لى رفاق يحتاجون لى ... لا أترك

غرناطة يا أم جعفر ولا أترككم فليس لى أهل سواكم ...
نلتقى على خير يا أمى .

قام فتبعته كظله وهو يودع أم حسن ومريمة والصغار

ثم يودع سليمة. هى التى قالت :

- سعد ينوى الرحيل ياسليمة .

- أعرف .

بدا لها أن سليمة مضطربة وأنها لمحت اختلاجة فى

وجهها، تشجعت :

- ابق مع زوجتك يا سعد ... ابق معنا وان كان حسن قد
أساء إليك فإنه محقوق وهارأسك ... قبلت رأسه قبل أن
يفلح فى الابتعاد .

- قولى شيئاً يا سليمة .

- قلت .

- ماذا قلت ؟

- قلت له ابق يا سعد وافعل ما تريد وهذا
البيت بيتى كما هو بيت حسن، هو إذن بيتك . ابق
وافعل ما تريد .

إذن فالمشكلة مع حسن. هرولت أم جعفر وأيقظت حسن
من نومه ووبخته كأنه طفل صغير.

- ماذا فعلت بزواج أختك ... ما الذى قلت ... لماذا
أغضبته ؟!

قام حسن وأطلق زفرة عميقة وكان شاحب الوجه.
قالت:

- سعد ينوى الرحيل .

- - أعرف .

- ماذا فعلت ؟

- لم أفعل شيئاً .

- لماذا يرحل إذن ؟

- اتركه يا جدتى فقد قرر ذلك ولن يرجع عن قراره .

بكت أم جعفر، وبكت أم حسن، ومريمة أيضاً بكت وبكى
الصغار لبكائهن . ووقفت سليمة لا تحرك ساكناً كأن
الراحل ليس زوجها وحسن لم يحرك ساكناً " لا ليس
صحيحاً أنهما لا يكثران " قالت أم جعفر لنفسها وهى

تصدق فى حسن تكاد تلمس رجفة بدنه من تحت ثوبه
الصيفى وترى وجه سليمة شاحبا كأنها لا قدر الله
مريضة.

لاحسن ولاسليمة اللذان كانا يعرفان سبب المشاجرة
ورحيل سعد أعلما أهل الدار بما يعرفان. قال حسن ان
سعدا لن يترك البلاد وإنه سيعود من حين لآخر لزيارتهم
” و ربما .. “ لم يكمل عبارته وخرج من البيت .

بعد أسبوعين جاء نعيم وعرف بالأمر فأصابته نوبة من
الغضب أخافت الصغار وجعلتهم يركضون ليختبئوا
بعيدا .

- رحل ؟ !! كيف رحل لماذا رحل وهل يرحل دون أن
يقول لى، دون أن يأخذنى معه ١٩ وما الذى أفعله أنا
الآن ١٩ تشاجر مع حسن ... لا حسن من طبعه الشجار ولا
سعد. انتما تكذبان على ... ما الذى حدث لصاحبى ... هل
مات ؟

كان صوته عاليا وملتاعا وموزعا بين السخط والفرع .

- أين حسن ؟

- ليس فى الدار .

- أين سليمة ؟

اندفع الى حجرتها وكأنه من أهل الدار أو طفل لم
تحرم عليه بعد خدور النساء .

وقف فى مواجهتها ساخطا لايدرى ما الذى يقوله ثم

صاح بأعلى صوته :
- هل استرحيت الآن ... لقد رحل ... هل هذا ما كنت
تريدينه ؟

رفعت عينيها وحدقت فيه كما يحدق فيها .
- لا دخل لي برحيله !

كانت العفاريات تتقاذف في عينيها تراوده رغبة جامحة
في تحطيم القوارير والقذور والأحقاق وإلقاء كل تلك
المساحيق والسوائل والعجائن على الأرض ثم إطعام
سليمة ضرباً مبرحاً يفرج به عن غيظه المتراكم منها منذ
شهور ... اكتفى بأن بصق على الأرض وخرج .

نادته أم جعفر ولكنه لم يلق بالآلى نداءها وغادر
البيت مشعث المشاعر والأفكار غاضباً وخائفاً ولا يفهم . هل
أخذ سعد بنصيحته وهجر سليمة عقاباً لها ؟ عقاب
متأخر ثم ما ذنبه هو ليعاقبه معها ؟ وما ذنب أم جعفر
وحسن ؟ تشاجر مع حسن ؟ كيف ولماذا ؟ هل أصاب
صاحبه مكروه ويخفون الأمر عليه ؟

عاد أدراجه راكضاً الى بيت أبى جعفر، سأل :

- هل عاد حسن ؟

- لم يعد بعد .

خرج مرة أخرى وقرفص أمام الدار ينتظر عودته .

حين لمح حسن يقترب من أعلى الحارة قفز واقفاً وركض
في اتجاهه :

- ما الذى حدث يا حسن ؟

- هل بإمكانك أن تقضى الليلة معى ؟
- بإمكانى .
- إذن تعال .

طلع عليهم الفجر دون أن يغمض لهما جفن. حكى حسن وأنصت نعيم، ولم يقاطعه سوى مرة واحدة. قال :

- لم يقل لى سعد أى شىء عن ذلك، هل هو الذى قال لك ؟

- فى البداية لم يقل ولكننى عرفت لأننى أقيم معه فى نفس الدار فأعرف متى يحضر ومتى يغيب ومتى يزوره أغراب لانعرفهم. ثم استوضحته الأمر فحكى لى ...
اختلفنا ثم تشاجرنا ... هل أخطأت يا نعيم ؟

لم يحر نعيم جوابا وكان عليه أن يعود الى بيت مخدميه قبل أن ينتبه إلى غيابه . " لو وجدت القس ميجيل مستيقظا سأقول له إننى بكرت فى الصحو وخرجت لأتنسم شيئا من هواء الصبح النقى " .

كان يسير بخطى مسرعة هو يفكر كيف ولماذا أخفى عنه سعد ما أخفى وكيف ولماذا رحل دون أن يمر عليه ويودعه . أبطأت خطواته ثم توقف ووجد نفسه ينتحى جانبا من الطريق ويجلس وينخرط فى البكاء .

قضى حسن الأسابيع التالية مضطربا ولم يكن ذلك ليخفى على أحد من أهل الدار، لايغيبه الصغار وإن جنوا ثماره من حدة أبيهم فى التعامل معهم، يزجر ويصرخ ويضرب أحيانا على غير المعتاد ولا المألوف. وأم جعفر وأم

حسن ترجعان سلوكه لضيقه من مشاجرة عابرة كان أثرها
هكذا وخيما. تحصيان الأيام وتنتظران أن يعود سعد فيهدأ
قلب حسن. ولكن ما هو موضوع المشاجرة التي تدفع سعدا
الى ترك داره وتدفع حسنا الى ترك صاحبه وزوج أخته
يرحل ؟

وحدهما سليمة ومريمة كانتا تعرفان تفاصيل الموضوع،
لا تقول سليمة شيئا لأنها متباعدة منهما في أعشابها
ولا تكثر الكلام. ولا تملك مريمة أن تحكى لأن حسن حين
ألحت عليه بالسؤال جعلها تقسم على المصحف أن يظل
الأمر سرا في قلبها لا يذاع .

أما حسن فكان مستغربا حاله وهو يرى نفسه مؤرقا
يلح عليه السؤال :

هل أصاب في تصرفه أم أخطأ ؟ لاحظتها بدا واثقا
وكأنه قد حسم أمره وانتهى قال :

- ياسعد لا أملك أن أمنعك عن طريق اخترته لنفسك
ولكنى مسئول عن سلامة أهل هذا البيت احرص عليهم .
قال سعد :

- ليس حرصا ما تفعله يا حسن، ولو أغلق كل منا باب
داره وقال سلامة أهلى هلكنا جميعا، أقصد بشكل عام،
نهائيا وإلى الأبد.

احتد صوت حسن .

- هل تتهمنى بالتخاذل ؟

لم يجبه سعد ولكنه تطلع إليه فزادت نظرتة توترا.
كانت النظرة تتهم. علا صوت حسن :

- لن أَدافع عن نفسى ليست خطيئة أن تحصى أهل بيتك ولو بالتحايل، تواصل الحياة لكى تضمن لهم لقمة العيش والستر بين جدران بيت يضمهم. القشتاليون لا يرحمون وأنت تعرف وترى بألم عينيك كل يوم اذ تساورهم الشكوك في شخص، مجرد الشكوك، يأخذونه ويحققون معه ويعذبونه حتى ينتزعوا منه اعترافات قد لا تكون الا اختلاقا يختلقه عقله للخلاص من العذاب، وقد يحكمون عليه بالموت أو يموت من عذابهم قبل أن يحكموا فيصبح عياله بلا عائل وتخرج زوجته الى الشارع لتعول صفارها، والحرّة لا تأكل من حليب ثديها، ولكنها تأكل حين يجوع الصفار !

- كلام كله صحيح ولكن ما الذى تقترحه لمواجهة هذا البلاء ؟ ولو قال كل واحد منا أخشى على امرأتى وعيالى فما الذى يصير إليه حالنا ؟

زفر حسن :

- الله المعين !

- هذا تواكل وتقاعس يا حسن !

علا صوت حسن :

- كفى تجريحا يا سعد .

كرر سعد فى عناد :

- بل تقاعس وتواكل وأهلنا فى عدوة الغرب يركبون البحر والمصاعب ليهاجموا الشواطىء ويحملوا القشتاليين ما يقدرون عليه من مخاسر، وأهلنا فى رءوس الجبال يقاومون فهل إن لجأوا إلينا طلبا للعون أو الحماية نقول : "نساؤنا وعيالنا ... اذهبوا وحدكم والله معكم .. وإن شاء الله حين تحرزون النصر الذى نرتجيه

نحملكم على أكتافنا ونعلن الشكر والامتنان !
قال حسن بمرارة لاتخلو من سخرية :
- أنا لست مجاهدا يا سعد .

- وأنا أيضا لأملك هذا الشرف ولكنى أتعاون مع
المجاهدين. إن طلب منى أحدهم شيئا، أى شىء أقدمه
مادمت قادرا .

- ولكنك تستقبلهم هنا فى بيتى وتذهب للقائهم من
هذا البيت فتهدد كل من فيه، أمى وجدتى وأختى
وزوجتى وصغارى !

- ما الذى تريده يا حسن ؟ !

- أريدك أن تكف عن التعامل مع المجاهدين .

- وإن لم أوافق ؟

- عليك أن توافق لأنك لاتعيش بمفردك.

- اذن سأرحل وأعيش بمفردى ... هل يريحك هذا
ياحسن ؟

احتقن وجه حسن وصاح :

- لماذا تخرجنى ياسعد، لماذا ؟ هل تظن أننى لا أبالى ؟
هل تظن أن الأمر لم يشغلنى ولم يحيرنى، لم يسرق
السكينة من نفسى والنوم من عينى ؟! لقد فكرت طويلا
واستشرت بدلا من فقيه عارف ثلاثة، انتظر.

قام حسن وعاد بعد دقائق وهو يحمل ثلاث ورقات
نشرها أمام سعد وقال:

- أنظر نسخت هذه الرسالة رغم مافى الاحتفاظ
بها من خطورة، نسختها لكى تراها بعينيك وتسمع

ما فيها بأذنك فتعرف أننى لا أجبن ولا أتقاعس ولا
أخرج عن ديننا الحنيف الذى هو يسر وليس عسرا.
إسمع هذه فتوى من أحد كبار فقهاء المغرب يحل لنا
التستر والتورية على أنفسنا وصفارنا .

يقول :

" الحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله
وصحبه وسلم تسليماً . إخواننا القابضين على دينهم،
كالقابضين على الجمر، من أجزل الله ثوابهم، فيما لقوا
فى ذاته، وصبروا النفوس والأولاد فى مرضاته، الغرباء
القرباء إن شاء الله، من مقابلة نبيه فى الفردوس الأعلى
من جناته، وارثوا سبيل السلف الصالح فى تحمل
المشاق، وإن بلغت النفوس الى التراق، نسأل الله أن
يلطف بنا وأن يعيننا وإياكم على مراعاة حقه، بحسن
إيمان وصدق، وأن يجعل لنا ولكم من الأمور فرجا، ومن
كل ضيق مخرجا. بعد السلام عليكم، من كاتبه إليكم، من
عبيد الله أصغر عبيده، وأحوجهم إلى غفوه، ومزيده عبيد
الله تعالى أحمد بن بوجمعه المفاوى ثم الوهرانى كان
الله للجميع بلطفه وستره، سائلا من إخلاصكم وغربتكم
حسن الدعاء، بحسن الخاتمة والنجاة من أهوال هذه الدار،
والحشر مع الذين أنعم عليهم من الأبرار، مؤكدا عليكم فى
ملازمة دين الإسلام أمرين به من بلغ من أولادكم، وإن لم
تخافوا دخول شر عليكم من إعلام عدوكم بطويتكم،
فطوبى للغرباء الذين يصلحون اذا فسد الناس، وإن ذكر
الله بين الغافلين كالحى بين الموتى ... "

قاطعه سعد :

- لا يقول الشيخ في فتواه : أما الذين أخرجوا من ديارهم مجاهدين في سبيل الله وحقوقهم فاقطعوا بهم وأديروا لهم ظهوركم !

ازداد وجه حسن احتقاناً وانفجر في سعد :
- اسمع الكلام الى النهاية ولا تقاطعنى !

- "... الصلاة ولو بالايماء، والهدية كأنها هدية لفقيركم أو رياء، لأن الله لا ينظر إلى صوركم ولكن إلى قلوبكم، والغسل من الجنابة ولو عوماً في البحور، وإن منعتكم فالصلاة قضاء بالليل لحق النهار، وتسقط في الحكم طهارة الماء، وعليكم بالتييم ولو مسحاً بالأيدي للحيطان، فإن لم يمكن فالمشهود سقوط الصلاة وقضاؤها لعدم الماء والصعيد إلا أن تمكنكم الإشارة بالأيدي والوجه إلى تراب طاهر أو حجر أو شجر مما يتييم به، فاقصدوا الايماء ..."

وكان حسن يواصل القراءة بصوت خافت به بعض رجفة وفي وجهه شحوب حتى إذا وصل إلى " فإن أكرهوكم على كلمة الكفر، فإن أمكنكم التورية والإلغاز فافعلوا، وإلا فكونوا مطمئني القلوب بالإيمان إن نطقتم بها بناكرين لذلك، وإن قالوا اشتموا محمداً فإنهم يقولون ممداً، فاشتموا ممداً ناوين أنه الشيطان " انسالت من عينيه الدموع وارتجف صوته بغصة في الحلق يغالبها بمواصلة القراءة ولا يغلبها حتى وصل إلى خاتمة الرسالة :

- " وما يعسر عليكم فابعثوا فيه إلينا نرشدكم إن شاء الله على حسب ماتكتبون به وإن أسأل الله أن يزيل الكره

للاسلام حتى تعبدوا الله بحول الله من غير محنة ولا
وجلة بل بصدمة الترك الكرام ونحن نشهد لكم بين يدي
الله أنكم صدقتكم الله ورضيتكم به. ولا بد من جوابكم
والسلام عليكم جميعا ... ويصل الغرباء إن شاء الله *
تطلع سعد إلى حسن بعينين واهنتين ولكن سعدا أجاب
بحسم:

- هذه فتوى فى موضوع آخر ... هذا الفجر أرحل يا
سعد !

ماتت أم جعفر وهي تنتظر عودة سعد. رحلت دون أن تنذر أهل الدار بمرض طويل أو قصير. أوت إلى فراشها، واهنة صحيح، ولكن بلا علة تشكو منها. في الصباح وجدوها على فراشها وقد أسلمت الروح .

- ما العمل؟

سألت أم حسن وهي تكفكف دمعها .
أجابها حسن .

- تدخلين الآن أنت ومريمة وسليمة وتفسلنها على طريقتنا، ثم تلبسنها ثوبها المطرز فأذهب لاستدعاء القس ليقرأ عليها ما يريد قراءته ويمضى. ثم أعلم أبنا منصور والخلصاء من الجيران ونصلي عليها هنا في البيت ثم نحملها ونخرج من الدار لنشيعها وندفننها على طريقتهم.

- ندفننها على طريقتهم ١٩

- نعم ندفننها على طريقتهم أ

كان وجهه مكتوم اللون يميل إلى زرقة والنظرة في عينيه جامدة وبدا وهو يكر الكلمات كرا وكأنه حفظها حفظا وأرهقه استظهارها ثم قذفها بسرعة حتى لا يخطئ فيها أو يتعثر.

حدقت أمه فيه فغض الطرف وقال :
- سأتوضأ وأتى بالمصحف .

قامت النساء بما أوصى به حسن وكن يبكين بصوت
واهن يسكين الماء الدافئ على الجسد المسجى بلا حراك
وعندما أحضرت مريمة الثوب المطرز واقتربت من
الجثمان مالت أم حسن على رأس أم جعفر المبلل بالماء
وهمست :

- لا نضن عليك بالكفن ... والله لانضن !

وعلا نشيجهما وانتحبت مريمة ثم صار النشيح عويلا
ولم ينقطع حتى عندما جاء القس وتمتم بصلواته ووضع
صليباً خشبياً صغيراً بين يدي المتوفاة ولاحين جاء الرجال
بعد ذهابه وصلوا صلاة الميت عليها وخرجوا من الدار
لتشييعها إلى مثواها الأخير بجوار زوجها.

وفي انتظار عودة الرجال كانت أم حسن ومريمة ونساء
الحى يقمن بإعداد الطعام للمعزين وهن يبكين على أم
جعفر وعلى الزمن الذى راح حاملاً معه حق العباد فى
الكفن وصلاة الجنازة.

لم تشاركهم سليمة الطهى ولا البكاء بل انسحبت الى
حجرتها. كانت تفكر فى الموت الذى يقهر ويذل، وفى
الانسان أمام الموت لاحول له ولاقوة، وفى الله فى السماء
العالية. هل يشاهد كل شئ فى صمت ولا مبالاة ؟ أليس
هو الذى يقبض الروح فلماذا يقبضها ولماذا يطلقها أصلا
لتحط فى القلب حيناً ثم يناديه فترحل تاركة عشها

الدافىء قفرا ؟ بدا الله لها مبهما وغير مفهوم وجبارا اذ يُحمل عباده مالا طاقة لهم به . حددت فى صورة جدتها الساكنة فى الموت فسرت فى بدنها رجفة واختنقت بغصة فى الحلق واحتبست فى عينيها الدموع . ميتة جدتها كالظبية والصغير الذى أرضعته فكيف ولماذا ؟ لم تكن تملك أن تفعل ما فعله فى القصة حى بالظبية، أمه التى أرضعته، عندما شق صدرها باحثا عن الشئ المصروف للجسد بعد أن ناداها بالصوت فلم تجبه، ونظر الى عينيها وأذنيها وجميع أعضائها فلم ير علة ولا آفة ووجدها رغم ذلك عاطلة من كل حركة.

أتت سليمة بالكتاب وفتحته على صفحة بغيثها كادت تهترىء من كثرة ما عاودت قراءتها. قرأت :

" جرد القلب، فراه مصمتا من كل جهة، فنظر هل يرى فيه آفة ظاهرة، فلم ير فيه شيئا. فشد عليه بيده، فتبين له أن فيه تجويفا. فقال " لعل مطلوبى الأقصى إنما هو فى داخل هذا العضو، وأنا حتى الآن لم أصل اليه ؟ "

فشق عليه. فألفى فيه تجويفين اثنين: أحدهما فى الجهة اليمنى، والآخر فى الجهة اليسرى. والذى فى الجهة اليمنى مملوء بعلق منعقد والذى من الجهة اليسرى خال لاشئ فيه فقال : " أما هذا البيت الأيمن فلا أرى فيه غير هذا الدم المنعقد، ولا شك أنه لم ينعقد حتى صار الجسد كله فى هذه الحال ". اذ كان قد شاهد أن الدماء كلها متى سالت وخرجت انعقدت وجمدت ، ولم يكن هذا الا دماء كسائر الدماء. وأن هذا الدم موجود فى سائر الأعضاء. لا يختص به عضو دون آخر . وأنا ليس مطلوبى شيئا بهذه

الصفة. إنما مطلوبى الشيء الذى يختص به هذا الوضع الذى أجدنى لا أستغنى عنه طرفة عين، وإليه كان انبعاشى من الأول .

وأما هذا الدم، فكم مرة جرحتنى الوحوش والحجارة، فسال منى كثير منه، فماضررنى ذلك، ولا أفقدنى شيئاً من أفعالى، فهذا بيت ليس فيه مطلوبى. وأما هذا البيت الأيسر فأراه خالياً، لأشياء فيه. وما أرى ذلك لباطل. فإنى رأيت كل عضو إنما هو لفعل يختص به، فكيف يكون هذا البيت على ما شاهدت من شرفه باطلاً ؟ ما أرى إلا أن مطلوبى كان فيه، فارتحل عنه وأخلاه. وعند ذلك طرأ على ذلك الجسد من العطلة ما طرأ، ففقد الإدراك وعدم الحراك .

فلما رأى أن الساكن فى ذلك البيت قد ارتحل قبل انهدامه، وتركه وهو بحاله، تحقق أنه أحرى ألا يعود إليه بعد أن حدث فيه من الخراب والتخريق ما حدث. فصار عنده الجسم كله خسيساً، ولا قدر له بالإضافة إلى ذلك الشيء الذى اعتقد فى نفسه أنه يسكنه مدة ويرحل عنه بعد ذلك. فاقترصر على الفكرة فى ذلك الشيء، ما هو ؟ وكيف هو ؟ وما الذى ربطه بذلك الجسد ؟ وإلى أين صار ؟ ومن أى الأبواب خرج عند خروجه من الجسد ؟ وما السبب الذى أزعجه إن كان خرج كإرها ؟ وما السبب الذى كره إليه الجسد حتى فارقه، إن كان خرج مختاراً ؟

وتشتت فكره فى ذلك كله، وسلا عن ذلك الجسد، وطرحه، وعلم أن أمه التى عطف عليه وأرضعته، إنما

كانت ذلك الشيء المرتحل وعنه كانت تصدر تلك الأفعال كلها، لا هذا الجسد العاطل. وأن هذا الجسد بجملته إنما هو كالآلة لذلك، وبمنزلة العصا التي اتخذها هو لقتال الوحوش، فانتقلت علاقته عن الجسد إلى صاحب الجسد ومحركه، ولم يبق منه شوق إلا إليه .

كانت " رسالة حى بن يقظان " كتابا من خمسة كتب أخذتها سليمان من عين الدمع بعد وفاة جدها ثم أتى لها نعيم خلسة بكتاب مرة ثم بكتاب ثان مرة غيرها. وكان فى كل مرة يؤكد عليها ضرورة الانتهاء منه فى أيام معدودة هى التى يتغيبها مخدومه القس فى سفرته القصيرة. يعطيها نعيم الكتاب فتظل تنتظر الليل، يأتى فتقرأ وتجتهد فى الفهم وتدوّن ويرهقها العمل فتغفو وفى نومها تتراكم فى رأسها الأفكار والخوف من أخذ الكتب فتجفل مستيقظة وتواصل القراءة. ثم يأتى نعيم ويعيد الكتاب حيث كان فى مكتبة القس .

أى طالب هذا الذى حصيلته ودرسه كتب معدودة ؟ تكرر سليمان فى مرارة وضيق، تهوّن على نفسها بأن بين الكتب كتابا بمائة كتاب خطه مولانا الأكمل والمتبحر الأفضل رئيس الحكماء الحسين بن عبدالله بن سينا درست على يديه عبر " القانون " كتابه. تهوّن على نفسها ولكن الأمر لايهون، وتختنق فى سجن الزمان الوضيع حيث اقتناء الكتب جرم له عقوبة، وحيث الدراسة تتوجب الحرص والكتمان والتخفى، ليس فقط تمويهها على عين الغريب الذى يترصد بل أيضا على عين القريب. لا تملك أن تقرأ نهارا فيراها حسن أو أمها أو الصغار وهى تضع

على عينيها النظارة التي أخذتها من نعيم. تنتظر حتى يهبط الليل ويأوى أهل الدار الى فراشهم فتسرج القنديل وتقرأ فيتسع السجن، ويبدأ رويدا يتسع، ثم تتبدد قضبانه في ضوء شمس تسطع من الكتاب وعقلها. أى طالب هذا الذى حصيلته عشرة كتب ؟ تكرر سليمة فى مرارة وهى تحدق فى زمن قديم يأخذ بأيدي أبنائه الى المكتبات الكبيرة ورعاية أمير حكيم وترحال يجاوب شوق القلب الى علماء مصر والشام .. تقيم أو ترحل وفى الحالتين تغمرك شمس ألف كتاب هم درسك ومعلمك. فكيف لها من سجنها القشتالى الضيق أن تكشف سر ذلك العصفور الذى يرحل بقانون رب مبهم ؟! تياس ثم لا تياس، تكتفى بقانون ابن سينا ولا تكتفى فتضيف الى هوامشه أسئلتها وملاحظاتة وخلاصة قاداتها إليها التجارب، تراعى الزمن الوضيع وقرارات حسن الصارمة بحماية الأسرة ثم لا تراعيها وتهمس فى أذن نعيم تطلب كتابا وتُسِر لامرأة تعرف شخصا يعرف شخصا يأتى لها بكتاب بعينه تدفع فيه كل ماكسبته من مال فى سنة كاملة .

لو أمها أوجدتها أو حتى مريمة. التى لاتخفى عنها أمر اقتنائها للكتب عرفن كيف حصلت على كتاب ابن البيطار " الجامع " وما دفعته فيه لاتهمنها بالجنون وربما سقطت أمها مغشيا عليها من وطأة الخبر. ولكنها يوم حملت الكتاب بأجزائه كاملة ضمته الى صدرها الذى تسارعت دقات قلبها فيه وكأثما يضيق بقفص الصدر وهو يرقص منفلتا بلا حياء. وما الذى تساويه الدنانير أمام تلك الموسوعة التى تُفَصِّلُ مفعول كل عشبة ونبات.

الحكيم من اشترى والذي باع أحرق تماما كأولئك الذين
يبعدون الأيام والليالي وجهد العقل الراجح في محاولة
تحويل المعادن الرخيصة إلى ذهب، نجحوا فرضا وحولوها
فما الذى أنجزوه والموت يترصد، يرسل ميسريه يخترقون
الأسوار بالأمراض التى تفتك ثم يأتى هو ويسقط الجسد
تحت سنايك خيله المنتصرة؟! ولم ينجحوا فبعدوا العمر
وبعدوا ثمار العقل !

كانت سليمة عنيدة فى يقينها الآن أن العلة فى البدن،
والشئ المصروف للجسد فيه. ماذا يكون ومن أين يأتى
ولماذا يذهب ؟ أسئلة أرقتها وأعجزتها وإن لم تحولها عن
يقينها. أغرقت السؤال فى تفاصيل بحثها اليومى عن
الآفات الكثيرة التى تصيب البدن، تترصدها، وتنتج لها
الماضى من الأسلحة، تستلهم الكتب وتنهمك فى تجاربها.
كانت قدورها وقواريرها وأحقاقها وصناديقها عامرة
بالأعشاب الخضراء والجافة والأمزجة والعجائن والمركبات،
تعالج فتخيب مرة وتصيب مرات، تبتسم راضية ولكنها
لاتنسى تماما تلك المرارة التى زجت بها فى زاوية من
القلب، مرارة المعرفة أن انتصاراتها جميعا جزئية لأن
الموت الذى يطول قادر فى كل لحظة أن ينزل سيفه المسلط
ويطلق ضحكاته الظافرة.

اشتهرت مريمة بين الجيران ونساء الحي بمفاجأتها المدهشة، يسعفها عقلها بحسن التصرف السريع الذى يحول مرارة حكم القوى على الضعيف إلى ضحكات عفوية ساعة تنقلب الآية فيصبح القوى ضعيفا والضعيف قادرا ومزهوا.

كانت نساء الحي يتداولن ماقلته مريمة ومافعلته مريمة بلا ملل ولا كلل، ولم لا وكل حكاية منها تملوهن بهجة وحبورا وتضىء الساعات الموحشة بالفكاهة والضحك .

وكان آخر ماتناقلته النساء هو واقعة ذهابها إلى معلم المدرسة التبشيرية لتقنعه أن أبناء العرب يولدون "هكذا" وإن لم تصدقنى ياسيدى المعلم فاطلب من أى واحد من أولئك الصغار أن يخلع سرواله فتترى بنفسك. هكذا أولادنا نحن العرب يخلقون بشعر أسود كثيف ، ولاتؤاخذنى ، محرومين من تلك الزائدة التى يولد بها أطفالكم " .

وكانت مريمة قد قامت بتلك الزيارة بعد أن جاءتها إحدى جاراتها تبكى وتطلب النصيح والمشورة لأن ابنها

البالغ من العمر ست سنوات كان يلعب فى فناء المدرسة حين زلت قدمه وسقط فانكشفت عورته. وكان المعلم يقف بالقرب منه فلما رأى ما رأى استشاط غضبا وأقسم أن يبلغ المسئولين فى ديوان التحقيق لكى يؤخذوا أهل الولد على خرقهم للقوانين . طمأنت مريمة جارتها وقالت لها " لا تحملى هما وسألتصرف " وفى اليوم التالى ذهبت مريمة إلى المدرسة وطلبت مقابلة المعلم وقالت له ما قالت فابتسم ابتسامة مستخفة وقال بنظرة لا تخلو من الصرامة :

- هل تسخرين منى ؟ !

أجابته مريمة بقوة وحزم :

- ولماذا أسخر منك ياسيدى المعلم !؟ إننى أعلمك بحقيقة لاتعرفها لأنك قشتالى ولاتعرف الكثير عن أبناء العرب ... ولأنك معلم فإنه يعز على كثيرا أن يسخر منك أبناء العرب ويتهموك بالجهل . ولوتكرمت وتفضلت وزرتنا فى بيتنا يطلعك زوجى على عورة ابنى تجدها ثامما كأولئك الصغار، رغم انه فى الثالثة من عمره. وبإمكانى أيضا أن أدلك على جارة لى وضعت ولدا من يومين اثنين، لوتكشف عليه تجد الشئ نفسه. وبإمكانك الآن فورا أن تدخل الى الصف وتطلب من الصغار أن يكشفوا لك عن عوراتهم فتأكد من صحة كلامى .

وارتبك المعلم لأن السيدة التى كانت تجلس أمامه كانت تتكلم بثقة وقوة وحسم قدر أن مصدرها الصدق . ولكى يقطع الشك باليقين قام ودخل الصف وأمر الصغار أن يرفعوا أثوابهم ويخلعوا سراويلهم. دار بعينيه محدقا فى

طفل بعد طفل فما وجد الا شيئاً يتكرر، يختلف فى طوله أو امتلائه ويكاد يتطابق فى تجميعاته المحددة واستدارة طرفه، كان الأولاد جميعاً وبلا استثناء متماثلين فى غياب ما أسمته السيدة بتلك الزائدة... طلب المعلم من الصغار التستر وخرج من الصف وعاد الى السيدة التى كانت تنتظر نتيجة الفحص وقبل أن يعلمها به قالت له بوجه مطمئن :

- ألم أقل لك ولم تصدقنى ... لم تجد ولدا واحدا يختلف عن الآخرين، أليس كذلك ؟! عليك أن تصدقنى الآن ياسيدى المعلم كما أن بشرتكم تميل الى البياض وبشرتنا تميل الى السمرة يولد أطفالكم الذكور بتلك الزيادة أما أولادنا فلا يولدون بها ... للأسف !
تمتم المعلم على استحياء :

- ولكنى سمعت أن العرب يختنون صغارهم .
- صحيح ... كنا زمان نختن البنات كان هذا خطأ وتبنا عنه ... أما الأولاد فكيف نختنهم ؟!

وقامت مريمة وحياتها المعلم وهو يشكرها ويعتذر عن سوء الفهم .

وضحكت البيازين وقهقهت أسبوعين بطولهما ولكن حسن لم يضحك بل وبخها قائلاً إنها تورد نفسها مورد التهلكة وقد تتسبب فى أذى للعائلة كلها. " ولن تسلم الجرة فى كل مرة يا مريمة ! "

ولكنها كانت تسلم، بشكل أو بآخر تتمكن مريمة من مواجهة هذا الموقف أو ذاك بسرعة بديهية وذكاء فيتناقل

الجيران ما فعلته ويضحكون ضحكا لا يخلو أحيانا من توتر مصدره السؤال : ماذا لو أن التوفيق لم يكن قد حالف مريمة ؟ تسرى قشعريرة في القلب الذى يواصل، رغم ذلك، الضحك .

كان أهل الحى يحبونها لأنها مريمة، ولأنها كانت تمنحهم بأفعالها تلك لحظات من الابتهاج العفى. وكان منهم من يدينون لها بمساعدتهم ومساعدة أولادهم فى الخروج من مأزق يعلم الله وحده كيف كانوا يخرجون منه بدونها. ولم يكن ذلك الشعور بالامتنان محصورا فى المعارف والجيران بل يتعداه الى غيرهم ممن لا تعرفهم مريمة. تولد الواقعة العرفان وزيارة تعارف تنزرع المودة فيها وتنمو.

لم تكن مريمة تعرف الصبى ولا أهله. ولكنها رآته قرب السوق فى غرناطة. كان فى الثامنة على الأرجح. وكان يمشى متقافزا مبشوق الوجه يردد صلاة العيد التى لا بد انه كان قد سمعها من الكبار أو شارك أهله فيها فى تلك الصلوات الجماعية التى تقام سرا فى العيدين. كان الولد يردد طربا: "الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، لا اله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر جنده وهزم الأحزاب وحده " دارت مريمة بعينيها فى المكان كصقر مهدد فلمحت حارسين قشتاليين وبعض المارة. ركضت على الولد ولطمته على وجهه فأخذته المفاجأة وانعقد لسانه واتسعت عيناه ذهولا. ولكنه لم يبدأ فى البكاء الا عندما أمسكت يده بقوة وراحت تصرخ فيه بالقشتالية :

- ألم أقل لك ألف مرة ألا تعاشر أولاد العرب، ها أنت لا تتعلم منهم إلا الموبقات !

وراحت مريمة تصيح وتنعى حظها العاثر وتجمع المارة حولها والحارسان بينهم فوجهت لهم الكلام :
- قولوا لى ما الذى نفعله، أليس من سبيل لحماية أولادنا من زمرة السوء تلك ... وها هو ابنى، ابن بطنى، أنا القشتالية الأصلية صاحبة الدم النقى، يغنى أغانى عربية ويقول الله أكبر !

عادت تصيح فى الولد وتتوعده وأخذ البعض يهدئها مكررا أنه صغير ولايعرف ما الذى يقوله. ولمحت مريمة بين الواقفين رجلا من البيازين تعرفه، رأت فى عينيه ألقا متواطئا يشجعها على المضى فى اللعبة التى كانت قد انطلت تماما على القشتاليين فوبخ أحدهم الولد بشدة وأخذ أحد الحارسين يربت على رأس الولد وقال لمريمة :
- لاتقسى على ابنك هكذا، إنه صغير ولايدرى من أمره شيئا.

وكان الصبى مذعورا لايفهم ما الذى يحدث. أخذته مريمة من يده وابتعدت وفى الطريق سألته :
- أين بيتك يا ولد ؟
تلعثم ثم أجاب. أعادته الى أمه وقالت لها :
- عليك أن تعلمى الصغار أن يكونوا أكثر حرصا خارج البيت.

كانت مريمة قد نفذت ما أرادته حسن فى تربيتهها لصغارها. فى البيت يتحدثون العربية ويعيشون يومهم كما عاش أبائهم وأجدادهم، وفى الشارع والمدرسة

يتحدثون القشتالية ويسلكون بما يرضى السلطة الحاكمة
وديوان التحقيق. هذا ماأراده حسن. وهذا مانفذته ولكن
بطريقتها .

- من يتحدث القشتالية فى الدار أو يفعل مايفعله
القشتاليون يُسخط قردا فى الحال .
- وهل سبق أن انسخط طفل قردا من قبل يا أمى ؟
- كثيرون ... غدا آخذكم الى السوق وأريكم القروود
التي يتكسب أصحابها من ورائها .. مساكين. لقد كانوا
أطفالا لكل واحد منهم وجه كالقمر ثم انسخطوا قروودا !
- ومن يتحدث بالعربية خارج الدار ؟
- من يتحدث العربية خارج الدار، أو ينقل كلمة واحدة
مما يدور فيه يضيع فى الطرقات وعبثا يحاول أن يعود
الى البيت فلا يعرف كيف، يدخل حارة ويخرج من حارة
ولا يجد البيت كأنه فص ملح وذاب .

كانت مريمة تغالب زمانها فتبدو الايام على ما فيها من
منغصات محتملة بل وأحيانا مبهجة لأن القلب يقوى وهو
عامر بحب الصغار وحسن الذى تتجنب التفكير فى
سلوكه وتميل إلى ما تختلقه له من أعذار وتبريرات.
تقول لنفسها إنه يتقنع بالصرامة تقنعا وإن حرصه
الزائد الذى قد يرى البعض فيه تخاذلا ونقص شجاعة
ليس سوى جهد مكلف للحفاظ على الأسرة وتجنيب
أفرادها المشاكل. أحيانا تشعر به بعيدا وشرودا وحين
يقترب تراه يضيق بالصغار ومنها كأنهم صاروا عبثا
ينوء به ويضيق فتقول إنه لايريدها ولايريد صغارها
وتراودها الظنون إن كانت امرأة أخرى قد شغلت قلبه من

بعيد أو قريب فعاد يضيح بحياته معها. تكاد الشكوك
تتملكها ثم تنفضها بعيدا وهي تكذبها مستعينة بذاكرة
لحظات تختلف ترى فيها بجلاء قرب حسن وحنانه الحي
يشف عن عذوبة روحه. تلوم نفسها قائلة هل أزيده ظلما
على ظلم الزمان !؟

* * *

لم تكن زيارة تحمل خيرا. دق أخواها الباب قبل طلوع
الشمس. غيرت ملابسها وتبعتهما ومعها حسن. كان أبوها
قد توفي في الليل. كشفت مريمة الغطاء عن وجهه
وتطلعت ثم أعادت الغطاء ثانية وظلت واقفة بلا حراك
وطالت وقفتها كأنما انسحبت روحها فتعطل البدن لحظات
طالت ثم انهمرت الدموع .

قال أخواها: " سنقوم بما يليق به وبنا. وليذهب
القشتاليون إلى الجحيم ! " نصحهما حسن بعدم الاندفاع
في ذلك تجنباً للمشاكل. أصر الاخوان أما مريمة ففاضت
دموعها ولم تقل شيئا .

غسلوا أبا ابراهيم وكفنوه وشيعوا جثمانه من بيته
مرورا بالأزقة الضيقة التي تقود الى ذلك البيت العتيق
المهجور الذي يفضى رواق من أرواقه الى المسجد السرى.
صلوا عليه ثم خرجوا به الى المقابر حيث دفنوه. وفي
المساء اجتمع المعزون وتناوب أخواها تلاوة القرآن وتردد
الصوت في فضاء الحى ملحا كالحنين .

فى مساء اليوم الثالث عادت مريمة الى بيتها. وقبل أن ينقضى الأسبوع كان القشتاليون قد اقتحموا بيت أبيها وألقوا القبض على أمها وشقيقها. أين أخذوهم ؟ ما الذى يفعلونه بهم ؟ وهل يكتفى ديوان التحقيق بالتجريس والتغريم أو عام أو عامين من الحبس أم لا يكتفى ؟ هل تراهم بعد ذلك أم ينقضى العمر، عمرهم وعمرها، دون أن تلتقى العيون بالعيون ؟

لم يكن أمام مريمة سوى المواظبة على حضور مواعيد " الأتودافى " لعلها تلمح فى واحد منها أمها أو واحدا من شقيقها أو كلهم مجتمعين. تمنى نفسها بأن تراهم وأن يأتى الحكم بالبراءة أو بالفراصة، أو حتى بلبس عباءة المذنبين والطواف بحمار ولافتة عليها تفاصيل التهمة .

تبكر مريمة فى الخروج من دارها فى اليوم المعلوم وتنتظر خارج الكنيسة مع حشد يختلط فيه الأهالى مخلوعو القلب مثلها بجموع قشتالية أتت للفرجة والاستمتاع. ثم يشرئب عنقها وتعلو دقات قلبها وهى تلمح الموكب يقترب، صف من المتهمين يرتدى كل منهم الثوب المقدس ويمشى حافى القدمين حول عنقه حبل وفى يده شمعة، يدخلون الكنيسة ليؤدوا شعائر التوبة. لعله الزحام حال بينها وبين رؤيتهم . تهرول مريمة الى الساحة وتحتل موقعا يمكنها من رؤية كل شىء وتنتظر فى شمس الصيف الحارقة أو زمهرير الشتاء، تنتظر حتى تسمع دق الطبول ونفخ الأبواق وترى الأحبار ورجال ديوان التحقيق وكبراء البلد يقتربون ومن ورائهم موكب المذنبين. الكبار يجلسون فى أماكن

مخصصة لهم والمذنبون يصطفون متجاورين، وهى تبحث بعينها، تحقق وتتملى، تعى ولا تعى الزحام المتزايد والجلبة والصخب. ثم تصيح السمع وتستنفّر حواسها جميعا فى الأذنين تتابع بهما ما يقرؤه المسئول من عريضة التهم والأحكام ينتقل من اسم لاسم ومن حكم الى حكم حتى ينتهى دون أن يرد ذكر أى من أهلها فتعود تجر قدميها خائبة الى الدار. لا تنتظر لتشاهد جلد رجل بالسياط أو حرق امرأة تنفيذا للأحكام. تذهب والساحة من ورائها صاخبة بحشود قشتالية جاءت للمشاركة فى الاحتفال بالفرجة على تفاصيله المثيرة، وبينهم بعض أفراد لهم من المذنبين حصّة : أخ أو ابنة أو جار .

تعود مريمة إلى بيتها شاحبة الوجه زائفة العينين وتمرض يوما أو أيام تلازم فرشتها مهزومة الجسم واهنة تقول لنفسها ولحسن : " لن أذهب أبدا بعد ذلك ". ولكنها ما إن تعرف أن السلطات ستعقد احتفالها الرسمى ذاك حتى تتأهب وتحصى الأيام، وفى اليوم المحدد المعلوم تبكر فى الخروج .

صباح الأحد قال حسن لمريمة :

- أراك لم تستعدى للذهاب الى القداس ؟

قالت وكانت قد أمضت نهار اليوم السابق تتابع موكب المذنبين وعلان التهم والأحكام :

- إننى متعبة يا حسن ولا طاقة لى على ذلك .

ولكنه أصر :

- إنهم يترصدوننا يا مريمة. أخذوا أمك

وأخويك وعيونهم عليك . هذا مؤكد. تحاملى على

نفسك والله المعين .

طاوعته وذهبوا الى الكنيسة جميعا باستثناء سليمة
التي كانت قد حسمت الأمر قبل سنوات حين أعلنت
بشكل قاطع ونهائى أنها لن تذهب إلا لو قيدوها بالحبال
وجرّوها كالدواب. لم يعاود حسن مفاتها في الموضوع
وإن واظب على أخذ أمه وزوجته وصغاره تمويها وذرا
للرماد في العيون .

في الكنيسة احتلت الأسرة مقعدا خشبيا بكامله. جلس
حسن في طرفه المشرف على الممر الأوسط وبجواره
جلست أمه فالصغار وعلى الطرف الأيمن المشرف على
الممر الجانبى جلست مريمه .

كان الضوء الخافت وقدم المكان وصوت القس الرخيم
يضيف على قلب مريمه حزنا على حزن. جلست مطرقة
الرأس ساهمة وقد مال جذعها قليلا الى الأمام وبدأ أنها
تحقق في كفيها المسندتين المفتوحتين على حجرها. لم تكن
ترى كفيها بل وجوه من رأتهم بالأمس في موكب الخطاة،
وجوها ممتعة شاحبة، وعيونا زائغة غائرة يزيدهما هزال
الوجه والاضطراب والخوف اتساعا. رغم الثوب المقدس
الفضفاض الذى يستر الجسد كان الهزال ياديا على
أبدانهم وأثار تعذيب وعذاب الليالى الموحشة فى الأقبية
المظلمة التى تسكنها الجرذان وأشباح من سكنوها
وقتلتهم الوحشة أو نيران المحرقة . كان بين
المحكومين صببية فى عمر ابنتها رقية كلما حولت
عنها عينيها عادت عيناها إليها تتطلعان . وعندما
ذهبت مريمه بقى وجه البنت يلزمها لا يغيب.

وعندما راحت فى النوم جاءها فى المنام .

جفلت مريمة عندما صدح صوت الأرغن فجأة وسرت فى
بدنها رجفة ثم قاضت من عينيها الدموع. رفعت رأسها
قليلا وعبر الدموع رأتة. كان قريبا تكاد تلمسه لو أنها
مدت يديها.

كان يمينها مباشرة. حددت فيه وارتفعت عيناها من
قدميه الحافيتين الى ساقيه المتهدلتين إلى الجذع النحيل
العارى إلى الكتفين الصغيرين إلى الرأس المائل فتاج
الشوك يكلله. حددت فى الضلوع نافرة من قفص الصدر
وفى العيون مسبلة فى ألم مستكين، فى الذراعين
ممدودتين على خشبة الصليب، توقفت عيناها عند الكف
ثم الكف والمسمار فى كل منهما يثقب ويثبت لحم الانسان
إلى صليب محنته. عادت تتطلع إلى الوجه. كان حزينا
وبائسا يرهقه العذاب ولا يفصح إلا برأس يميل قليلا كأنه
لا يميل .

قامت مريمة وخطت إليه خطوتين وجثت على ركبتيها
ومدت يديها تلامس القدمين الحافيتين. بدا لها أنها
ستطلب شفاعته ولكنها عندما اقتربت منه ولمسته فاض
قلبها وتمتمت " والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم
أبعث حيا. ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذى فيه
يمترون " كانت ذراعا الممدودتان على الصليب جناحين
ينشرهما عليها محبة ورحمة . لم تطلب مريمة
شيئا بل فتحت ذراعيها وأحاطت ساقيه ومالت
برأسها قليلا وقبلتهما .

عرض القس ميجيل على نعيم أن يرافقه فى رحلته الى العالم الجديد. وجاء العرض مفاجئاً لنعيم حتى أنه لم يعرف بماذا يجيب وطلب من مخدمه أن يمهلّه عدة أيام للتفكير فى الأمر. لو أن سعدا لم يتركه بهذا الشكل القاسى لما فكر لحظة فى الرحيل ولكنه ضار مقطوعاً من شجرة فلماذا لا يرحل الى عالم جديد أو قديم أو حتى جهنم حمرا ١٩ وما الفرق بين مكان وآخر فلا زوجة ولا أولاد ولا صديق. حتى أم جعفر ذهبت وثوى جسدها التراب. ثم أن القس رجل طيب سهل المعشر لا يهينه أبداً ولا يسىء إليه بل على العكس من ذلك يلحظ أحيانا تكدره لسماع أخبار ديوان التحقيق وجورها على العرب وغير العرب. والقس يتحدث عن عالم جديد كأنه الفردوس فى جماله وشرائه، لم لا يسافر؟ ولوعاد سعد؟ ولم لم يعد حتى الآن وقد مر على سفره ثلاثة أعوام ولا حس ولا خبر ١٩

كان نعيم يعيش موزعاً بين جرحه من سفر سعد المفاجئ وقلق متوجس يتجسد أسئلة لا تنتهى : هل رحل سعد الى المغرب أم الى رءوس الجبال؟ وهل يعمل مع المجاهدين على السفن المغيرة أم يجلس فى ستر كهف من الكهوف يتهامس مع رفاقه فى شأن الغد؟ هل أصابه

مكروه أم تزوج بغير سليمة وأكرمه الله بصبي أو صبية؟ ترى أين أنت يا سعد وما الذى تفعله فى هذه اللحظة وهل يمر بخاطر ك صاحبك نعيم أم انك نسيت كما نسيت يوم تركت غرناطة دون أن تأتى لتودعه ؟

قبل نعيم عرض القس وقبل يومين من سفره ذهب الى دار حسن ليودع أهل الدار. بكت أم حسن لسفره ولكن الصغار كانوا متوقدين يعطرونه بالأسئلة عن ذلك العالم الجديد الذى يقصده فيضحك ويقول لهم انه لم يره بعد لكى يحكى لهم عنه. " عندما أعود بإذن الله سأحمل لكم معى حكايات كثيرة وذهبا كثيرا أيضا لأنهم يقولون انها بلاد حضاها من الجواهر وتربتها من التبر الخالص " وكان يضحك لأنه لم يكن يصدق هذا الكلام على شيوخه وكثرة ترده .

وكان حسن يجلس صامتا يتطلع إلى نعيم، تثقله فكرة رحيله. يستحضر رحيل سعد ويتوجس من وحشة المواصلة وحيدا بلا سند .

- ومتى تعود يا نعيم ؟

- بعد عام، أو عامين لأن القس يقول إن الغرض من ذهابه هو أن يكتب كتابا. إنه يريد أن يرى كل شىء بنفسه ويسجله فى كتاب .

مد نعيم يده الى جيبه وأخرج منه ورقة مطوية وقال لحسن وهو يعطيها له :

- لو عاد سعد فى غيابى اعطه هذه الرسالة. قل له إننى أشواق له وإن رحيله عذبنى . قل له إننى لن أطيل

السفر. قل له ... لا تقل له شيئاً لقد كتبت ذلك كله فى الرسالة ... هل بإمكانى أن أودع سليمة ؟

سبقته إحدى الصغيرات الى حجرة سليمة وأعلمتها بقدومه . دخل ووقف متلعثماً ثم قال :
- سأسافر الى العالم الجديد مع القس ميجيل .

تطلعت سليمة إليه فخال أنه رأى التماعه فى عينيها أو ربما اختلاجة فى وجهها . لم تقل شيئاً بل مدت له يدها تصافحه . وحين استدار قاصدا الذهاب سمعها تقول :
- لا تغضب من سعد يا نعيم، انه يحبك كثيراً .

استدار اليها فرأى دمة على خدها فهول خارجاً حتى لا يراه أهل الدار وهو ينتحب .

هل نادى نعيم سعداً فى تلك الليلة الى الحد الذى سمعه سعد وهو فى القرية النائية ؟! وهل يسري صوت صاحب إلى صاحبه عبر السهول والجبال ؟ فى تلك الليلة رأى سعد صاحبه فى المنام . كانا معا ومعهما سليمة وحسن يحيطون بأبى جعفر الذى كان منزعجاً بطوله المديد فى المكان، وضاء الوجه يبتسم، يوجههم فيما يقومون به من عمل . يرتب حسن أوراق المخطوط، وهو يقص الجلد اللازم لتغليفه، ونعيم ينحنى على غلاف يعتنى بكتابة العنوان سلاسل حروف تتمايل كالأغصان عفية ومرهفة. " من أين لنعيم بهذا الخط الجميل ؟! " يتطلع اليه سعد، وسليمة تقف بباب الحانوت مع ظبيتها تقول إن الكتاب لها فيبتسم أبو جعفر قائلاً : " صبرا

يا سليمان ... ننتهى أولا من الكتاب ثم نعطيه لك،
سنعطيه لك .

هل يفتقدونهم إلى حد استحضارهم فى المنام أم أن حلمه
رؤيا وبشارة بلم الشمل ؟ تساءل سعد وهو يستعيد
تفاصيل حلمه، لابد أنهم ينادونه وها هو ذا قلبه قد سمع
النداء. سينزل غرناطة للقائهم .

كان قد مضى عليه ثلاثة أعوام وهو يعيش بين شباب
المجاهدين فى قرية جبلية مستورة عن العيون الغربية.
كان يقطع الطرقات الوعرة التى يجعلها القشتاليون
حاملا مع رفاقه المؤن والرسائل إلى فدائيى البحر الذين
يهاجمون الشواطىء ويوجعون جند قشتالة وحكومتها
بفاراتهم. وكان يساعد فى تنظيم وصول أهالى القرى
الذين قرروا الهجرة الى شاطئ الرحيل. تأتيهم رسالة
من قرية بعينها فيدخلونها تحت جناح الليل سرا ويلتقون
بشيوخها ويعدون كل شىء بالجملة والتفصيل. وفى اليوم
المعلوم يجتمع من انتوى الرحيل من الأهالى فيقومونهم
سعد ورفاقه فى المسالك الجبلية غير المطروقة. أطياف بلا
صوت تسرى فى جوف الليل يستترها وقلوب السارين
التى تفيض تحجز فيضها فى الصدور، لاحدو، لاغناء، لا
إنشاد. فإذا ملاح لهم الشاطئ توقد الأطفال وتقفزوا
مستثارين وتحرك الكبار فى همة ينقلون عيالهم
وأمتعتهم الى المراكب. تتعاقب على عيونهم شمس
وليل، تضىء العيون برجاء الخلاص وتعتم بحزن الرحيل
عن زيتونة الدار وغصن ريحان لن يضعه أحد على قبر
الآباء . يصعدون فتتحرك بهم المراكب الصغيرة الى

السفن الكبيرة الراسية فى عرض البحر تحملهم وتبتعد .

كانت سليمة كعادتها تنحنى على كتاب من كتبها تدرس تفاصيله فى ضوء سراج حين سمعت الصوت فتلفت ثم عادت الى الكتاب قائلة لنفسها : " هىء الى " ولما سمعت الصوت مرة ثانية تيقنت أنه سعد ينادى. ركضت إلى خارج الدار وفى عتمة الفناء لقيته. فتح ذراعيه واسعتهين وضمها فضمته، وقبلها فقبلته، ثم أمسكت بيده فتبعها الى داخل البيت وكان أهله نياما .

فى حجرتها جلس سعد أمامها حيا لا يعرف ما الذى يقوله، وجلست هى أيضا تتطلع مضطربة. طالت غيبته تسعة وثلاثين شهرا بدت كعشر سنين ... هل لأنها افتقدته أم لذلك الشيب المتكاثف على فوديه وخطوط استجدت على الجبين وتحت العينين فى بشرة لوحتها رياح ثلجية أو قيظ شمس حارقة ؟ قالت سليمة :
- طال غيابك يا سعد .

أقبل عليها فالتقيا لقاءً صاخبا محمولا على شوق الجسد وحرمان الروح تطلب الوصل وتلح فيه. أنالها وأنالته فرفعتهما موجة الوصل عالية فيشهبان بين موت وحياة وموجة تغمر وأخرى ترفع وقاع مظلمة عميقة وزرقاء عالية تتوهج بحرارة شمس لاهية تتقد، يشهبان، يجمع البدن والروح فيه تحتشد فاذا ملاح شاطئ الوصول انطلقت نوارس البحر تظرز الفضاء بأبيضها وتهلل .

وعلى شاطئء الوصول سكنا وتحدثا، تحدثا طويلا
وبصوت هامس، وعندما غردت عصافير الصباح راحا فى
نوم عميق.

أضفى حضور سعد المفاجىء على الدار بهجة كبهجة
الأعياد. كان الكل فرحا مستثارا. وكان حسن أكثرهم جذلا
يضحك كما لم يضحك منذ سنين، يمازح سعدا ويحدثه
ويسأله ويسمع منه حتى احتج الصغار وأم حسن لأنه
لا يتيح لهم فرصة الحديث مع سعد .

وكان سعد يكاد لا يصدق أن ثلاث سنين فرقت هكذا
فرقية وأختها الأصغر منها مباشرة اللتان تركهما طفلتين
صارتا صبيتين لن يستغرب لودق باب حسن من يطلب
الزواج منهما. وهشام الذى كان يتعثر فى المشى ولا
يعرف من كلمات اللغة سوى كلمتين أو ثلاث أصبح
يتحدث بطلاقة ويفهم ما يقال له ويجيب ويقول إنه بعد
عام واحد سيذهب الى المدرسة ليتعلم القراءة والكتابة .

- تتعلم العربية أم القشتالية يا هشام ؟
- فى المدرسة أتعلم القشتالية وفى البيت يعلمنى أبى
العربية كما علمها لأخواتى.

فيضحك سعد مسرورا بفطنة الولد ويقول لأم حسن :
- أوقدى البخور وارقيه من عينى .
فيضحك حسن ولكن أمه لاتضحك بل تتلو " قل أعوذ
برب الفلق " تبدوها مسموعة ثم تكملها فى سرها تكشفها
حركة شفيتها المتممتين .

لم تشاركهم سليمة ولا مريمة الجلسة إذ كانتا قد بكرتا
فى الخروج إلى السوق لشراء بعض لوازم الطعام. كانت
مريمة قد قالت لسليمة :

- ليس يوما كباقي الأيام، إذن تعالى معى الى السوق .
طاوعتها سليمة وما ان ابتعدتا عن الدار حتى قالت
مريمة وهى ترمقها بنظرة مأكرة :

- كانت ليلة بألف ليلة، أليس كذلك ؟

تضرج وجه سليمة بحمرة الخجل، قالت :

- ما الذى نشتريه للطعام ؟

- سأذبح خروفا !

قبل المغرب كان الخروف مطهيا ينتظر الأكلين. لم تكن
الضحكات العالية التى ميزت الوليمة ترجع فقط لعودة
سعد والتئام شمل العائلة ولحم الخروف الشهى ولكن
أيضا بسبب حكاية الخروف التى أضيفت إلى سجل مريمة
الحافل بالحكايات .

" حين قلت لسليمة إننى أنتوى ذبح خروف احتفاء
بسعد ظننتنى أمزح، أليس كذلك يا سليمة ؟ ولكنى طبعاً
لم أكن أمزح، صحيح أن الذبح فى البيوت محظور وقد
تكون عاقبته السجن ولكنى كنت قد قررت وتوكلت.
دخلت على البائع فى سوق الدواب عابسة الوجه وكأئننى
أحمل هم الدنيا والآخرة قلت له :

- لى ولد، ولد وحيد، أكرمنى الله به بعد خمس بنات.
ولقد عاهدت نفسى ألا أurd له طلباً وأوفيت. ولكن منذ
أسبوع جاءنى الولد وقال «أريد خروفاً» قلت " وما الذى
تفعله بالخروف ؟ " قال " ألعب به " قلت : إن شاء الله "

ولكنى طبعاً ما كنت أنوى شزاء الخروف فهل هذا زمن يشتري فيه الإنسان خروفاً للصغار يتسلون به ؟ ولكن الولد يا حسرة قلبي . مرض بالأمس .

قاطعها هشام محتجاً :

- ولكنى لم أمرض، ولم أطلب خروفاً !
أشارت عليه أخواته بالسكوت فسكت . كن يتابعن الحكاية باهتمام مستثار . قالت مريمة :
- " الولد يا حسرة قلبي مرض بالأمس وصار جبينه كالنار الحارقة وبات طول الليل يهذى ويطلب الخروف ... ألا ترى أن من واجبي أن أشتري له خروفاً ؟
قال البائع وقد بدا عليه التأثر :
- طبعاً تشتريه . ويا اختى إن نقص عليك ثمنه فلا تحملى هما . ادفعى ما معك الآن وبعد أيام أو شهر تدفعين الباقي .

قالت سليمة :

- لو رأيت مريمة وهى تكاد تبكى وتبكي البائع لقلتم إن هشاماً مريض فعلاً .

قالت مريمة مستعيدة خيط الحكاية :

المهم شكرت الرجل وقلت له :

- أنت رجل طيب وأصيل، هل عندك أولاد ؟

قال :

- سبعة .

قلت :

- باركهم الرب وحفظهم لك . شكراً يا أخى على عرضك لقد مررت على الصائغ وبعثت له خاتمي

الذهبي. كم ثمن الخروف ؟

أكملت سليمة وهي تضحك :

- قبل أن نترك البائع كان قد بدأ يحكى حكاية " هذه المرأة المسكينة التى باعت خاتمها لتدخل السرور إلى قلب ابنها المريض " وفى الطريق الى الدار حكى مريمة حكاية الخروف ثلاث مرات، مرتين بالقشتالية ومرة بالعربية. والله أعلم أن واحدا ممن حكى لهم الحكاية كان من موظفى ديوان التحقيق !

قال حسن :

- وإن سأل أحدهم عن الخروف غدا أو بعد غد ؟

قالت مريمة وهي تبتسم :

- سأقول مات الخروف، أتنهد وأقول سامح الرب البائع أعطانى خروفا به علة ولولا أن له سبعة أولاد وأن لى قلبا طيبا لاستنزلت عليه غضب الرب. ولكن من يدري لعلها إرادة الرب الحكيم ورحمته التى أماتت الخروف وأعادت الصحة الى ابنى !

بعد العشاء اختلى حسن بسعد ليسمع منه وحكى سعد عن القرية الجبلية التى يقطنها :

- كأنها غرناطة القديمة يا حسن، تألف صوت المؤذن فيها والأهازيج والأغانى فى الأعراس وفى الحقول. نتحدث العربية بلا حرج وفى كل وقت ونرتدى ملابسنا المعتادة ونستطلع هلال رمضان ونحتفل بالعيدين.

- وليس فى القرية أى قشتالى ؟

- ولاقشتالى واحد !

- عجيب .

- إنها قرية نائية منسية فى الجبال ربما لا يعرفون أصلا أنها موجودة.

- وهل تنوى البقاء هناك طويلا ... هذا بيتك يا سعد وبإمكانك العودة متى أردت.

- يصعب ذلك الآن يا حسن. عندما كنت مقيما هنا كنت أساعدهم بالقدر الذي أستطيعه، الآن أعمل معهم .

- وتبقى هناك ... نهائيا ؟

- ادع معى أن ينزاح الكابوس فتنتفى ضرورة عملنا. لعل الله يهدى بنى عثمان أو المغاربة فيجردون الحملة الكبيرة المنتظرة .

- هل تعتقد أن ذلك ممكن أم أننا نمنى أنفسنا بالمستحيل ؟

زفر سعد ولم يقل شيئا .

- كيف ماتت أم جعفر يا حسن ؟

حكى حسن دون استفاضة ولكن سعدا استفسر منه عن التفاصيل فنقلها له . فقال سعد :

- فى الصباح أذهب لزيارة قبرها ثم أذهب الى نعيم لأعلمه بوجودى .

تطلع حسن اليه وكاد يخبره برحيل صاحبه ثم أجل الأمر الى اليوم التالى .

- قم ياسعد الى امرأتك، لقد امتد بنا الحديث وتأخر الوقت .

فى الصباح اصطحب حسن سعدا الى قبر أم جعفر

وقرأ الفاتحة على روحها . وفى طريق عودتهما حكى
حسن عن سفر نعيم وأعطى سعدا الرسالة فقرأها واجما
ولم يقل شيئا . فقال حسن :
- تعال معى سأريك ذلك الخان .

فى الطريق الى رصيف حدره حيث يقع الخان حكى
حسن لزوج أخته:

- اشترى هذا الخان اثنان من آل طاهر من بالينسية
وهم عائلة كثيرة العدد ثرية ومتنفذة حتى يقال إنهم
استطاعوا قبل عدة سنوات أن يحصلوا على براءة ثلاثة
من شبابهم اتهمهم ديوان التحقيق بالاتصال بالفرنسيين
والإعداد لتمرد بين العرب والأهالى يربك سلطات أراجون
فى حالة غزو فرنسى. يقال إن والد الشباب وأعمامهم
سافروا الى مدريد وبرشلونة واتصلوا بالبلاط وبالمجلس
الأعلى لديوان التحقيق ودفعوا مبالغ طائلة ونجحوا فى
الإفراج عن أولادهم .

المهم الرجلان اللذان اشترى هذا الخان من نفس العائلة،
لا علاقة لهما طبعا بموضوع الشباب الثلاثة، ولكنهم من
نفس العائلة. ويبدو أن لهما نفوذا كبيرا لأنهما تمكنا من
شراء هذا الخان وتسجيله رغم قرار حظر شراء الأراضى
والبيوت على العرب داخل نطاق مملكة غرناطة .

ولقد أرسل لى هذان الأخوان بمن يعرض على إدارة
الخان وتولى شئونه . وقال لى المرسال إنه فى حالة
موافقتى فسيأتى الرجلان للاتفاق معى على التفاصيل .
مارأيك ؟

كان سعد ينقل عينيه فى أرجاء المكان يتأمله . وكانا قد دلفا من بوابة خشبية عبر ممر إلى فناء مربع مكشوف يتوسطه بناء حجرى من طابقين، ويحيط بالفناء من جهات ثلاث مشرفيات تحمل أعمدة عقودها وسقف رواقها شرفة خشبية ممتدة بامتداد أضلاع ثلاثة من الأضلاع الأربعة للطابق الثانى .

إلى يمين الداخل مباشرة حظيرة واسعة للدواب عال سقفها وتقطعها المزاود والمساقى، وإلى يساره درج حجرى يقود إلى الشرفة الخشبية التى تفتح عليها أبواب غرف النزلاء .

فتح حسن بابا. كان يفضى إلى غرفة مستطيلة تتسع لفراش وخزانة خشبية وتضيئها نافذة كبيرة ترتفع مستطيلة لتنتهى مقوسة. قال حسن:

- فى هذا الطابق خمس عشرة غرفة خمس فى كل ضلع. وفى الطابق السفلى عشر غرف ومخزن لبضائع النزلاء والحظيرة من ناحية وقاعة واسعة لطهى الطعام وتناولها وللإستدفاء بالنار فى الشتاء أما فى ليالى الصيف فهناك الفناء والرواق المحيط به نفرشهما بالأسطة والأرائك الخشبية، مارأيك ؟

- إنه جميل وواسع وكثير المنافع. قدرك الله على إدارته فهو يحتاج إلى جهد عدة رجال.

- لو جاءنى هذا العرض قبل سفر نعيم لاستبقيته ليعمل معى . لقد طلبت من أبى منصور أن يعاوننى .

- وهل يقدر ؟

- يقدر ولكنه يسرف فى شرب الخمر. طلبت منه أن

يعمل معى على أمل أن يجد فى هذا الشاغل الجديد
ما يصرفه عن الشراب .

خرجوا من الخان إلى بيت أبى منصور ولكنهما لم
يجداه .

قضى سعد فى دار حسن ثلاثة أيام ثم أسرى فى ستر
الليل عائدا الى قريته الجبلية. ودعه الصغار والكبار،
بكت أم حسن وبدا وجه سليمة شاحبا وقال وهو يغادر
الدار : " سأعود قبل نهاية الصيف وإن لم أوفق فى ذلك
أحضر فى الخريف لكى أقضى معكم عيد الفطر . "

كان سعد وهو يودع غرناطة عائدا إلى رفاقه يسترجع
لحظات الوصل مع سليمة فتثقل عليه أكثر أحزان
الرحيل. ولم يكن يدرى أنه أودع امرأته فى لحظات الوصل
تلك بذرتة ولا علم بعد شهور من ذلك أن النطفة فى
أحشائها كانت تتخلق وتنمو حتى خرجت طفلة كحلاء
العينين مثله تحتضنها سليمة بلهفة مضاعفة وهى تنتظر
عودة أبيها لتعلمه ان اسمه قد أصبح "أبو عائشة" .

ورغم قلق لا يتبدد لغياب سعد الذى لم يعد فى نهاية
الصيف ولا فى نهاية الشتاء الذى تلاه إلا أن ولادة عائشة
أضفت على البيت فرحا مستجدا وقد عاد يملؤه صراخ
وليد وانهماك الأهل فى مشاغله الكثيرة. ووجدت القادمة
الجديدة بدلا من صدر أم واحدة صدور أمهات كلهن يدلن
ويحنون. ولم تكن سليمة ومريمة وأم حسن وحدهن
المنهكات فى رعاية الصغيرة بل أيضا بنات حسن، الأكبر

منهن وجدن فيها بنتا يمارسن عليها أمومتهم المبكرة
والأصغر أقبلن عليها كأنها لعبة مثيرة ومدهشة .

وحده هشام لم يجد له دورا فى ذلك كله. كان يكبرها
بخمسة سنوات ولا يرى فيها سوى ضيف ثقيل خلعه عن
عرش أهميته. يتحمل الولد همه فى صمت ثم تبدر منه
إشارة أو فعل يفصح عن ضيقه وكدره. ولم يكن أبوه
ليتحمل ذلك منه بل يوبخه بعنف فيزداد الولد حنقا على
حنق.

وكان حسن موقنا أن فى قدوم هذه البنت وعد خير
وحسن طالع. فبعد ولادتها بأيام معدودة توالى على
البيازين أخبار نبض قلب الحى لسماعها ورفرف وتألفت
العيون فقداثيو البحر الآتون من الثغور المغربية قاموا
بغارة قسمت ظهر الأسبان ومرغت أنوفهم فى الوحل.
رست سفنهم فى ستر الليل على الشواطىء كالمعتاد
ونجحت فى حمل ستمائة مهاجر أخذتهم فى أمان الله
وأبحرت ولكن السفن الأسبانية فاجأتها فى عرض البحر
واشتبكت معها. لم تكتف سفن المجاهدين بالدفاع عن
نفسها بل انقضت مهاجمة وأغرقت بعض سفن العدو
وحاصرت البعض الآخر وأسرت من عليها ومن بينهم
القادة والنبلاء وعادت بالسلامة الى الشواطىء المغربية .

استقبلت النساء الخير بالزغاريد، نساء البيازين
زغردن فى قلوبهن أما نساء العرب أنصارا ومهاجرين
فأطلقن الصوت من شاطئ الوصول الى أهلهم المجاهدين
على متن السفن وهى تتهاذى وتقترب .

" عائشة ابنة سعد وسليمة قدم خير وبشارة " يكرر
حسن ويضم الصفيرة إلى صدره. لا يبدأ يومه الا
بالاصطباح بوجهها ولا يخلد إلى النوم الا بعد أن يطبع
قبلة على جبينها وإن كانت مستفرقة في النوم أو تبكى
بحرقه على طريقة المواليد .

ولما كان على حسن أن يسجل البنت في الأوراق باسم
أعجمي فقد سماها " إسبيرانزا " يناديها عائشة مرة
وإسبيرانزا مرة وأمل ألف مرة .

جلس نعيم في ركن من الحجرة يراقب يد الأب ميجيل وهي تغمس الريشة في المحبرة وتكتب ببطء من اليسار إلى اليمين ثم تعود تغمس الريشة وتواصل. كان نعيم يتمنى أن يترك القس عمله ولو لحظات ويبادل له الحديث. ولكن الأب ميجيل كان منهمكا تماما فيما يكتبه.

في ضوء القنديل بدا له القس شيخا واهنا أنهكته السنون . وكان ثوبه الرهباني الداكن وقامته المنتصبة وخطوته الواثقة تضيف عليه فتوة لا أثر لها الآن وهو جالس في منامته البيضاء يميل رأسه قليلا فتميل معه خصلات شعره الفضية الناعمة تجلل وجهه الممتلىء المستدير شاحبا ومتفضنا.

هو أيضا متعب، ولعله مثله تداهمه الكوابيس ... ولكنه لا يصحو صارخا في الليل، لم يسمعه يفعل ذلك ... لم يره يبكي الا مرة واحدة. سمع الصوت فهزول إليه ورآه عبر الباب المشرع جاثيا على ركبتيه، رافعا ساعديه، مسندا ذقنه الى يديه المضمومتين. كان يصلى وينتحب بصوت عال مهزوم.

فى ذاك اليوم كانا قد شاهدا أجساد عشر من نساء
البلاد تتأرجح فى حبال مشنقة ثبتت فى هيكل خشبى
مستطيل، هيكل عال ترك بين أقدام النساء والأرض من
تحتها مسافة تكفى لتعليق صغارهن فى حبال تتدلى من
أقدام الأمهات .

فى المساء بكى القس ولم يبك نعيم بل فكر فى أن الله
لطف بالأمهات اذ جاء شنقهن أولا ثم شنق أطفالهن بعد
ذلك. وكان قد رأى قبل ذلك بأيام معدودة هول أن يقتل
الصغير أمام عينى أمه. كانت امرأة جميلة بها امتلاء
وعذوبة تحمل رضيعا، ابن سبعة شهور أو ثمانية، ورث
عنها الامتلاء واستدارة الوجه والغمازتين فى الوجنتين.
أى حظ تعس حملها إلى ذلك المكان فى تلك اللحظة ؟
ولكنها أقبلت تنهائى، رائقة البال، تحمل طفلها أمانة
مطمئنة. ولما باغتها الرجل القشتالى بوغتت وانطلقت
منها صرخة حادة مفاجئة لم تحل دون انتزاع الطفل منها.
فى لحظة كان القشتالى قد انقضَّ عليها واختطف الصغير
من بين يديها وألقى به على امتداد ساعده فى اتجاه كلبه
الجائع. كلب أسود قنَّاص له خطم طويل وقوائم عالية
وأذنان كالماعز كبيرتان متهدلتان. قفز الكلب قفزة واحدة
أنزلته على الطفل فراح ينهش. واختلط صراخ الأم
وصراخ الصغير بضحكات القشتاليين الذين التفوا
للفرجة. كانوا جميعا يضحكون بصخب سوى اثنين
أحدهما يحدق فى المشهد ويهز رأسه فى اتصال ألى،
وثانيهما يستخدم قوة ذراعيه فى تطويق المرأة لمنعها من
محاولة الوصول الى صغيرها. واصل الكلب وجبته،
والرجال الضحك، والمرأة الصراخ حتى أسكتتها طلقة

نارية فسقطت على الأرض غارقة فى دمها ثم ساد الصمت.

عندما رست به السفينة ونزل مع مخدومه الى هذا العالم الجديد أسرته النساء أكثر من خضرة الأشجار ودكنة جذوعها السامقة. نساء عرايا كالحوريات يتطلع إليهن فتتسارع دقات قلبه وتلهب روحه وتتوقد بالرغبة الملحة. يوم، يومان، ثلاثة ثم رأى لهاث الرجال وسعارهم وهم يطاردون الفرائس حتى يظفروا بها، يمزقون اللحم ويلجئون. ركض الى القس مذعورا وحكى له فقال: " غدا أقابل الحاكم وأخبره. إن ذلك إثم يا ولدى، إثم كبير يغضب الرب وإن تكرر فإن الرب ينزل بنا عقابا مهلكا يشملنا جميعا من اقترف الخطيئة ومن تبرأ منها ! " .

لم يعد نعيم يركض مرتاعا ليحكى ما شاهدته عيناه فالقس يعرف ولا يملك سوى لقاءات لاجدوى منها مع الحاكم ونائب الحاكم وكتابة رسائل لاتنتهى الى الامبراطور ورجالات البلاط فى أسبانيا والبابا فى روما .

أثناء النساء العرايا، قدودهن السمهرية، عيونهن الأسيرة يمر بها نعيم دون أن يتطلع ، يمر ويغض الطرف كأنما هاتيك النساء من أهله لا يملك أن يفتح حرمتهن بالتحديق، ويخشى أن تلتقى العينان بالعينين فيقتله الخزي من عريهن وعجزه .

لو أن القس يتوقف عن الكتابة ويبادله الحديث. لو أن بإمكانه أن يتحدث لغة أهل البلاد لكان قد تعرف على

العديد منهم وصادق بعضهم. كان يراهم وهم يعملون فى قطع الأشجار أو شق الطرق أو نقل الأحجار، دائما فى حراسة الرجال المسلحين. يتطلع إليهم، يضمن طبائعهم وخصالهم. يقول هذا الشخص طيب وذاك أقل طيبة وذلك معتد بنفسه، كريم فى قومه ... يود لو يقترب منهم ويبادلهم الحديث فيعرفهم بنفسه ويسمعهم حكايته ويسمع حكايتهم ولكن كيف وهو يجهل لغتهم، وهم لا بد يظنون أنه من أولئك الذين ألقى بهم البحر عليهم لكى يسوموهم العذاب ١٩

أغمض نعيم عينيه واستحضر صورة ذلك الكهل الذى رآه مرارا حتى ألف كل منهما وجه الآخر. كان نعيم حين يمر به يبتسم ويرفع يده بالتحية. فى المرة الأولى حدق الرجل فيه كأنما يتساءل ثم صار يبتسم هو أيضا ويحييه بنفس الطريقة فيرفع يده حتى تلامس جبهته . لو كان يفهم لغتى، لو كنت أفهم لغته لقلت له : " لست منهم ... هل ظننتنى منهم ؟ ! انا من غرناطة ... " ويحكى له طويلا فيألفه الرجل ويحبه ويدعوه الى بيته ومن يدرى لعل له ابنة طيبة مثله فيطلب منه يدها "صحيح اننى غريب واننى على مشارف الأربعين ولم أعد وسيما كما كنت ولكنى طيب القلب أصون امرأتى وأمنحها محبة وأطفالا، ما قولك يا عم ؟ "

بين الصبحو والنعاس رأى نعيما الصبية التى سبى تزوجها، ابنة الرجل، كانت تشبه تلك التى رآها ذات يوم بعيدا بالقرب من غرناطة فأسرته. كانت تشبهها بشكل مدهش. ولم تكن عارية بل كانت مثلها ترتدى ثوبا

أبيض .

- يبدو أن النعاس بدأ يثقل جفنيك يا نعيم، قم الى فراشك يا ولدى.

ولكن نعيم فتح عينيه واسعتين وقال :

- أبدا يا سيدى القس لا أشعر بالرغبة فى النوم بعد .

فابتسم الأب ميجيل وقال وهو يهز رأسه :

- بل كنت نائما وربما كنت تحلم وأيقظك صوتى .

- سيدى القس هل تسمح لى بسؤالك عن شىء ؟

- اسأل يا ولدى .

- ما الذى تكتبه، ما الذى تكتبه بالضبط ؟

- أكتب، أقصد كتبت فعلا الحكاية من أولها. كتبت عن

رحلات كريستوبال كولون الأربع، والصعوبات التى

واجهته، والنجاح الذى حققه، والآن، فى هذا الشهر

الأخير، أكتب عن الجزيرة وأهلها، أصف الأحوال المناخية

على مدار العام، وأرصد أنواع النباتات والطيور

والحيوانات وبعد ذلك سوف أكتب عن الأهالى، أصف

أشكالهم وطريقة حياتهم وأفكارهم ومعتقداتهم .

- ولكن ..

تلعثم نعيم .

- كيف تعرف أفكارهم ومعتقداتهم ولم تتحدث مباشرة

إليهم ؟

- ألاحظ سلوكهم وأجمع ملاحظاتى إلى ملاحظات

الآخرين ومنها أستنتج أفكارهم ومعتقداتهم .

- وهل تكتب يا سيدى القس عن تلك الأشياء الأخرى

أيضا ؟

- نعم يا ولدى كُتبتت وسأكتب المزيد عن كل الأشياء الموجهة التي رأيتها وسمعت عنها وسوف أضيف أنه من العار حقا أن نحول حلم الرجل العظيم الذي اكتشف هذه الأرض إلى هذه الشراسة غير المفهومة. هل تعلم يا نعيم ما هي الدوافع التي حركت كولون ودفعته للإبحار والمخاطرة ؟

- اكتشاف أرض جديدة يا سيدي .

- لم يكن ذلك الا وسيلة يا ولدى، وسيلة لتحقيق حلم سام نبيل يتلخص في هدفين جليلين لا ثالث لهما : أن ينشر كلمة الرب بين من لم تصلهم من قبل فيضمهم الى أحضان الكنيسة وأن يحصل على الذهب ليجرد حملة صليبية الى الأراضى المقدسة تفتح القدس وتستعيد قبر السيد المسيح من أيدي من يكفرون به :

- ولكن المسلمين لا يكفرون بالمسيح يا سيدي القس !

كانت العبارة قد أفلتت منه بلا تفكير ولم يكن بالامكان سحبها . حدجه الأب ميجيل بنظرة صارمة وقال بحسم :

- بل يكفرون به !

قام القس ميجيل وكان ذلك إيذانا بانتهائه من الكتابة واستعداده للنوم فقفز نعيم واقفا وقال :

- شكرا يا سيدي على سماحك لى بالجلوس هنا . أمل ألا أكون قد أزعجتك بأسئلتى ... طابت ليلتك .

لم يكن هناك بد من أن يعود نعيم إلى حجرته ويستلقى وحيدا على فراشه فيغلبه النوم وتداهمه ، كما فى كل ليلة . الكوابيس .

وصل الأخوان عمر وعبد الكريم قادمين من بالينسية للاتفاق على تفاصيل إدارة الخان واستضافتهما حسن في بيته وأكرم وفادتهما لأنهما غريبان قادمان من خارج غرناطة ولأنهما راقا له. أعجبه سلوكهما الواثق وحديثهما العارف وشيء ما التقطه وإن لم يع كنهه تماما، شيء لم يتح له رؤيته في رجال غرناطة من أبناء العرب. هل هو الثراء يضيف على صاحبه ثباتا أم هي القوة والنفوذ يمنحان الانسان ذلك الذي رآه فيهما وأعجبه ؟

كان الأخوان يقاربان حسن العمر. وكان عمر وهو الأصغر أكثر انطلاقا يتحدث بقوة وسلاسة ووضوح يدعو إلى الدهشة مادام الحديث في تفاصيل سياسية يفترض أن الحرص في الخوض فيها متوقع ومطلوب. ولكنه يتحدث بشجاعة كأن الهموم مقدور عليها أو كأن الهموم ليست هموما. كان له وجه مستدير ممتلئ، تميزه عينان واسعتان تنظران مباشرة إلى من يواجهه أو يتحدث معه وشارب ولحية صغيرة معتنى بهما. كان طويلا به امتلاء وإن لم يكن بدينا. يضيف عليه ثوبه الأنيق مهابة. أما أخوه فكان رغم تشابه ملامح الوجه يعطى انطبعا مغايرا. إذ كان هدوؤه وحديثه المحكوم وجمله القصيرة الواضحة

تكمل ماتوحي به هيئته ونظرة عينيه وملامحه من اعتداد وأهمية وتباعد. وكان برغم ذلك مهذبا ودودا .

أنصت الأخوان باهتمام إلى حسن وهو يحكى عن الأحوال فى غرناطة ثم قال عمر :
- فى بالينسية الأحوال أفضل فالنبلاء معنا والبلاط يمكن أن يكون معنا لو تصرفنا بحكمة. نبلاء أراجون هم الذين يقاومون التنصير والتهجير، وكان الملك فرديناند قد وعدهم مرارا بأنه لاتنصير إجباريا للعرب ولاترحيل لهم ولا قيود على تعاملاتهم مع نصارى المملكة، واضطر الامبراطور كارلوس الخامس حين تولى عرش أراجون بعد وفاة جده فرديناند إلى تجديد هذا العهد. والصراع قائم بين النبلاء من ناحية وديوان التحقيق من ناحية أخرى والبلاط يميل إلى النبلاء ولكنه يخشى سطوة ديوان التحقيق .

قال حسن وقد صعب عليه فهم ذلك الاختلاف بين النبلاء والكنيسة :
- لا أفهم كيف يدافع النبلاء عن مصالح العرب وقد مولوا الحروب ضدهم وقدموا لفرديناند وإيزابيلا أنفسهم ورجالهم لغزو غرناطة !؟

- إنهم لا يدافعون عن العرب يا أبا هشام بل عن مصالحهم ومصالح مملكة أراجون. أثرياء العرب قوة مالية تحتاج إليها المملكة. والأهم من ذلك أن غالبية أهلنا فى أراجون يعملون فى فلاحه إقطاعيات النبلاء ويفرض علينا جميعا أغنياء وفقراء ضرائب أكثر مما يفرض على

باقى أهل المملكة. فى هجرة العرب خراب الاقطاعيات
وفى تنصيرهم تقليص لما يحصل عليه النبلاء والدولة من
مال.

قال عبد الكريم :

- المثل عندنا فى بالينسية يقول : " مينتراس ماس
موروس ماس جاننسيا " : " كلما كثر العرب كثر المكسب !

قال حسن :

- ولكنهم لا يريدون لنا أن نبقى عربا ولا مسلمين !

أجابه عبد الكريم بحسم :

- هذا صحيح .. المصلحة تحكم كل شىء !

- ولكن السيد عمر قد أشار بالأمس إلى جماعة
"الاخوان" وثورة المدن والعصابات التى تحمل الصليب
وصيحة " الموت للعرب " وت خلف، أينما مرت بيارقها،
الجثث والبيوت المحروقة والأهالى المذعورين يطلبون
التعميد طلبا للحياة .

قال عبد الكريم :

- هؤلاء رعاع وسيقضى على حركتهم !

قال عمر :

- حتى أولئك الرعاع، الذين اتفق مع أخى أن حركتهم
لن تطول، لا يقصدوننا بالذات بل يقصدون النبلاء،
يضربون العرب لكى يوجعوا النبلاء الذين يحمون العرب

ويعتمدون عليهم في زراعة إقطاعياتهم. ليس ذلك هو المهم على أى حال، المهم هو كيف نستميل البلاط ونقنع رجالاته والامبراطور على رأسه أنه من صالح الدولة مراعاة العرب والابقاء عليهم .

سأل حسن وقد بدا له الأمر أقرب الى التمنى :

- وهل هذا ممكن ؟!
- ممكن جدا والمشكلة الوحيدة فى أولئك الذين يسمون أنفسهم بالمجاهدين .
- المجاهدين ؟

قال عبد الكريم :

- إنهم يفسدون كل شيء !
- كيف ؟!
- بسلوكهم الأخرق الذى لانفع له سوى زيادة الأمر تعقيدا !

أوضح عمر كلام أخيه :

- الهجوم على السواحل الأسبانية وتهريب المهاجرين من ناحية، وتعاون البعض مع فرنسا بحجة إضعاف سلطة الامبراطور تقوى الاتجاه القائل بأن عرب البلاد لا ولاء لهم للمملكة وأنه لا حل سوى تنصيرهم أو ترحيلهم . وهذا يجعل مهمتنا أصعب .

وكان هذا أغرب ما سمعه حسن من كلام. كان أهل غرناطة يخشون من إعلان تعاطفهم مع المجاهدين أو يعاونونهم سرا ويموهون موقفهم بإعلان الولاء ولكنه لم

يسمع أبدا أن مايقوم به المجاهدون ضار بمصالح العرب ...
أربكه رأي الأتخوين وأطال التفكير فيه حين اختلى بنفسه
فى الليل ثم قدر بعد تقلبيه وتأمله أن صديقيه قد يكونا
على حق لأنهما منتفذان تتيح لهما مكاتتهما الاتصال
بالنبلاء ورجالات البلاط أو من على صلة بهم .

قبل رحيلهما بيوم واحد قال عمر لحسن :
- اسمع يا أبنا هشام لقد جئنا إليك من بالينسية لنتفق
بشأن إدارة الخزان ولكن على ما يبدو أن علام الغيوب كان
قد قدر غير ذلك عرفتاك وأفناك ورأينا أهل بيتك فقلنا
لا أفضل من مصاهرة هذا الرجل الكريم، ما رأيك ؟

بوغت حسن الى حد السكوت فواصل عمر :
- بناتك يا أبنا هشام تبارك الخلاق ولى ولد ولأخى عبد
الكريم ولدان ... ماذا تقول ؟
- أقول على بركة الله !

امتدت الأيدي وقراوا الفتحة. وكان حسن بعد لحظة
المباغتة الأولى قد ملأه شعور بالرضا العظيم والحبور
فمن أين له بنسب هكذا كريم ... خلق و ثراء وعلم ونفوذ ؟!

سارع بالخبر السعيد الى مريمة ولكنها فاجأته إذ لم
تفرح بل على العكس من ذلك صرخت فى احتجاج غاضب :
- ما الذى جرى لك يا رجل تُغرب ثلاثا من بناتك فى بلاد
غير البلاد!
- اخفضى صوتك فالضيغان معنا فى البيت ولا يصح
أن يسمعا هذا الكلام !

- كيف أعطى بناتى لعائلة لانعرف عنها شيئا ؟
- إنها عائلة كبيرة، أصل وثروة ونفوذ، ما الذى تريدينه أكثر من ذلك ؟!

- أريد أن أطمئن على بناتى، وأريد أن يزرننى من حين لآخر وأريد أن أذهب إليهن إذا اقتضت الحاجة. حرام عليك يا رجل، والله حرام !

- اهدئى يا مريمة قليلا واسمعينى هذه الزيجة ستحمى بناتك شر الحاجة ثم أن أهل بالينسية لم يفرض عليهم التنصير . لن تضطر بناتك أن يسمين أبناءهن بغير أسمائهم ويعشن موزعات بين دين فى العلن وآخر فى السر .

أجابته بابتسامة ساخرة :

- لماذا لاتزوجهن من المغرب أو مصر أو الحجاز ؟
- لو جاءنى مغربى كريم يطلب ابنتى لأعطيته بلا تردد
- وأموت كمدا من بعد بناتى عنى !
- ليست بالينسية بعيدة إلى هذا الحد والبلدان يحكمهما إمبراطور واحد. والقانون الذى يحظر على عرب غرناطة السفر إلى غيرها من الممالك قد يتغير بعد عام أو عامين .

- يكفى أن تعطيهما واحدة ... لم تعطيهما ثلاثا ؟
- لقد قرأت الفاتحة وانتهى الأمر !

أدار لها ظهره وأغمض عينيه وراح فى النوم فزادها ذلك غضبا على غضب فقامت إلى سليمة تشكو إليها همها :

- سليمة ...
- ما بك يا مريمة ؟

- أخوك فقد عقله ... أقسم بالله العظيم أنه فقد عقله واختل ميزانه.
- أهدئى وقولى لى ماذا حدث ؟
- هذان الرجلان اللذان نزلا علينا كالقضاء .
- تقصدين الضيفين ؟
- هما بعينهما ليتهما لم ينزلا بدارنا ولا رأيناها .
- هل أساءا إلى حسن ؟
- طلبا ثلاثا من البنات لتزويجهن لأبنائهم .
- ويذهبن إلى بالينسية ؟
- نعم ويذهبن الى بالينسية !
- ولماذا وافق حسن قد يكون استملح الرجلين ولكن من أدراه أن أولادهم مليحون كأهلهم ؟
- فعلا من أدرانا، سأذهب الى حسن وأقول له ذلك !

هرولت مريمة إلى حسن، كان يغط فى نوم عميق، أيقظته :

- ما الذى أدراك أن الأولاد على خلق كأبويهما ؟ ألا يمكن أن يكونوا سيئين، بينهم السكير أو المعتوه أو شرس الطبع ؟ كيف أعطى ثلاثا من بناتى لأغراب لا أعرف عنهم شيئا يأخذونهم إلى بلاد بعيدة يشقون فيها ؟

وكان حسن يفرك عينيه وهو يسمع كلام مريمة ولا يحسن استيعابه وهو بعد بين اليقظة والنوم ولما كررت مريمة كلامها للمرة الثالثة فهم فقال بنبرة حازمة:

- أهدئى يا امرأة واتركينى أنام !

ورغم غضب مريمة واضطرابها فقد أثار الخبر فى

البنات الثلاث فرحا متوقدا : سيتزوجن ويسافرن الى
باليتسية ويقام لهن عرس هناك كتلك الأعراس البهيجة
التي لم تكن أم جعفر تعلم من وصفها لهن : الحمام والحناء
والترغلاويد والأهازيج ودق الدقوف. وبدا ذلك كله مدهشا
مشيرا كالأحلام التي تتحقق قبل أن يحلم بها الانسان.
وزال فرح البنات من حزن مريمة الذي امتزج بالسخط
والاشفاق على حالها. كانت تبكى عندما قبلتها رقية
كبرى بناتها وقالت :

- لماذا تبكين يا أمي ... سنكون معا، ثلاثتنا، نرعى
بعضنا البعض. ونأتنس بالحياة في بيت واحد، هذا أفضل
من أن نتزوج كل واحدة منا زوجا غريبا عن زوج الأخرى،
وتسكن بعيدا عنها، ولا ترى أختها الا في الأعياد والمواسم؟

تطلعت إليها مريمة بعينين دامعتين ولم تقل شيئا
ولكن الفكرة دارت في رأسها فهدأت بعض الشيء .
بعد شهر عاد عبد الكريم وعمر بصحبة أمهما
وزوجتيهما والشباب الثلاثة . وقال حسن حين اختلى
بزوجته في الليل :

- هل هدا بالك الآن يا أم هشام ؟
وكان يشير إلى ماتركه الشباب من انطباع طيب لدى
أفراد العائلة. الشكل الوسيم والسلوك الرزين، لا يتحدث
الواحد منهم إلا إذا دعى وحين يفعل ينم حديثه عن علمه
وتهذيبه .

ولم يكن حسن يعرف أن البنات الثلاث قد وقعن في
حب الشباب بمجرد رؤيتهم وقد راقبت لهن قدودهم
المنشوقة ووجوههم السمراء المنحوتة وعيونهم الكحلء

واعتناؤهم الكبير بحسن مظهرهم، ولكنه كان يعرف أن أمه وأخته وحتى مريمة لم يجدن في الشباب ما يعيب، وكانت مريمة قد بدأت تتوالج عن حدة رخصها وإن لم تتبدد مخاوفها .

وكانت نساء دار طاهر قد أتين محملات بالهدايا ومشاعر المحبة والود والتدليل لكنائنهن المقبلات. وبدا كل ذلك مدهشا حتى أن مريمة سمعت بنتيها الأصغر اللتين لا يزيد عمر أكبرهما عن العاشرة، تقول إحداهما للآخرى :

- ليت للعوسان أخين أصغر يطلباننا للزواج !
فأمسكت مريمة بيد مكنسة وضربت البننتين من كانت تقول ومن كانت تستمع، وقبل أن يعلو صوتهما بالبكاء رفعت مريمة العصا مرة أخرى مهددة بصوت خافت وصارم:

- ولا صوت ... في البيت ضيوف !

وفي هدوء وكتمان احتفل أهل البيت بتحنية العرائس وعقد قرانهن. ودعى الخلاء من الجيران والأصحاب إلى عرس ميزه طعام وفير وأهازيج خافتة لا تتجاوز أصدائها مدخل الحارة .

وكانت أم عبد الكريم، جدة الشباب، غير قادرة على فهم أو تقبل ذلك العرس العجيب الذي لا تذهب فيه النساء إلى الحمام يصاحبهن نقر الدفوف والأغاني المجلجلة، ولا يعلو فيه التكبير ساعة ذبح الخراف وتزيين واجهة الدار بطبع الأكف المغموسة في دم الذبائح .

ورغم اضطراب مريمة وامتعاض أم عبد الكريم كانت دار حسن تتوهج بالفرح وألفة الضيوف وتوقد الصغار الى أن بدأ التفكير والاعداد للسفر إلى بالينسية.

قبل السفر بيومين اثنين مرضت أم عبد الكريم. أصبحت بوجه ممتقع وعينين ذابلتين تلازمها القشعريرة والحمى. وكانت المسكينة لاتعود إلى فرشتها من بيت الخلاء حتى ترجع إليه ثانية تستفرغ مافى جوفها بالقىء والإسهال معا .

همست أم حسن فى أذن مريمة :

- أخشى أن تموت المرأة فى دارنا فيقولون بنات حسن لم يحملن إلينا خيرا ... هل كان ينقصنا ذلك ١٩ منذ رأيت هذه المرأة ووجهها العابس وقلبي متطير ... وجهها نحس !

كشفت سليمة على أم عبد الكريم وفحصت صدرها وبطنها وعينيها وحلقها ونبضها ولون أظافرها ثم قالت إن الأمر بسيط، قالت ذلك بحسم وثقة. وكان وجه أم عبد الكريم قد زاد شحوبا وكأنها على حافة قبرها. وكاد الدم يتجمد فى عروقها من شدة الفزع كلما لمست سليمة جزءا من بدنها. والحقيقة أنها منذ رأت سليمة توجست من هيئتها الغريبة وشعرها المشعث ونظرتها الشاردة وتأكدت مخاوفها بعد يومين من وصولها عندما مرت بحجرة سليمة وكان بابها مفتوحا فرأت القدور والنقوارير والقفف والكتب وشممت روائح غريبة فابتعدت عن المكان على عجل وهى تتمتم بآيات قرآنية

تحفظها من كل سوء. يقول المثل : " البنت لعمتها " ولم
نبتل ببنت واحدة بل بثلاث ، فما الداعى لهذا النسب ؟
هذا ما لم يستطع عقلها الإحاطة به. وهل خلت بالينسية
من البنات وألف واحدة وواحدة فيها تفوقهن جمالا
وحسبا وجاها ١٩

لم يكن باليد حيلة. سلمت أم عبد الكريم أمرها لله
وراحت تنتظر قضاءه. حتى مقاومتها لما تعطيه لها
سليمة من دواء لم تقدر على مواصلته لأن عمر وعبد
الكريم وزوجتيهما اجتمعوا عليها ولا موهها على سلوكها :
" هل يصح يا أم عبد الكريم بعد هذا العمر أن تتصرفي
كالأطفال ١٩ " أسلمت أمرها لله وأخذت الدواء. فى الأول
اعطتها سليمة مغلى قشر الرمان المخلوط بحصى البان.
وكانت تعرف تلك الوصفة فأخذتها وتوقف القىء
والإسهال ولكن شكوكها لم تتوقف. وعندما أتت سليمة
بمزيج جديد سألتها :
- ما هذا ؟

- دواء .

- أعرف أنه دواء ولكنى أسأل مما صنعتته ؟

لم تنتبه سليمة لشكوكها وظنت السؤال اهتماما
فجلست بجوارها وراحت تشرح لها :
- هذا مزيج يشفى أوجاع المعدة وهو غاية فى الجودة
صنعتته بنفسى. أخذت من خبث الحديد النقى مقدارا
وغمرته بالخل الجيد ثم بدلت السائل سبع مرات ثم
سحقته وأخذت منه قدرا أضفت إليه مسحوق القرنفل
والزنجبيل المعجون بالعسل ثم نقعته فى المسك والعنبر
وإن شاء الله بالشفاء .

ولم يلتقط عقل أم عبد الكريم سوى عبارة " خبيث الحديد " التى استقرت فى رأسها فرفضت أخذ الدواء رغم إلحاح سليمة ومريمة وكنتيها إلى أن جاء عبد الكريم وأرغمها إرغاماً على شربه ففعلت كأنما تجرع كأساً من السم .

ورغم أنها قامت معافاة بعد خمسة أيام وبدأت لكل أهل الدار أحسن حالا مما كانت عندما وصلت البيازين فقد كانت موقنة أنها شفيت لأن الله نصرها على تلك المرأة التى يسكنها عفريت أو جان ، واستمع الى دعائها المتصل ليل نهار بالألا يتركها وحدها فى محنتها .

وبشفاء أم عبد الكريم أمكن لدار طاهر أن يأخذوا البنات ويسافروا الى بالينسية مصحوبين بدعوات الأهل ودموع مريمة .

ترى ما الذى كان يشعر به سعد لو أن هاتفا أبلغه أن
سليمة حملت من صلبه نطفة نمت فى أحشائها وخرجت
الى النور طفلة تحمل اسم عائشة ؟ هل كان يرقص جذلا
للخبير أم يزيد الخبير من وضاءة السجن عليه ويطبق من
حوله الحصار أكثر ؟

حين قال لأهل دار حسن إنه ينوى العودة فى آخر
الصيف أو مطلع الخريف بدا له ذلك ممكنا بل ميسورا.
ولكن الأيام تخفى للمرء ما تخفى فإذا بالممكن مستحيل .

كان سعد موكلا بتسلم حمولة من البارود من بقعة
مهجورة على شاطئ البحر، تسلمها فى ستر الليل
وحملها على بغلته وسار بها فى الطرق المهجورة ما أمكن
وعبر القرى حين لم يكن من ذلك بد. وكلما دخل قرية
ادعى أنه يحمل حمولة قمح إلى أهل بلدته وليس سوى
مكارى مهمته التوصيل. ثم دخل القرية المنحوسة التى
كان مقدرا له فيها أن يلقي ملاقاه. قال بعض أهل القرية:
" نشترى القمح " . قال: " ليت بإمكانى البيع ... لا أملك
الحمولة بل أوصلها من باعة إلى شارين دفعوا ثمنها " . لم
يرتج سعد للنظرة فى عيون من سألوه فأسرع الخطو

راغبيا فى مفادرة القرية على عجل. وازداد توجسا وقد عرف أن الزاد فى القرية شحيح وأن أهلها ينقصهم الطحين. وكان عليه أن يكرر كلامه لأخرين عديدين يسألونه الشراء فيرد طلبهم. وكان يجر البقرة متعجلا يكاد يهرول حين انقض عليه عدد من الرجال طرحوه أرضا يقصدون أخذ ما يظنونونه قمحا. انتفض سعد واقفا وحاول إبعادهم ولكن الأيدي كانت قد فتحت الأجولة. وحين سمع صوتا يصيح " ولكنه ليس قمحا .. إنه بارود ! " أطلق سعد ساقيه للريح .

كان يركض فى طرق مكشوفة يعى عريها فيزداد وعيا بعريه فيها وقد تنشق الأرض فى أية لحظة عن كلاب قشتالية تعدو لا هثة وتنبح فى إثره فيندفع مروعا ويضطرم ركضه يطلب نجاة فى أرض تستر ولكنه عندما وصل إلى ستر الأشجار والسكك الغابية ظل يواصل عدوه كالممسوس حتى لم يعد يقوى على الاستمرار فتكوم على الأرض مقطع الأنفاس يصيح السمع تشوش دقات قلبه وشهيقه وزفيره الصمت الذى يترجأه. ولما طالت جلسته واطمأن بعض الشيء راح يفكر فى حمولة البارود التى ضاعت وضاع معها المال المدفوع فيها والأمل المعقود عليها فصار يدق رأسه فى جذع الشجرة التى جلس تحتها ويكرر بلا انقطاع " ما العمل الآن ؟ " فلا يجاوب سؤاله سوى اضطرام شعوره بالقهر والخيبة .

جلس بلا حراك فترة طالت أو قصرت لا يدري ولكنه أيقن بعد حين أنه لم يعد أمامه سوى البحث عن طريق للرجوع إلى زملائه .

ظل يمشى حتى وصل مشارف قرية لا يعرفها فاستبشر خيرا وقدر أن بإمكانه سؤال أهلها عن طريقه، وربما أيضا إيجاد مأوى يمضى فيه ليلته وشربة ماء وشيئا من الطعام. ولكنه اذ دخل القرية فاجأته جلبة غير معتادة وحركة مضطربة فزعة " ما الخبر ؟ " سأل سعد فعرف أن رجال " الإخوان " الجرمانيا المتمردين يقتربون من القرية وقد انتصر قائدهم فى بلدة مجاورة. كان عليه أن يغادر المكان فى الحال ولكن إلى أين ... وفى أى اتجاه يمشى ؟ وقف حائرا يخشى أن تحمله قدماه إلى القرية التى اكتشفوا فيها البارود معه أو إلى مكان يسيطر عليه رجال الجرمانيا الأكثر شراسة مع العرب من جنود السلطة .

سأل سعد شيخا منهمكا فى تنظيم الناس الذين كانوا يتحركون فى اتجاه القلعة ليحتموا بها فبين له الشيخ الشرق من الغرب والطريق الآمنة وتلك التى يسيطر عليها رجال " الإخوان " .

مشى سعد فى سكة تنحدر به إلى الوادى وتأخذه الى خارج القرية. وكان يرفع عينيه بين حين وآخر ويتطلع إلى طريق حلزونية صاعدة اندفع أهالى القرية إليها بعيالهم وشيء من الزاد قاصدين القلعة. كانت الطريق تلتف مكتظة بحشد بشرى يموج ويصعد بحذاء سور حجرى قديم .

فى شهور لاحقة كان سعد يستحضر تلك اللحظات كثيرا، لا يستحضر الركض المحموم ولا خطواته الحائرة فى

طرق جبلية يجهلها ويتوغل فيها خائفاً وجائعاً، ولا القبض عليه بعد ذلك بأربعة أيام بل كان يستحضر ذلك النهر البشري المتدفق بحذاء سور القلعة الحجري يصعد ثم يهبط. بعينه رآه يصعد ولم يره وهو يهبط مسلماً بل سمع الجنود القشتاليين الذين قبضوا عليه واقتادوه للمحقق يتحدثون عن ذلك فرأى بعيني خياله الأهالي ينحدرون من ذات الطريق يحملون المزق المبيضاء مستسلمين مستريعين يقصدون الكنيسة سعياً إلى قطرات التعميد والحياة .

هل يعيد الماضي نفسه ؟ يتساءل سعد كلما تأمل المشهد، يستحضره فلا يأتيه إلا مصحوباً بمشهد آخر فيه الثغرى ورجاله ومن بينهم أبوه وقد تمارسوا في قلعة مالقة يقاومون ويصمدون ثم يغلبهم عدوهم فيغلبون. كان الثغرى ورجاله مسلحين وقاوموا، وكان أهل القرية بلا حول ولا قوة سلاح، قرويون فلاحون لم تألف أيديهم سوى محاربتهم ومناجل الحصاد واستجاروا بأحجار قلعة عتيقة أجنارتهم ثم أرهقها القصف وأرهقهم فرفعوا المزق المبيضاء وغادروا. فهل يعيد الماضي نفسه أولاً يعيد ١٩

ولكن التأمل لا يدوم في حومة التعذيب وروع يُحيل الصور والأفكار إلى مزق وشذرات والبدن مجرح والروح كالطائر الذبيح تنتفض .

يحاصر كالمحققون المتسربلون بالأسود، تنفذ نظراتهم إلى روح روحك ويطلقون عليك أسئلتهم وآلات التعذيب، يشدون وثاقك إلى ذلك السلم الخشبي ويضخون الماء في

جوفك، الماء الذى يروى، ماء الله الزلال الذى تطلبه نفسك
حلالا، يدخلك نارا موقدة، تمتلىء، تنتفخ، تختنق،
تستعصى الصرخة ولكنها تلح فتطلع حشرجة كأنما هى
الروح تخرج فى عناء. يحدقون فيك، العيون مصممة،
والوجوه مصممة، وقلوبهم مدرعة فى الثياب السوداء.
الأسياخ المحمية تحرق باطن قدميك، والحجارة الساخنة
تلهب ظهرك وبطنك وعجزيك، والآلة الخشبية تختزل
جهنم فى دولا بها الضاغط يسحق عظامك فتخور كثور
ذبيح. والقلب فى بيت القلب يعتصر كأنما تقبضه يد
الموت ويموت. يحدقون فيك ولا يرف لهم جفن. يلقون بك
فى قبو وحدك لاتقدر حتى على البكاء، وعندما تقدر
تذرف الدمع الغزير ليس لأن البدن يوجع، ولكنك تبكى
على تلك المزق الأدمية التى تعرف أنها أنت، تبكى على
حالك وعلى هجر جبيب فى الزرقاء العالية تركك وحدك
تصطلى بنار لم يعد بها قومه الصالحين. وحدك فى
سجنك المظلم تحاصرك الوحشة ولا ضوء سوى ذؤابة
شمعة ذابلة يرتعش معها على الجدار طيف المحقق الذى
يلازمك وإن غاب، خيال يعظم خطه الصاعد على الجدار
مائلا يحدد ظل وطواط هائل ينشر سواده الملتصق بحجر
الجدار. وحدك فى سجنك لا يشاركك فيه سوى جرذان
تألفها لأنها حياة تذكرك بالحياة. وبعد شهور ينقلونك إلى
حيث يتبدد شئ من وحشة روحك. يصير لك رفاق
يسكنون معك فى قبو أيامك ولياليك. تألف القلوب
المحزونة، طاقة ضوء فى عتمة الجدار.

كانوا ثلاثة من الرجال، قس فرانسيسكانى احتفظ رغم
كبر سنه بعينين متوقدتين يعزز عمق زرقتهما حيوية

كموج البحر تموج. كان يطيل الحديث عن الفتى يسوع فقيرا وجميلا ومعذبا. يحكى عنه فى المهد صبيا. يحكى عن أمه مخلوعة القلب عليه تحمله الى مصر البعيدة، يحكى عن يفاعته جليليا يحمل رسالته فى أرض تحتضنه و تُنكره، ويحكى عن صليب موته وخلوده. يحكى ويفيض ويتناوب على زرقة عينيه اضطرام البحر وصفائه وينفتح القبو المعتم كأنما على شاطئ، مدى مفتوح تسرح فيه النوارس وطيور البحر ونسمة الرب تطيب الروح وتدفىء القلب.

لم يكن حديثه وجده هو الذى شدهم إليه بل شىء ما يفيض فى روحه يملأ حديثه وقلوبهم، يمنحهم مساحة من طمأنينة يسكنون فيها ويهدأون.

حتى أنطونيو سوليناس الشاب اللوثرى حاد الطباع الذى زاده التعذيب عنفا وتوترا والذى كان يتعارك بسبب وبلا سبب كان يجلس فى هدوء وسكينة وهو يستمع لأحاديث الأب خوان مارتين. كان أنطونيو سوليناس نحىلا كأنما قد من عود قصب، شاحب الوجه نادرا مايبتسم، يتعارك كل يوم تقريبا مع محمد بوصديق، صبى لم يخط شارببه بعد اتهمه المحققون بممارسة السحر الأسود و إتقان تعاويذ تسببت فى هلاك ماشية سيده الإقطاعى. كان للفتى عينان تتألقان بذكاء ماكر يزداد تألقهما وهو يكاد سوليناس ويسخر منه فيراه يشتعل بالغضب، اشتعالا ومحمد يضحك لأن ذلك بالضبط هو ما أراده ويعلو الشجار فيمسك كل منهما بتلابيب الآخر يحول بينهما الأب مارتين وسعد ... كان

بسعد يحب محمدا وتمتعه تعليقاته الساخرة وحسه الفكه
وتدهشه قوة روحه التى لم يحطمها التعذيب رغم صغر
سنه. كان يوبخه فى العلن على مكايده لسوليناس ثم
يهمس له فى السر: " لاتغضب يا محمد من لومى لك ...
ولكنى أردت أن أنهى المشاجرة! " فيضحك محمد بمكر
"أعرف أنك لم تقصد الإساءة لى ... ولكنى أسعد بمشاكسة
هذا الحمار ... إنه يظن أن دمه أزرق لأنه أسباني وقد
يكون دمه أزرق فعلا كتم الغباء عليه فحوله من الأحمر
الى الأزرق ... هل رأيت فى حياتك حمارا عنجهيا ! "
فيضحك سعد ويحمد الله أن سوليناس يجهل العربية
وإلا لدبت مشاجرة جديدة أشد من السابقة .

ورغم المناوشات اليومية بين أنطونيو سوليناس
ومحمد بوصديق فقد تألف أربعتهم وحكي كل منهم
حكايته فشاركه الآخرون فى التفاصيل التى تحزن القلب
والتفاصيل التى تفرحه. يحكون أحيانا ويضحكون أحيانا
وأحيانا تنهزم روحهم فينكمش الواحد منهم فى قبو داخل
القبو.

-- يشاركهم سعد فى كل ذلك ويحتمل أيامه ولياليه لأنهم
معه ولأن ذلك الصندوق العجيب فى الرأس قادر فى
ظلمة الحبس على منحه جواهره، تتألق تألقا وتضىء .
تأتيه وجوه أحبته حاضرة نابضة بالحياة كأنما هى الوجوه
فى تلك الصور المدهشة الملونة يعلم الله كيف بالضوء
والظلال والألوان الزاهية تستحضر وجوها آدمية تبدو
كأنها ستخرج من الاطار المثبت فى الحائط خلف ذلك
المحقق أوداك وتبادلك الكلام بالكلام وتبدد وحشة التحقيق

ووطاة نظرة المحقق الصارمة .

يأتيه وجه سليمة بسمركه ونحوه وعينيها الزرقاوين
تحتار إن كانتا تشعان جراءة عنيدة أم رهافة تستحي
فتدعى العناد. وشفقتين بهما امتلاء يُشتهي والرأس يكلله
شعر كثيف أجعد . فى السجن. رأى سعد سليمة أوضح مما
رأها فى أى وقت سابق . رأى وجهها وقدها وميلا بسيطا
فى قامتها حين تمشى كأنما تريد أن تسبق بجذعها
خطواتها: فى السجن سمع صوتها وهى تتحدث وهى
تضحك وهى تحتد وهى صامتة لا تقول شيئا. رأها طفلة
فى حياة أبى جعفر وصبية تشغل قلبه ولياليه وامرأة
تقبل عليه وتمنح ثم تعرض وتنفر بلا سبب مفهوم .

ورأى أبا جعفر كأنما لم يأخذه الموت منذ زمن، رآه
واضحا وكاملا بقامته المديدة وثوبه الضافى وابتسامة
رقيقة تكاد ترتسم على شفتيه ولكنها لا ترتسم وتترك
شيئا من روحها فى نظرة عينيه الحائرة بين رفق يفيض
به الفؤاد وعتب مر يلجم فيض القلب وعذوبته .

ويأتيه وجه صاحبه نعيم مضيئا متألقا كأن أشعة
الشمس تسقط عمودية عليه فتمنحه شيئا من وهجها
يراه فى عينيه العسليتين وشقرة شعره وركضه فى
الحركة والكلام وضحكاته الصاخبة .

فى وحشة سجنك ترى أحبابك أكثر لأن فى الوقت
متسعا ولأنهم يأتونك حديا عليك فى محنتك ويتركون لك
أن تتملى وجوههم ماشئت وإن طال تأملك .

كان سعد رغم ما تعرض له من تعذيب قد صان قلبه
فصانه لسانه وكان حريصا حتى وهو يحكى مع زملاء
سجنه، لايشير من قريب أو بعيد لما قد يؤخذ عليه . وجاء
الحكم مخففا اذ لم يثبت عليه سوى أنه غادر غرناطة
واختلط على غير المسموح به مع أهل قرى بالينسية.
برأته المحكمة من تهمة الهرطقة والمروق والارتداد عن
الكنيسة التي كان المحققون قد وجهوها اليه .

تمنى حسن وهو عائد من الخان إلى بيته أن تطول به الطريق. كان يومه ثقيلًا ومقبضًا يسد عليه منافذ الفضاء. استنشق الهواء البارد وتابع ندف الثلج وهى تتطاير بخفة لتستقر على رصيف حدره وأغصان الشجر. فى سكون الليل الساكن فى الأبيض سكنت نفسه شيئًا فشيئًا.

لم يكن يوما ذلك الذى ضاق به صدره فاختنق بل يوما ويوما ويوما ، قل ألف يوم كل يوم يقول تفرج فتزداد عن اليوم السابق تأزما وتعقيدا. دربته الأيام على التعلق بقشة الأمل وطاقة الضوء وإن كانت فى حجم ثقب إبرة. يتشبث بها متطلعا، يبيع الأوهام لنفسه قبل أن يبيعها لصاحبه ولأهل بيته، يقول " صبرا جميلا، والغد قادم ويختلف " وماياتى سوى العتمة والقاع المظلم للفريق. حين صدر القرار بتنصير أهل بالينسية أو رحيلهم بعد مصادرة أملاكهم بكت مريمة وأنبته بالكلام وعينيها . قالت : "بعث بناتى يا حسن. قلت: أزواجهن فى بالينسية البعيدة فيعشن معززات بدينهن وأرضهن ومال أزواجهن الوفير فما بقى لهن دين ولا أرض ولا مال وفير ! " أجابها موبخا أنها لاتفهم شيئا وأن النبلاء يثأصرون عرب

بالينسية ومن العرب أنفسهم الأثرياء المتنفيين الذين
حتمًا يصلون إلى البلاط ويعلقون القرار. وعندما
اجتاحت القلاقل بالينسية واشتعلت فيها نيران الغضب
والفتنة تكتم الخبر وأخفاه عن مريمة وصار يتقصى المزيد
من الأخبار من تجار جنوا ومن المكاريين المسافرين دوما
من هنا ومن هناك. أرسل لبناته خمس رسائل مكتوبة
فلم يصله سوى رسالة شفوية تقول " ليست الأحوال على
مايرام ولكننا جميعا مازلنا بخير. صار لك ستة أحفاد
فى أفضل صحة وعافية " نقل إلى مريمة وأمه وسليمة
خبر الأحفاد دون سواء. سألت مريمة " ما أسماؤهم ؟ "
فقال " لا أعرف " سألته أمه " هل أنجبت كل بنت اثنين
ام أنجبت اثنتان منهما ولم تنجب الثالثة بعد ؟ " قال
" لا أعرف " ، " ذكور أم إناث ؟ " لم يكن يعرف . لم تعلق
مريمة ولكنها أمضت ذلك اليوم والأيام التالية تبيكى .

ما الخطأ فى أن يتعلق الغريق بلوح خشب أو عود أو
قشة ؟ ما الجرم فى أن يصنع لنفسه قنديلًا مزججا
وملونا لكى يتحمل عتمة أيامه ؟ ما الخطيئة فى أن يتطلع
إلى يوم جديد آملا ومستبشرا ؟ استبشر خيرا يوم
تزينت غرناطة وتحلت وأضاءت قصور حمرائها لاستقبال
الامبراطور وراح ينتظر كغيره نتائج مقابله لوفد من
أشرف وجهائها العرب . رفعوا إليه مظالمهم وطالبوه
بالتحقيق فيها . حتى أمس كان ينتظر مؤتمنا بقنديله
متشبيثا بقششته ثم جاء اليوم وعلقوا المرسوم ودار
المنادون يذيعون على الملأ بنوده التى تجدد المحظورات
القديمة وتزيد عليها :

منع استخدام اللغة العربية والألقاب العربية والملابس العربية والحلى العربية وما بقى من حمامات عربية. وكافة الكتب تسلّم لتفحص ويعاد منها ما لاخطورة فيه. والولادة لا يشرف عليها قابلات من نساء العرب. وحمل السلاح ممنوع. وعلى الأهالى ترك أبواب الدور مفتوحة أيام الجمع والآحاد والمواسم والأعياد للتأكد من مراعاتهم لشعائر دون شعائر. وعلى الكبار الالتزام بكل طقوس دينهم الجديد أما الصغار فيُعالج جهلهم بإنشاء مدارس إرسالية تربّيهم على غير دين آبائهم . .

لم يكن حسن راغباً ولا قادراً على العودة إلى بيته فظل يمشى حتى شعر بأطرافه وأنفه تتجمد من شدة البرد. عرج على خان فى طريقه ودخل .

كان رواد الخان متجمعين فى قاعة مغلقة حول مندفاة تتقد النار فى أخشابها وتضفى على المكان وهجا ودفئا. كانوا يأكلون ويشربون ويثرثرون ويضحكون فى صخب . وكان فى القاعة ثلاث نساء تمسك كل منهن بدف تدق عليه وتغني وحدها حيناً ومع زميلتيها حيناً وحيناً مع الرواد.

جلس حسن مع رجال لايعرفهم وشاركهم الشراب. تعلق عيناها بواحدة من النساء الثلاث . كانت طويلة لا تخلو من امتلاء يكشف ثوبها عن نحرها وذراعيها وينسدل شعرها مموجاً وكثيفاً على كتفيها شبه العاريين. عندما اقتربت المرأة منه لاطفها بالكلام فتطلعت إليه بعينين واسعتين مكحولتين فقال لها إن عينيها أسرتان فضحكت ضحكة مجلجلة مال لها طرباً. حين انتهت من

غنائها أفسح لها مكانا بجواره فجلست وتبادلا الشراب
والطعام ثم دعتة الى كهفها فتبعها مخلفا وراءه همومه
وتوجسه المعتاد ممن لا يعرفهم .

فى الكهف أتت له المرأة بمزيد من الشراب فشرب
وضحك حتى سالت دموعه. داعبته فداعبها بجرأة لم
يعهد لها فى نفسه. خلعت ملابسها ووقفت أمامه عارية .
كان جسدها فائرا وخصيبا. شفق مأخوذا ثم مدّ كفيه ومرّ
عليه ببطء من أعلى الكتفين حتى أسفل الساقين ثم
الصق وجهه به ومرّ بشفتيه منقبلا ومدغدغا. راحت المرأة
تموء كقطعة برية فزاده مواؤها شبقاً على شبق فأمالها
على الفرشة وغمرها بجسده وطاشت فيه نار الفعل
حارقة تعلو وتلتهب .

ولما خَبَت ناره ونارها لفهما السكون كأنهما خليفة
أولى فى مبتدى الزمان حيث لاصوت بعد ولاصدى، لا قديم
ولا جديد، لا ذكرى ولا ذاكرة. لا شىء سوى امتزاج
البرتقالى بالأخضر والفضة السائلة ماء أوسماء تتلامس
فيها الغيوم. سكبت واحدة ماءها وسواها ممتلىء ينذر
بالمزيد.

فى الصباح لم يتذكر كم مرة واقعها ... استيقظ فلم
يجد سوى رائحتها وبعض من ملابسها المتناثرة فى
المكان. ارتدى ملابسه على عجل وخرج إلى الطريق .

تسلل إلى البيت تسلا وحين لمحت أمه هرولت إليه
تسأله عن سبب غيابه. كانت شاحبة الوجه ملتتهبة

العينين قالت:

- قلنا ألم به سوء ... وخرجت مريمة منذ مطلع الشمس
تسأل عنك في بيوت أصحابك .

صاح فيها ووبخها فأتت سليمة وقالت بصرامة:

- لم يصيبك مكروه، الحمد لله. عندما تنوى قضاء
ليلتك خارج البيت اعلمنا حتى لا نقضى ليلتنا مؤرقين
خائفين ثم تصبّحنا بالصياح والتأنيب !

استحى من كلامها فلم يعلق ووضع رأسه تحت مضخة
الماء البارد ثم طلب من أمه أن تسخن له ماءً ليتحمم .

ما إن اطمأنت مريمة وسليمة على حسن حتى عادتا
للانهماك في ذلك الأمر الآخر الذي بدالهما أكثر إلحاحا
وأهمية. أما أم حسن فقد انشغلت لأيام وليال تالية
بأسباب غياب ابنها. كانت قد استفسرت منه عن أسباب
تأخره فلم يقدم لها إجابة شافية . فهل يكون قد تزوج على
امرأته ؟ وإن كان قد فعل ذلك فلماذا أخفى عنها وهي أمه
التي سوف تفهم وتقدر أنه ضاق ذرعا بهذه المريمة الكئيبة
التي تنغص عليه بحزنها الدائم على أمها وإخوتها
الفائبين ولومها المستمر له على تزويج بناته لغرباء
أخذوهن إلى حيث لا يمكنها رؤيتهن ؟

عندما كانت تشكو من مريمة وتظهر امتعاضها من
نواقصها كانت أم جعفر رحمها الله تقول " اصبري
يا زينب، مازالت البنت خضراء صغيرة، ستكبر وتتعلم "
فليتتها لم تكبر ولم تتعلم لتتدخل في كل صغيرة وكبيرة
وتعدل عليها وتقول الصغار يفضلون هذا الصنف من

الطعام وليس ذاك ويحيونه مطهيا بهذه الطريقة وليس بتلك حتى أقسمت أم حسن وقد فاض بها الكيل أن ترفع يدها تماما ولا تقرب المطبخ. وقالت لنفسها " لنر ما الذى تفعله بنت الطبيب ! " ولكنها اكتشفت بعد أسابيع أن ذلك بالضبط هو ماتريده مريمة، تريد إبعادها عن المطبخ والانفراد بالتحكم فيه وكأنها ورثته عن أبيها. وأيقنت أم حسن أن زوجة ابنها من ذلك النوع من النساء اللائى يوصفن بأن كيدهن عظيم. تراجعت بسرعة فى قرارها وعادت إلى المطبخ. لكى لا تتمكن منها ابنة الطبيب. ينصف حسن لو تزوج غيرها لأنه لم يوفق أصلا فى الزواج منها. ثم تنتبه أم حسن أنهم جميعا فى الأوراق متنصرون وأن حسن لا يملك الزواج من اثنتين وأن عليه أن يطلق واحدة ليتزوج سواها. وليس الطلاق سهلا وقد لا يكون ممكنا. مسكين حسن فلا امرأته تسعده ولا هو واجد طريقة لإسعاد نفسه .

قطعت مريمة على أم حسن خيط أفكارها إذ دخلت عليها تحمل قفة وقالت:

- أنظري يا أم حسن هذا السمك ... اشتريته هذا الصباح من السوق إنه طازج جدا وقد أقسم لى البائع أنه حمله من الشاطئء إلى السوق مباشرة .

تطلعت أم حسن فى القفة فرأت السمك فضيا موردا يلتمع التماعا . أمسكت بسمكة منها وفحصت عينيها وخياشيمها وأومات برأسها:

- لم يكذب البائع، إنه طازج .
قالت مريمة وهى تبتسم :

- الصفار وسليمة وحسن يقولون إنه لا أشهى من طريقتك فى صنع السمك ما رأيك هل تسويه لنا اليوم ؟
- ولم لا تسويه أنت ؟
- لأنهم يفضلونه على طريقتك !

تنهدت أم حسن وقامت متثاقلة لكى تعد السمك. تبعتها مريمة بالقفة إلى المطبخ. ثم أخبرتها أنها سوف تذهب مع سليمة إلى السوق.

- قد نتأخر قليلا فقد لانجد ما تريده سليمة لدى عطار واحد فنضطر إلى البحث لدى عطارين عديدين .

خرجت مريمة وسليمة من الدار وسارتا الى الساحة المتاخمة لكنيسة سان سلفادور حيث كانت العرببة والمكارى فى انتظارهما كما هو متفق . قالتا للمكارى صباح الخير فقال صباح النور ثم ركبتا وتحركت العرببة.

كان ما ينص عليه المرسوم من ضرورة تسليم كافة الكتب العربية لفحصها قد أفزع سليمة إذ كانت تعرف أن "فحص الكتب" يعنى مصادرتها وأن حسن سينصاع للقرارات الجديدة ولن تجدى محاولاتها إقناعه بغير ذلك .

- ما العمل يا مريمة ؟

- نخفى الكتب

- كيف ؟

- دعينى أفكر

فكرت مريمة يوما وليلة ثم وجدت حلا طرحته على سليمة : نذهب إلى عين الدمع وننقل الكتب من مكانها

وحين يصبر حسن على تسليمها تقولين له إنك بعتهما، لن
يصدقك، سيذهب إلى بيت عين الدمع فلا يجد شيئاً،
يستشيط غضباً ثم يهدأ.

- ولكن إلى أين ننقل الكتب ؟

- إلى هذه الدار ؟

- هنا، كيف !؟

كان لدى مريمة تصور متكامل عرضته على سليمة بدءاً
من شراء السمك وإلهاء أم حسن في إعداداته وانتهاءً
بإدخال الكتب إلى الدار دون إثارة الشكوك.

وصلتا إلى عين الدمع وحملتا الكتب في خمسة أجولة
وربطتا كل جوال منها ربطة محكمة ثم عاونهما المكارى
على نقلها إلى العربة. ركبتا وعادتا إلى بيت البيازين.

دخلت مريمة الدار أولاً ومرّت بالمطبخ. فوجدت أم حسن
تقف أمام كانون النار وقد وضعت عليه مقلاة كبيرة يقدح
الزيت فيها. كانت تستعد لقلى السمك. حيثها وتركتهما
مطمئنة ثم جمعت الصغار وأجلستهم في غرفة أم حسن
وطلبت من البنت الأكبر أن تحكى لهم حكاية وقالت " "
أحضرت لكم حلوى إن جلستم بهدوء واستمعتم للحكاية
تأكلون منها " ثم هرولت إلى مدخل الدار وتعاونت مع
المكارى وسليمة في حمل الأجولة. ذهب المكارى بعد أن
أعطته أجره ونقلت هي وسليمة الأجولة إلى غرفتها
جوالاً بعد جوال .

كانت مريمة قد أفرغت صندوقها من كل ما فيه.

فتحتة وفتحت الأجرة ثم تعاونت مع سليمة في صف
الكتب بعناية داخل الصندوق وعندما انتهيتا أنزلت
مريمة غطاءه وأقفلته بالمفتاح وقالت وهي تضحك :
- لو شك حسن في أننا نقلنا الكتب فلن يرد على
خاطره أبدا أنها مخبأة في هذا الصندوق الذي يراه صباح
مساء في غرفة نومه ... هل ارتحت الآن يا سليمة ؟

احتضنتها سليمة بقوة ولم تقل شيئا وكانت عيناها
مغرورتين بالدموع .

- قال نعيم للقس ميجيل :
- سيدى القس ما رأيك فى لغتى القشتالية ؟
 - ممتازة .
 - هل يبدو حين أتحدث بها أننى نشأت على لغة سواها ؟
 - إطلاقاً، لماذا تسأل ؟
 - إننى سريع فى تعلم لغة الآخرين ولقد أردت أن أعد لك مفاجأة تسرك ... لقد صرت أعرف كلمات كثيرة من لغة أهل البلاد، صار بإمكانى مثلاً أن أقول لشخص منهم جملة مفيدة وأن أفهم مايقوله لى إجابة على كلامى .
 - هذه فعلاً مفاجأة .
 - أتعرف يا سيدى لماذا أريد أن أتعلم هذه اللغة ؟ أريد أن أساعدك !
 - تساعدنى ؟
 - نعم أساعدك فلو توفر لك ترجمان ينقل لك أفكار بعض أهل البلاد تصبح مهمتك فى الكتابة عنهم أسهل، أليس كذلك ؟
- تطلع الأب ميجيل إلى نعيم الذى أربكته النظرة وكأنها ستنفذ إلى داخله وتكشف سره .

- ولكن تعلمك اللغة يحتاج إلى فترة طويلة قد نعود قبل انتهائها إلى قشتالة وقد انتهيت من كتابي .
- أبدا ياسيدى لقد تعلمت فى أسابيع معدودة الكثير من لغة أهل البلاد وبإمكانى فى شهرين أو ثلاثة إتقان اللغة ولكننى فقط أحتاج ...

كان قد حان وقت السؤال الواضح .. ماذا لو رفض القس ؟

- ما الذى تحتاج إليه .. معلما ؟
- قالها الأب ميجيل وهو يضطخك فجأوبه نعيم بالضحك لان ذلك كان يبده شيئا من توتره .
- كل ما أحتاج إليه يا سيدى هو أن أتحدث أكثر مع أهل البلد .

- وما الذى يمنعك من ذلك ؟
- لا شيء يمنعنى ولكننى أتحدث بشكل عابر وأنا أمر بهذه المجموعة أو تلك من العبيد وهم منهكون فى العمل. ولكن لو أتيح لى أن أجالسهم أحيانا، أن أذهب إليهم فى أكواخهم وأجلس معهم ساعة أو ساعتين كل يوم أقسم لك ياسيدى القس أن باستطاعتى أن أتعلم اللغة فى فترة قصيرة للغاية فأنقل لك ما تحتاجه عن أفكارهم وحكاياتهم ومعنى الأغانى التى يغنونها .

صمت الأب ميجيل لحظات وكأنه يتأمل الأمر

- تريد أن تتغيب عن البيت ساعة أو ساعتين كل يوم ؟
- لا تقلق ياسيدى حين أتغيب تكون كل حاجاتك جاهزة فلا تفتقد غيابى ولكن
- ماذا ؟

- لو عرفت حاكم المنطقة أننى أذهب لتعلم اللغة لأن هذا يفيدك فى كتابك فلن يظن أحد من جنوده أننى أتردد على الأكواخ بلاسبب مفهوم .

- فعلا من الأحكم أن نفعل ذلك، حين ألتقى بالحاكم غدا أخبره بذلك.

- تأكد ياسيدى القس أننى سأعمل بجد حتى أتقن اللغة فى أسرع وقت .

ما إن خرج نعيم من حجرة القس حتى أخذ يتراقص طربا فقد حصل على ما أراد به بالضبط. وسوف يراها كل يوم وسوف يذهب إليها فى كوخها وقد تأخذه الى أهلها فى الداخل ومن يدرى لعل الله يقدر أن ...

كان نعيم قد التقى بها قبل أسبوعين . كان يتحمم فى جدول خلف الدار فاذا بها تمر بالقرب منه. استحي من عريه وغمر نفسه فى الماء. ثم عاد وأطل برأسه، وجدها واقفة تتطلع اليه . كانت لها قسمات منحوتة واضحة، وجه أسمر يميل إلى استدارة وجبين واسع وعينان سوداوان تميزهما سحبة فى الجانبين ملحوظة وأنف كبير وشفتان ممتلئتان وشعر أملس طويل يلتمع سواده التماعا فى ضوء الشمس. ظل نعيم فى الماء حتى رآها تمضى فقفز منه على عجل وارتدى ثيابه فاذا بها تظهر مرة ثانية. لم تكن صبية بل امرأة، ربما فى الثلاثين من عمرها، خصيبة البدن، فى ثدييها امتلاء، عريضة الأكتاف والأرداف. غض نعيم الطرف وتشاغل بالتحديق فى السماء ولكنه كان يعى أنها تنظر إليه فيشتعل وجهه حياء . نظر ودارى حياءه بالابتسام فابتسمت. أشار الى

صدره وقال " نعيم " كررها عدة مرات ثم أشار إليها بسبابته مستفهما عن اسمها . قالت "مايا " فراح نعيم يكرر اسمها وهو يشير إليها واسمه وهو يشير لنفسه ثم ضحك فضحكت وأشرق وجهها بعذوبة ترد الروح، من أين أتت المرأة بكل هذه العذوبة ؟ فكر نعيم أن يعطيها هدية ما ... فتش في جيبه لم يجد شيئا. أشار لها أن تبقى مكانها ثم حرك كفه ليفهمها أنه سيذهب ويعود . ركض الى البيت وأتى بإحدى كعكتين خبزهما في الصباح وعاد راكضا. وجدها حيث تركها كانت قد جلست على حافة الجدول. جلس بجوارها ووضع الكعكة أمامها ودعاها للأكل. لم تفهم كلامه فأخذ من الكعكة قطعة وأعطاهها لها في يدها وأخذ قطعة لنفسه وقضم منها ففعلت مثله. أكلا معا ولم يتبادلا سوى اسميهما والابتسام. وعندما قامت لتذهب أراد نعيم أن يضمها إليه ولكنه لم يجرؤ، مد يده على استحياء وربت على رأسها ومضت وظل يتطلع إليها وهي تسير متهادية يرتجج جسدها الخصب الممتلئ ارتجاجا يسيرا .

في اليوم التالي التقيا عند الجدول في نفس المكان والساعة وكان نعيم قد وفر وجبته لكى يأكلا معا، جلسا وأكلا. قالت "نعيم" قال "مايا" أشار الى الشجرة وقال "شجرة" فكررتها وراءه ثم علمته اسمها بلغتها. رجع الى البيت جذلا بحصيلة عشر كلمات من لغتها ورنة صوتها في أذنيه ووقع ضحكتها في نفسه وقبله سريعة حية طبعها على خدها الأسيل يشتعل بدنه كلما استعادها في مخيلته .

فى اليوم الثالث لم تأت مايا. انتظرها وهو يُمْنى نفسه بظهورها ... تأخرت ولكنها ستأتى ... لا بد أن تأتى ... لا يعقل ألا تأتى ... ولما طال انتظاره ولم تظهر عاد الى البيت خائبا وحزينا لا يجد من سبيل لتهدئة نفسه والتخفيف عنها سوى انتظار الغد "لعل وعسى" ومرت الساعات ثقيلة وبطيئة من مساء إلى ليل ومن ليل الى نهار ومن الصبح حتى الظهيرة. ركض الى الجدول وأخذ يروح ويجىء ويقف ويتطلع حتى إذا رآها قادمة من بعيد ركض نحوها وهو يصيح باسمها وعندما اقترب منها افصح لها عن قلقه "أين كنت ... كدت أموت كمدا لمجرد التفكير أننى قد لا أراك ثانية ... أفزعنى اختفاؤك يا مايا .. لماذا ... " انتبه نعيم أنه كان يتحدث بالعربية وأنها كانت تتطلع اليه وتبتسم متسائلة عما يقوله ففتح ذراعيه على اتساعهما وضمها إليه، ضمها بقوة واضطرام وأخذ يقبل رأسها وعنقها وكتفها ثم التقت الشفاه .

وبين الأشجار وارفة الأغصان على حافة الجدول أعطته المرأة نفسها، منحته ماتاقت له نفسه منذ الصبى المبكر ولم يطله. ما الذى فعلته به المرأة ؟ كان نعيم يصهل كمهر جموح زلزلت الأرض من تحته زلزالها فراح يركض، يدك الأرض وهى تهتز به وتميد فيضطرم عدوه وتشهق روحه وقد اجتمع عليها نصل السكين والرجفة الحية تنهل من كوثر الجنة وهى تشتعل مُحْرِقَةً بالنار .

حين انسل نعيم من داخلها بقى متشبثا بقربها ملتصقا بها ولم ينتبه أن الدموع كانت تفيض من عينيه إلا عندما أحس بها تمسحها بكفها وتقول له كلمات لم يفهم معناها .

مالت الشمس إلى غروب وذهبت ثم أضاء قمر الله
خيمته العالية ونعيم ساكن يمسك بيديها. سيقول القس
"أين كنت يا نعيم؟" "يلعن أبو القس! ويلعن أبوك يا سعد
فلم تقل لي أبدا أنني لم أعرف الدنيا ولم أدخل حياة"
"يلعن أبوك يا سعد!" سمع نفسه يقولها فضحك من
نفسه، ضحكت مايا. تطلع إليها نعيم وقفز وقال :
- الآن سأقدم لك هدية .

لم تفهم، لايهم الآن ستفهم .

وفي ضوء القمر على حافة جدول يعكس بعض نوره
وفي حضرة مايا الجميلة بين النساء رفع نعيم ذراعيه
وحرك كتفيه ومال، مال يمنة ومال يسرة. شد قامته
وصفق بيديه ودق كعبيه كعبا وراء كعب وقفز عاليا كأنما
يفلت من قانون الأرض ثم نزل مقرفصا وحرك فخذيه
مرات متتالية ثم قفز واقفا وراح يصفق ويميل ويلف
ويدور ويعلو ويهبط ثم مال على مايا المكدقة فيه ولف
ذراعيه حول خصرها دار بها دار حتى دارت بهما الدنيا
فسقطا على الأرض وضحكا وظلا يضحكان حتى مالت
عليه مايا و قبلته قبلة طويلة على فمه .

لم يكن بإمكان نعيم أن يختلق للقس كل يوم حكاية
تفسر تغيبه في ساعة معينة، لم يسعفه خياله بحكايات
كلها مقنعة لاتثير ذرة من الشك. ثم أنه لم يعد يكتفى
بساعة واحدة يلتقيان فيها فما الذي تكفيه ساعة هل
يبادلها الحب أم يتعلم منها لغتها أم يعلمها لغته أم يحكى
لها أقل القليل بالكثير من الاشارات ومفردات معدودة

هى كل حصيلته من لغتها. لويكرمه الله فينام فى الليل ويصحو فى الصباح وقد أصبح يتحدث لغتها بطلاقة ؟ كان يريد أن يحكى لها ألف شىء ويسمع منها ألف شىء، إنها امرأته فكيف لاتعرف أصله وفصله . هل يسر للأب ميجيل بحكايته ويطلب منه الإذن بالزواج منها ؟ الأب ميجيل طيب ولكنه قشتالى والقشتاليون لهم أطوارهم الغريبة التى تستعصى على الفهم، من الأفضل ألا يعلمه بشىء. سيتعلم لغتها ويذهب الى أبيها ويقول له بلسانه " ياعمى " كما يليق ويحكى له حكايته ويفهمه أنه ليس من أولئك القشتاليين الذين يقتلون أهل بلاده وينتهكون أعراض النساء بلا رحمة. سيحبه أبوها ويضمه إلى أسرته وقد يتعلم منه العربية لأنهم سيصيرون أهلا ومن يدرى لعل الله يقدر أن تعود معه مايا إلى غرناطة. رحمك الله يا أم جعفر لو أن الله أطال عمرك لجئت بك بكنة لم تحلم بمثلها قط . كنت ستقولين لها : " شكل غريب ولسان أغرب " فأقول لك : " ولكنها مليحة يا أم جعفر، طيبة وحلوة " .

قال الأب ميجيل :

- ما الذى دهاك يا نعيم ؟
- ما الذى بدر منى يا سيدى ؟
- أراك ساهما وأحيانا تكلم نفسك وتواصل ذلك فلا تنتبه لدخولى عليك .
- هل أكلم نفسى يا سيدى القس ؟
- نعم سمعتك أكثر من مرة تفعل ذلك وأخشى أن يكون ذلك بسبب زيارتك المتكررة لأكواخ العبيد . فهوؤلاء الناس يمارسون السحر وقد يؤذونك بسحرهم .

- أقسم لك ياسيدى القس أنهم أناس طيبون جدا ويحبوننى. نعم إننى أتذكر الآن، هل سمعتنى أكلم نفسى باللغة العربية ؟ الحقيقة ياسيدى القس أننى أشتاق لغرناطة ولأصحابى الذين تركتهم فيها. أحيانا أجد نفسى أتحدث معهم. تعرف ياسيدى أنه لا يوجد فى كل هذه المنطقة سوى شخص واحد من أصل عربى هو ذلك النجار الذى يعمل فى الطرف الآخر من المستعمرة ولا التقى به سوى مرة كل عدة شهور. لا أجد من أتحدث معه بالعربية فأتحدث بها بصوت عال وأتوهم أنى أكلم أحد أصحابى فى غرناطة .

قال له القس بصرامة :

- لا بد أن تكف عن ذلك والا أصبت بالجنون. وأيضا لأن الشيطان قد يتسلل إليك فى تلك اللحظة ويحول حديثك إليه مادام الحديث ليس موجها إلى شخص حاضر أمامك. وإن تاقت نفسك لاستخدام العربية فاقرا فى كتاب الصلوات المترجم إلى اللغة العربية الذى أتيت لك به ... ألم تحضره معك ؟

تلعثم نعيم ثم أجاب :

- للأسف ياسيدى لم أحضره معى من غرناطة .

حدجه القس بنظرة لوم :

- هذا إهمال يا نعيم !

- أسف يا سيدى ... أعدك ألا أكلم نفسى بعد اليوم !

ولم يكن نعيم فى أحاديثه اليومية يكلم إلا مايا فقد كانت رغبته فى أن يحكى لها لا تحتل التأجيل حتى

يتقن أحدهما لغة الآخر. كان يحكى لها فى الليل وهو فى فراشه وفى النهار وهو يرتب الدار أو يعد الطعام أو يغسل ملابس القس. كان يحدثها بلا توقف عن كل شىء فى حياته منذ اللحظة التى مد له أبو جعفر يده وهو يسأله " ما اسمك يا ولد ؟ " إلى اللحظة التى مرت به وهو يتحمم فى الجدول فاستحى وغمر نفسه فى الماء .

أفهم نعيم مايا أنه يريد أن يتزوجها، ويريد أن يلتقى بأهلها ويطلب منهم ذلك فقالت له إن أهلها يسكنون بعيدا ولم يتيقن أنه فهم ما تقوله فسألها أكثر من مرة ولكن إجابتها لم تخالف مافهمه. بعد عناء يومين كاملين من الحديث المتقطع اتضح له الأمر. كانت قد أتت إلى تلك المنطقة برفقة زوجها الذى مات بعد ذلك فبقيت وحدها. وكان الذهاب إلى أهلها يقتضى الحصول على حصان أو المشى لأسابيع متصلة قد يتعرضان فيها لمشاكل مع القشتاليين. لو طلب من الأب ميجيل أن يعطيه حصانه فلا بد أن يحكى له الموضوع كله وقد يوافق وقد لا يوافق ... الأرجح أنه لن يوافق. لم يعد إذن من الأمر بد .

نظف نعيم الدار تنظيفا كاملا وغسل ملابس القس وانتظر حتى جفت وطواها بعناية وأعد طعاما يكفى القس ثلاثة أو أربعة أيام ثم خرج من الدار وجمع بعض الزهور البرية كون منها باقة وضعها فى إناء ملاء بالماء وزين به مكتب القس. ثم حمل نعيم القليل الذى يملكه ومصحفا

صغيرا وشيئا من زاد للطريق وقبعة من القش الملون كان
قد صنعها سرا لكي يقدمها الى الأب ميجيل هدية فى
أعياد الميلاد. سوف يعطيها لوالد عروسه اذ لا يصح أن
يدخل عليه بدون هدية .

قبل طلوع الفجر غادر نعيم البيت فى حذر وفك حصان
سيده واقتاده الى الجدول حيث كانت مايا فى انتظاره.
حملها معه على حصان سيده وانطلقا إلى أعماق الجزيرة .

بدا لحسن وهو مستدفىء فى فرشته أنه أفضل حالا
وقد مرت تلك الزوبعة التى أثارتها مريمة وعادت الأمور
بينهما إلى مجاريها . كان أهلها قد خرجوا من السجن
وقد ثبتت براءة أمها وحكم على أخوها بفرامة كبيرة لم
يكن بإمكانهم دفعها فصادر القشتاليون دار أبى ابراهيم .
واقترحت مريمة ساعتها أن تأتى أمها وأخوها للإقامة
معهم فقال لها حسن :

- لتأت أم ابراهيم لتقيم معنا على الرحب والسعة أما
أخواك فلا بد أن يجدا لهما مكانا آخر يقيمان فيه ففى
البيت أمى وأختى وليسا محارم لهما .

حدجته مريمة بنظرة فاحصة وقالت :

- قل ما عندك يا حسن ولا داعى لاختلاق الأسباب ،
لقد استضفت عمر وعبد الكريم أسابيع متصلة وهما
رجلان غريبان من بالينسية دون أن تربطنا بهما علاقة
قربة ولا نسب .

فتطلع إليها حسن فى ضيق ولم يقل شيئاً ولكنها ظلت
تتطلع إليه فقال :

- تعرفين السبب الآخر فما الداعى لقوله ... تريدين أن

تسمعيه إذن اسمعى . أخواك خرجا من السجن والعين
عليهما ولا أريد أن يكون لى أولاهل بيتى دخل فى أى
مشاكل من هذا النوع .

لم تقل مريمة شيئا ولم تعاود الحديث فى الموضوع ولا
الإشارة إليه ولكنها على مدى ثلاثة شهور كانت حادة
محتقنة تصيح فى الصغار بداع وبلا داع . تضرب هشاما
وتبكي مما لا يدعو الى بكاء . تلبى له احتياجاته فى المأكل
و الملبس ولكنها لا تسهب معه فى الحديث ولاتقبل اقترابه
منها فى الفراش .

تحلى بالصبر ومرت الأسابيع والشهور حتى هدأت .
فكر حسن وهو فى فراشه أن الله راض عليه وأن أحواله
وأحوال أسرته مستقرة فى زمان يعز فيه الاستقرار .
حتى سليمة وعنادها وما اختارته لنفسها من حياة غريبة
تسبب له القلق صارت تضى على داره فى البيازين
تقديرًا ومهابة . ففى يدها الشفاء وفى علاجها ما يطيب
البدن والروح . هكذا يقول الناس . ولأن سليمة ورثت عن
أبى جعفر نبلة وكرمه فما كانت ترد سائلا حتى إن لم
يملك إعطاءها مقابل تطبيبها له . وربما لذلك ، فكر حسن ،
فتح الله عليها فأنعقد عليها الناس من مالهم ، حين
يتوافر المال ، ومن محبتهم وإعزازهم ، إن لم يتوافر أو
توافر . وهب الله سليمة الحكمة والمعرفة وحب الناس
وتلك الصغيرة أمل التى تملأ داره بهجة بضحكاتها
الرقراقة وحضورها الفطن . ما الذى تعطيه لى
اليوم يا أمل ؟ فتفتح الصغيرة ذراعيها وتحتضنه
بقوة وهى تقول :

" أحبك أكثر من الشمس والقمر وأمي. " فيضحك حسن حتى تترقرق عيناه بالدموع : " لوفقط يعود سعد بالسلامة لاكتمل هدوء البال فيزوج البنتين الباقيتين ويكبر هشام ويزوجه أمل ويرى أحفاده منهما ثم يمضى فى أمان الله .

كان حسن يقضى عدة ساعات كل يوم يتأمل حاله وحال أسرته أو هذا الأمر أو ذاك لأنه وإن قصد أن يأوى الى فراشه متأخرا يستيقظ مبكرا قبل طلوع الفجر بساعتين أو ثلاث وتكون مريمة مستغرقة فى النوم إلى جواره وكل أهل الدار نائمين باستثناء سليمة فلا يجد ما يفعله سوى البقاء مع أفكاره فينتظر طلوع النهار واستيقاظ من فى الدار .

أحيانا يثقل عليه الصبح فى الظلام فيشعل شمعة ويروح يتابع شعلتها الراجفة والظلام على السقف والجدران . وأحيانا يقوم إلى سليمة يدق بابها ويدخل . يجلس بهدوء مستأنسا بوجودها وبوجه اسبرنزا الوديع المستغرق فى النوم .

سأله سليمة :

- ما الذى يورقك يا حسن ؟

- لاشئ يا سليمة . يبدو أننى أكتفى بساعات قليلة من النوم .

- هل أنت متأكد ؟

استغرب سؤالها ولم يحر جوابا فسكت . رفعت سليمة رأسها عن الكتاب وقالت :

- هل تذكر يا حسن يوم ذهبنا أنا وأنت وسعد ونعيم
لمشاهدة موكب كريستوبال كولون .
- يوم تغيب نعيم فجأة ولم ندر أين ذهب ؟

راح حسن يستعيد شيئاً من تفاصيل ذلك اليوم
وظهرت على وجهه ابتسامة لم تكتمل تماماً فبدت ملامحه
موزعة بين حزن وابتسام .
- كنا صغاراً يا سليمة لم يدر بخاطرنا ما تخبئه لنا
الأيام .
- أحياناً أتساءل يا حسن كيف يعيش أحفادنا بعد مائة
عام مثلاً .

لم يكن حسن قد تأمل ذلك أبداً .
- الله أعلم لا أذهب أبعد من يوم فى المستقبل يغيد لنا
سعداً ونعيماً وأزواج الصغار وأرى أولادهم .

سكت لحظات ثم قرر أن يقول لسليمة ما أراد قوله منذ
شهور :
- هل تقبلين هشاماً زوجاً لأمل ؟

ضحكت سليمة بصوت عال جعل الصغيرة تتقلب فى
فراشها كأنها ستصحو ولكنها عاودت النوم . أربكته
ضحكتها فقال لها بنبرة لاتخلو من الضيق .
- لماذا تضحكين ؟

- لأن ابنتى عائشة فى الثالثة من عمرها وهشام لم
يبلغ التاسعة !
- فى طرفة عين تجدينها صبية فى العاشرة وهشام فتى
طولا و عرضا .

- هذا حديث سابق لأوانه يا حسن وعندما يأتى أوانه
نواجه مشكلة قرار القشتاليين بحظر زواج الاقارب .
- ليذهبوا إلى جهنم الحمراء ، لن أعطى أملا لرجل
غريب يأخذها من بيتى !

ابتسمت سليمة وهى تساير حسن وتشعر بأنها تشاركه
فى لعبة طريفة عناصرها من غيب ومستقبل بعيد .
- والاوراق الرسمية كيف نستخرجها ؟! وحين يأتىهم
صفار ألا يصبحون بحكم قانون قشتالة أطفالا غير
شرعيين ؟!

قال حسن بانزعاج كأنه يواجه مشكلة عليه حلها دون
تأجيل :
- سأجد مخرجا، سعد من مألقة وأمل تحمل اسمه .
سوف أنكر فى الاوراق أننى خالها وأنتك أمها !

ضحكت سليمة بصوت خافت هذه المرة مراعاة للبنت
النائمة وقالت بشيء من السخرية الهائلة :
- لم لا تقوم الآن وتعقد العقد فلا يبقى أمامنا سوى
الانتظار بضع سنين يبلغ فيها الولد وتبلغ البنت فنعلن
الفرح ؟!

لم يتقبل حسن مزاح أخته وقال متكدرا :
- ماذا دهاك يا سليمة ؟! أقسم برب الكعبة أننى أحب
ابنتك أكثر مما أحب هشاما وأكثر مما أحب بناتى حتى
اللاتى تزوجن فى بالينسية ويثقلنى شوقى إليهن ...
تصبحين على خير !

ترك حسن سليمة كي تأوى إلى فراشها كعادتها فى
الفجر وخرج ليوقظ مريمة لكي تعد له إفطاره قبل ذهابه
إلى الخان .

كان حسن يحب الذهاب إلى الخان والعمل فيه ولا يعكر
صفوه إلا أبو منصور بحدته وسرعة غضبه وانفلات
زمامه . لم يكن حسن فى حاجة إلى جهد حين طلب منه
العمل معه فى الخان ولكنه وجد الرجل بلا مشغلة ولا
مشغلة يقعد فى الدار ليناقر زوجته ويحتسى الخمر .
ويظل لعب كأسا بعد كأس حتى تثقل أنفاسه ويشتعل
وجهه فتتحول المناقرة إلى شجار يسمعه الجار وجار
الجار .

قال له حسن وهو يريه الحجرة الصغيرة التى فى
مدخل الخان :

- ما رأيك يا أبا منصور ... تجلس هنا بعيدا عن
الصخب . تسجل أسماء النزلاء وتتسلم منهم ما يريدون
إيداعه من الأمانات وتضعها بنفسك فى الصندوق وقبل
أن يغادروا تعيد لهم أماناتهم وتأخذ منهم المستحق عن
فترة اقامتهم ؟

فى الأسابيع الأولى بدا أن العمل مناسب تماما لأبى
منصور . انهمك فى عمله الجديد وكان مقبلا عليه وسعيدا
به ولم يكن يسرف فى الشرب . ولكنه بعد ذلك عاد يشرب
كثيرا حتى تلعب الخمر فى رأسه فيخرج إلى فناء الخان
يتصيد من يتشاجر معه . ويتأهب حسن لمنع المشاجرة أو
احتوائها وإن اضطرت الظروف للتغيب من الخان يوصى

العاملين فيه بإبقاء عيونهم مفتوحة على أبى منصور
تحسبا من وقوع مشكلة .

وكان العمل فى الخان مزدهرا خاصة فى شهور الصيف
حيث تشغل كل الحجرات ويزيد على النزلاء من يأتون
للقائهم للبيع أو الشراء أو الائتناس بالحديث .

كان من النزلاء العربى والأعجمى ، من جاء من القرى
القريبة من غرناطة لقضاء حاجة تقتضى بقاءه فى المدينة
بضعة أيام ومن قطع المسافات البعيدة قادمًا من أراجون
وبالينسية أو من مدن السواجل الايطالية ، تجار فى
الغالب يقصدون البيع والشراء . فى النهار ينجزون
مصالحهم وفى المساء يجلسون للتسامر والطعام والشراب
وفى الصيف يمتد السهر حتى أن العاملين فى الخان لا
يتمكنون من النوم إلا فى ساعة متأخرة من الليل.

كان حسن منهمكا فى محاسبة الطباخ حين سمع صياح
أبى منصور فقفز مهرولا إلى الفناء حيث وجدته رمادى
الوجه تتقد عيناه الحمران بال غضب . أحاط حسن كتفيه
بذراعه وقال وهو يحاول أن يحمله على السير باتجاه
حجرتة :

خير يا أبا منصور ما الذى حدث ؟

ولكن أبا منصور لم يتحرك من مكانه فقال حسن بحدة
محكومة :

- تعال معى ندخل الى حجرتك ونتحدث بهدوء فيما
أغضبك .

لم يعر أبو منصور حسن أى اهتمام وقال وهو يرفع
سيايته مشيرا الى احد الرواد :
- تتنصل من أهلك يا كلب !

كان الشاب الذى يشير إليه أبو منصور وسيما مسرفا
فى العناية بمظهره ، حذج أبا منصور بنظرة ازدراء ثم أدار
رأسه متأففا .

قال حسن وهو يدفع أبا منصور دفعا ليبتعد به عن
المكان :

- الله يرضى عليك تعالّ معى !
- هذا الولد ابن يس الوقاد ، أبوه رحمة الله عليه كان
يعمل وقادا فى حمامى . وأنا سمعته الآن بأذنى يتفاخر
بأنه قشتالى أبا عن جد وأن دمائه نقية . من أين تأتيك
الدماء النقية وكل ما فيك ينضح أنك لوطى يفعل فيك !

هب الشاب واقفا وقال لحسن بغضب :
- هل تترك هذا الرجل الخرف يهين الناس ؟ مادمت
صاحب الخان فعليك أن تضمن احترام نزلائك .
وقبل أن يفتح حسن فمه ليعتذر عما حدث كان أبو
منصور قد مد يديه ليمسك بتلابيب الشاب . قفز حسن
بينهما وصاح فى أبى منصور بصوت هادر غاضب :
- يا أبا منصور تصرف كالرجال وكفاك ما تفعله فى
نفسك وفى الناس !

ولكن أبا منصور كان كالثور الهائج يتفلت ليصل الى
الشاب وهو يكرر :

- نقاء الدم، هه يا ابن الحرام !

فما كان من حسن إلا أن جذبه بقوة ولكمه لكمة قوية أصابته فى بطنه وأسكته. ران الصمت للحظات ثم قال أبو منصور وهو يحدق فى حسن :

- حسن الذى حملته بين يدى وهو رضيع يضربنى . لا تقلق يا ابن يس الوقاد لست وحدك ابن الحرام !

كان الصوت الذى بدأ عاليا يرن فى فضاء الباحة قد انتهى خافتا وراجفا ثم استدار أبو منصور وسار بخطواته الوئيدة المترنحة قليلا وغادر الخان .

ورغم أن حسن اعتذر للنزىل وقبل كتفه وقال له إن أبا منصور رجل طاعن فى السن يسرف فى الشراب تصعب مؤاخذته على سلوكه إلا أنه حين أوى إلى فراشه فى الليل كاد يختنق ضيقا . لم يجروا أبدا على زجره أو الاساءة إليه فكيف يصيح فيه ويضربه أمام نزلاء الخان ؟

فى الصباح ذهب حسن إلى بيت أبى منصور وحاول أن يعتذر له ولكن أبا منصور أشاح بوجهه عنه . كان ممتقع الوجه ولم يتفوه سوى بجملة واحدة كررها مرتين . قال :

- اذهب يا حسن لا تثقل على ... يكفينى هم الزمان !

ذهب حسن ثم عاد لزيارته فى العيد الصغير والعيد الكبير وفى المرتين كان أبو منصور يطلب من امرأته أن تضيفه بالموجود من طعام أو شراب ولكنه يجلس صامتا كمن نسى الكلام .

لم يعد حسن لزيارته، قال حين يرجع سعد يصلح ما
بيننا ولكن أبا منصور لم ينتظر عودة سعد .

و حين سار حسن مع المشيعين لتوديع أبي منصور إلى
مثنواه الأخير بكى بحرقه جعلت من معه من الرجال
يقولون له :

- تماسك يا أبا هشام لا يصح أن تنتحب هكذا كالنساء !

كان سعد يعرف أن معاودته العمل مع زملائه المجاهدين قد أصبحت من المستحيلات .. فأى نفع أو فائدة ترجى من رجل يتحرك ببطء وجلا مستندا على عكازتين ؟ وكيف له أن يصعد إلى تلك القرية أو يهبط منها وهي معلقة فى أعالي الجبال والطرق إليها متعرجة ووعرة ؟ وإن وجدوا له موقعا آخر يقيم فيه لإنجاز مهام مختلفة فكيف يصح له ذلك وحكم المحكمة يقضى بأن العقوبة لا تنتهى بالإفراج عنه بعد ثلاث سنوات قضاها فى السجن بل تمتد الى تحديد إقامته فى غرناطة لا يغادر بيته إلا لحضور القداس أيام الأحاد وفى أعياد الميلاد والفصح ولا يكون خروجه بين الناس إلا مرتديا " السانبيتو " العباءة الصفراء ذات الشريط الأحمر التى تميز الخطاة .

لو ترك لسعد أن يختار مايفعله بعد خروجه من السجن لما اختار أن يذهب إلى غرناطة مباشرة فهل يعود إلى حسن وسليمة ويقول لهما إنفقا على طعامى وشرابى لأننى أصبحت بلا عمل ولا تسمح لى المحكمة بالخروج للعمل ؟ ثم أنه كان يرتجف خوفا من نظرة إشفاق فى العينين أو شهقة ارتياح تكتم ويفضحها اختلاج الشفتين ساعة يفتح الباب فيرى فى

صفحة الوجه صورته وعجزه وعكازتيه .

حين دق سعد الباب فتحت له أم حسن وهتفت باسمه
ثم قالت «سليمة وانتحيت!». كان اضطرابا ليس ماتوقعه
من اضطراب ، هل أصاب سليمة مكروه ؟

ملأه الروع فانعقد لسانه وتجمدت أطرافه ثم سأل
هامسا كأن الصوت مع الفزع راح. ولكن مريمة جاءت
تركض وهي تقول :
- يا ألف أهلا بسعد ... سليمة بخير خلّفت لك بنتا لا
أحلى ولا أبهى منها ... تعالى يا عائشة لتسلمى على
سعد أبيك .

حذق سعد فى طفلة فى الثالثة من عمرها وضاءة
الوجه كأمة لها ملامحها وعيناها الدعجاوان. كان يتطلع
مبهوتا كأنه يرى معجزة تستعصى على الفهم أو
التصديق. كانت فى سن اخته نفيسة تحمل اسم أمه
عائشة ولامحها تبعثهما أمام عينيه. كأن السنوات لم
تنقض أو سارت معاكسة للزمان الى الوراء .

- اسمها عائشة !؟
- اسمها عائشة وفى الأوراق اسبيرانزا وخالها لايناديها
الا "أمل" .
- أمل !؟

انحنى سعد بقدر ما تسمح له وقفته المستندة. إلى
العكازتين .

- تعالى يا عائشة ... تعالى يا حلوة ... تعالى .

ولكن الصغيرة خافت منه وانفجرت فى البكاء .

لم يغمض لسعد جفن طوال الليل بل ولم يتمكن من الرقاد فى فرشته . ظل جالسا يحدق فى الصغيرة حيناً وفيما تبقى من أشياء سليمة حيناً آخر . كان النهار قد انقضى والصغيرة نافرة منه . لم تعاود البكاء وإن ظلت واقفة تتطلع إليه واحتفظت بمسافة تراها مناسبة للركض هرباً لو حاول الاقتراب منها . ومع ذلك فقد بدت منشغلة بأمره لأنها كانت تتبعه عن بعد وتتطلع إليه . فى المساء أخذتها مريمة وحكت لها حكاية حتى أغفت بجوارها ثم حملتها إلى فراش أمها وقالت لسعد وهى تبتسم :
- لكى تنام بقربها يا سعد .

كانت الصغيرة مستغرقة تماماً فى النوم لا يبدو منها سوى وجهها المدور الوضاء تحيط بها حلقات شعرها الأسود مبللة بعرق يغطى جبينها . كان يتطلع إليها فيسمع دقات قلبه التى أنهكته كل تلك المستجدات . صارت لك ابنة ياسعد ، ليست نطفة فى بطن أمها تنمو يوماً بعد يوم ، وليست وليدة تتابع كيف ترضع وكيف تبكى وكيف تبتسم وكيف تدرج بخطواتها الأولى على الأرض وكيف تنطق أول كلمة مفردة وأول جملة . إنسان صغير كامل يعرف اسمه ويقول نعم ويقول لا هو ابنتك تلقاها أمام عينيك جاهزة مكتملة ... وكيف ؟! ولكنهم يقولون لك هذه عائشة ابنتك ثم يقولون ولكن زوجتك ليست هنا لأن رجال ديوان التحقيق جاءوا قبل أيام وأخذوها . لماذا وما الذى فعلته ؟

قالت مريمة: " فتشوا البيت، كل ركن وزاوية فيه فحصوه ونقبوا فيه كأن ابن حرام اصطنع من خياله فرية عن سلاح مخبوء أو كنز . قلبوا الدار يا سعد. ولم يخطر ببالى أنهم يقصدون سليمة فما شأن ديوان التحقيق بامرأة مثلها ولكنهم كانوا يقصدونها. فتشوا حجرتها أكثر مما فتشوا الدار كلها وكان أحدهم يمسك قلما ودفترًا ويسجل ما وجدوه من أعشاب وقوارير وكتب. ثم جمعوا الأشياء ووضعوها فى جوالين كبيرين وقيدوا سليمة وحملوها فى قفة، هل تصدق يا سعد أنهم حملوها فى قفة؟ كان هذا أغرب ما حدث وما زلت لا أفهم لماذا حملوها فى قفة. للحظات شككت أنهم مصابون فى عقولهم وقد جاءوا إليها هربا من البيمارستان ولكن حسن تأكد بعد ذلك أنهم من رجال ديوان التحقيق .

كان سعد وهو ينصت إلى مريمة يزداد توجسا وارتياعا فقد كان يتمنى أن تكون هناك تهمة ما توجهها المحكمة إلى سليمة أى تهمة إلا تهمة ممارسة السحر. ولكن حملها فى قفة. يعنى أنهم يخشون لمسها ويؤكد مخاوفه أنهم قبضوا عليها لتوجيه تلك التهمة إليها، تهمة التهم. يرتجف بدنه رجفة مفاجئة قصيرة ثم يتماسك ويضغط بأسنانه على شفته السفلى لئلا تؤخذ مريمة بكلمة لا التى تتفلى من فمه .

هل يفرح بالصغيرة أم يترك قلبه فى قبضة الحزن يعتصره وكيف يقدر على ذلك كله وقد غمرته كل هذه الأشياء فى يوم واحد؟ الآن يفهم ما نطق به وجه أم حسن حين دق الباب وفتحت. كانت تغرق فى موجة الخوف

العالية حين رآته فاستغاثت. اكتهل كثيرا أو قليلا،
بعكازتين أو بدونهما، كانت قد رآته وهو سعد زوج سليمة
فاستنجدت به. وهاهو يجلس بلا حول ولا قوة لايمك حتى
أن يفرح بالصغيرة دون أسى أو أن يرتاع على سليمة دون
وعى بوجود تلك الصغيرة التى تدغدغ قلبه وكأن الوجود
به فرح أو حنان .

ولم يكن سعد وهو جالس يتطلع الى طفلة النائمة
ويفكر فى زوجته الغائبة يسمع شيئا مما يدور بين حسن
ومريمة فى الحجرة المجاورة. كان الحوار على ما فيه من حدة
وغضب محكما إلى حد الهمس .

قال حسن مهموما :

- لا أدري ما الذى أفعله الآن ؟
- بشأن سليمة ؟
- لا، بشأن سعد .

قالت مريمة وقد بدا على وجهها شئ من توجس :

- ما الذى تقصده ؟
- لم يأتنا سعد خارجا من السجن بعد حكم من ديوان
فقط بل أتانا محددة إقامته عليه لبس السانينيتو .
- وما الذى يعنيه هذا ؟!
- يعنى أنه مراقب وعيون السلطات عليه وهذا يضع
الدار ومن فيها...
- يضع الدار ومن فيها فى وضع مشرف. كل أهل
البيازين يحترمون من يعاقبهم الديوان والعباءة
الصفراء تعلق الرأس وتنيف .

كانت مريمة محتشدة مستفزة تطل من عينيها بوارد العاصفة .

- أعرف هذا يا مريمة ولم أقل إننى لا أحترم سعدا ولكننى حرصت سنوات طويلة على المحافظة على أمان الدار.

قاطعته مريمة وقالت بنبرة لاتخلو من التهكم :
- أعرف أنك كنت شديد الحرص حتى أنك لم توافق على إقامة أمى وأخوتى معنا عندما صادرت المحكمة دارهم !

لم يعلق حسن على ما قالتة .. سكت لحظات ثم قال :
- أفكر أن أنقل له بصراحة رأيى فى الموضوع ... سعد مرهف وسيفهم وحده أن إقامته بعيدا أسلم . لن ينتظر حتى أقول له صراحة إننى أفضل ألا يقيم معنا .

حدقت فيه مريمة لحظات دون أن تقول شيئا ثم قامت فى هدوء وأحضرت المصحف ووضعتة تحت عيني حسن ووضعت يدها عليه وقالت :
- اسمع جيدا يا حسن، وانظر جيدا، ها هو كتاب الله وها أنا . أقسم عليه . أقسم بالله تعالى أنك-ياحسن لو تحدثت فى هذا الموضوع مع سعد أو صرحت أو ألحت لتركت أنا البيت قبله ولا أدخله أبدا ما حييت !

حملت المصحف وأعادته إلى مكانه ثم رفعت الغطاء عن فراشها وحملته وخرجت من الحجرة .

أحست أم حسن بمريمة وهى تستلقى بجوارها على

فرشتها فسألتها مستغربة :

- هل تنامين هنا ؟

- لا أدري ما الذى أكله حسن الليلة انه لا يكف عن الشخير بصوت عال ... نعم سأنام هنا !

* * *

حين تطلب عائشة أمها تبكى أم حسن أما مريمة فتنهمك فى مشاغلة البنت، تحكى لها حكاية أو تصطنع لها لعبة غريبة أو تنادى على هشام وتطلب منه أن يمشى على أربع ويصهل كالحصان وتقول لعائشة :

- هل تركبين هذا الحصان الصغير أم أركبه أنا ؟ !

تقول البنت :

- إنه حمار وليس حصانا !

وتضحك فتضحك مريمة فيفتاظ هشام ويقفز قائما على قدميه وهو يصيح محتدا :

- لست حمارا .

تنهره أمه وتأمره أن يعاود الانحناء ليركب ابنة عمته فيفعل على مضض ثم يثأر لنفسه قائلا :

- أبى يقول إن عائشة قدم السعد ولكنها منحوسة جاءت الى البيت فمرض أبوها وصار يمشى على عكازتين وأخذ ديوان التحقيق عمتى سليمة .

تزجره أمه مهددة بأنها " ستقطع خبره " إن سمعته يقول هذا الكلام ثانية ولكن الولد لا ينزجر ويكرره فتطعمه أمه ضربا مبرحا ثم تعود لمصالحته وتفهمه بهدوء أن عليه أن يكون لطيفا مع ابنة عمته لأنها ابنة عمته

ولأن أمها بعيدة عنها .

كان غياب سليمة يثير الاضطراب والحزن فى أهل البيت . تقول أم حسن دامعة العينين وهى تضرب كفا بكف : « ما باليد حيلة ! » تقولها وتكررها ويزيد الأسى وجهها المتهدل تهدلا ويقولها سعد وحسن دون صوت ، بنظرات العيون الضائعة كأنما غرقت فى بئر بلا قرار .

" لا بد من حيلة ... لا بد ... ولكن كيف ؟ " كان السؤال يشغل مريمة وإن لم تفصح عنه لأحد . بإمكانها على الأقل أن تعرف أخبار سليمة ، تهتمتها ، مدة سجنها ... لفت مريمة ودارت وطقست واستعلمت حتى استدلت على امرأة قشتالية يعمل زوجها كاتباً فى الديوان . تعرفت عليها فى السوق كأنما بالمصادفة وحدثتها بشكل عابر ومضت . بعد يومين أطالت الحديث قليلاً ثم ذهبت . ولما صارت المرأة تألفها وتألف كلامها الظريف صارت تطيل الوقوف معها فى السوق تسألها كيف تطبخ تلك الطبخة أو تفصل لها طريققتها هى فى صنع الفطائر . وبعد أسابيع من تعارفهما قالت لها مريمة :

- زوجى أطال الله عمره وأبقاه بألف صحة وعافية كريم معنى لا يضمن على بأى شئء لولا أخته التى لا تحببنى ولا تحب أولادى ولا تتمنى لنا أى خير . ولكن شكراً للرب الذى عاقبها على قلبها الحقود وكافأنى على قلبى الطيب . قبض عليها رجال ديوان التحقيق ، ولا أدرى لأى شر تسببت فيه .

- مادامت سيئة فلا بد أنها أتت أفعالا يعاقب عليها القانون .

- هذا هو ما يشغلنى ليتنى أعرف ما الذى فعلته بالضبط فأنقله لزوجى حتى يعرف أخته على حقيقتها ويتأكد أنه فى كل شجار دب بيننا كنت المظلومة وكانت الظالمة. طبعاً ستتخرج بعد التحقيق وتدعى أنهم أخطأوا فى القبض عليها ظناً أنها امرأة أخرى وتدعى الطهر والبراءة .

لم يبد على المرأة أنها اهتمت بهذا الجزء من الكلام سألت مريمة ان كانت ستشتري باذنجانا .
قالت مريمة وقد انفلتت منها زفرة :

- أشتري ... ولكن أخت زوجى تشغلنى، هل تعرفين من الأقرباء أو الجيران من يعمل فى الديوان ؟
- زوجى يعمل فى الديوان !

وقفت مريمة وبدأت مشدوهة وهى تقصد الابتسام بحبور :

- إننى محظوظة، أكيد أننى محظوظة ! إذن بإمكان زوجك أن يعرف لماذا قبضوا على سليمة. وحين أعرف أنقل الكلام لزوجى فلا يعود يصدق أخته أبدا بل يصدقنى أنا !

- سأسأله، ولكن ما رأيك فى هذا الزيتون ... هل تشتريين منه ؟

- لا تشتري سأتيك بأحسن منه فلزوجى عروق زيتون لا أشهى من ثمارها. حين تأتىنى بالأخبار أتيك بحملين من الزيتون .

فى لقائهما التالى توجست مريمة وانقبض قلبها حين

رأت وجه زوجة الكاتب يتهلل مستثارا عند السؤال عن
سليمة .

قالت المرأة :

- أتيت لك بأخبار قد تكافئني عليها بحمل شجرة
كاملة من الزيتون. قولى لزوجك إن اخته ساحرة تمارس
شرها على حياة الخلق الطيبين. لقد أعلمنى زوجى أنهم
يعذبونها عذابا شديدا لكى تعترف ولكنها لاتفعل وهذا
يؤكد أن الشيطان يتلبسها ويعاونها.

امتنع وجه مريمة وزاغت عيناها ودار رأسها حتى بدا
لها أنها ستسقط مغشيا عليها .

- ماذا جرى هل أسفت عليها ؟!

تلعثمت مريمة ثم قالت وهى تطلق من صدرها زفرة
مسموعة :

- أبدا أصابنى الهلع ... كان بإمكانها إذن أن تدس السم
لى ولأولادى ! ولكن ...

- ولكن ماذا ؟

- لا أظن أنها ساحرة ... أنا متأكدة أنها ليست ساحرة
لقد عشت معها سنوات ولم أرها أبدا تخرج من البيت
فى الليل. قولى لزوجك إنهم مخطئون ... قولى لزوجك
إن على الديوان أن يعرف تهمتها الحقيقية ... ربما سرقت
شيئا ليس لها، أو كذبت على بعض الناس ... إنها كذابة
ولا تحب الانفسها ولكنها ليست ساحرة !

قالت المرأة القشتالية وهى تعلق ذراعها فى ..
ذراع مريمة :

- لا تكونى مسرفة فى طبيبتك قلت لى إنها سيئة معك
وها هوذا الرب يعاقبها فتلقى صنوف العذاب ... لاتشغلى
نفسك بأمرها تعالى نشترى ما نحتاج إليه .

اعتذرت مريمة عن المشى فى السوق متعللة بأنها
نسيت نقودها فى الدار .

- سأعود الى البيت .

- والزيتون ؟

- أى زيتون ؟

- الزيتون الذى وعدتنى به .

- سأحضره لك الأسبوع القادم .

كان على سليمة أن تدخل القاعة بظهرها وأن تمشى
بضع خطوات، على عكس البشر، إلى الورااء. ولم يكن ذلك
وحده ما لاقتته من عجائب منذ حملوها قبل يومين
الى المكان .

استدارت فرأتهم. وكان أربعتهم يحدقون فيها بعيون
فاحصة. ثلاثة منهم يجلسون متجاورين وراء المنضدة
الصقيلة السوداء، فى مواجهتها مباشرة، وعند الزاوية
بعيدا عنهم بعض الشيء رابعهم، دواته أمامه والأوراق،
والريشة مشرعة فى يده .

تنحنح الجالس فى الوسط وكان شيخا متفضن الوجه،
مال برأسه الى الخلف قليلا وضم يديه فرأت سليمة
الكلف البنى المتكاثر على ظهر يديه العاجيتين. تنحنح
مرة ثانية فغمس الكاتب ريشته فى الدواة ثم بدأ يكتب
مايمليه الشيخ .

"باسم الرب، آمين .

إنه فى عام سبعة وعشرين وخمسمائة وألف من ميلاد
السيد المسيح، فى يوم الخامس عشر من شهر مايو

وبحضورنا نحن أنطونيو أجابيدا القاضي بديوان التحقيق وكل من ألونسو ماديروا وميجيل أجيلار المحققين فى الديوان بدأ التحقيق فيما شاع ونمى إلى علمنا من أن جلوريا ألفاريز واسمها القديم سليلة بنت جعفر تمارس السحر الأسود وتقتنى فى بيتها مايدعو إلى الشبهة من بذور ونباتات وتراكيب تستخدمها فى إيذاء الناس وأنها...

كانت سليلة تنصت بتركيز شديد لكى لا يفوتها فهم أى من الكلمات القشتالية وتسمع رغم ذلك صرير ريشة الكاتب وهى ترسم مايملى عليه من كلمات على الأوراق .

" ولقد اقترفت بممارساتها تلك ما يهدد الكنيسة الكاثوليكية وأمن الدولة ."

أشار لها القاضي بسبابته أن تقترب وضيق عينيه فكادتاً تختفيان تحت جفنيه المنتفخين. اقتربت فطلب منها أن تلمس الكتاب المقدس الموضوع أمامه وتقسم على أن تقول الحقيقة كاملة فيما يخصها ويخص الآخرين ففعلت .

واصل الإملاء والكاتب التدوين " وبعد أن أقسمت المتهمة على الأناجيل الأربعة وجهنا إليها الأسئلة التالية:

- اسمك ؟
- جلوريا ألفاريز بعد التعميد وسليلة بنت جعفر قبله.
- محل الإقامة ؟
- البيازين .

- اسم والديك وهل هما على قيد الحياة ؟
- والدى جعفر بن أبى جعفر الوراق توفى قبل دخول القشتاليين غرناطة والدتى أم حسن قبل التعميد وماريا بلانكا بعده، وهى على قيد الحياة .
- هل سبق أن حوكم أى من أقاربك لممارسته السحر ؟
- لا .
- متزوجة ؟
- نعم .
- اسم زوجك ؟
- كارلوس مانويل بعد التعميد وسعد الملقى قبله .
- وأين زوجك ؟
- لا أدرى .
- ما الذى تعنيه ؟
- اختلفنا فغضب منى وترك البيت لا أدرى إلى أين .

تبادل المحققون الثلاثة نظرات لم تفهم سليمة دلالتها وإن كانت تيقنت أنها لم توفق فى الإجابة. ازدردت لعابها وأخذت نفسا عميقا انحبس برهة فى صدرها ثم خرج ببطء :

- متى ترك زوجك البيت ؟
- منذ سنوات .
- كم سنة بالضبط ؟
- منذ حوالى ست سنوات .
- هل لك أولاد ؟
- نعم .
- كم ؟
- طفلة واحدة .

- ما اسمها وعمرها ؟
 - اسمها إسبيرانزا وهى فى الثالثة من عمرها .
 - ألم تقولى الآن إن زوجك هجرك منذ سنوات ست ؟
 - عاد مرة وتصافينا ثم سافر مرة أخرى .
- عاد المحققون لتبادل النظرة ذاتها وإن زاد عليها بريق متألق فى عينى المحقق الشاب الجالس إلى يمين القاضى وابتسامة ارتسمت على وجه الكاتب كشفت عن أسنانه الأمامية .
- هل تمارسين السحر ؟
 - لا أمارسه .
 - ما تفسيرك للمضبوطات التى كانت فى بيتك ؟
 - إنها بذور وأعشاب ومحاليل أصنع منها دواء لعلاج المرضى .
 - ومن علمك ذلك ؟
 - تعلمته وحدى .
 - وحدك أم من الكتب ؟
 - سكنت سليمة لحظة ثم قالت:
 - من أين لى بالكتب ... أنا لا أقرأ القشتالية والكتب العربية ممنوعة بنص القانون .
 - والكتب التى وجدناها فى حوزتك ؟
 - ليست لى ولا لأحد من أهل الدار، لأنملك كتباً ولا نقتنى كتباً .
 - إذن فانت تعترفين بممارسة السحر وأن الشيطان هو الذى علمك صنع ذلك الذى تسمينه دواء ؟
 - لم أقل ذلك .
 - ألا تعتقدين بأن هناك سحراً وساحرات بإمكانهن إشارة

الزوابع أو قتل الماشية أو إيذاء البشر بزرع الأمراض فى أجسادهم وإهلاكهم .

- أعتقد أن كل هذه الأشياء أقصد الزوابع وموت الماشية أو البشر لها أسباب طبيعية قد نجهلها لأن المعرفة تنقصنا شخصيا أو عموما كبشر ... لا يا سيدى لا أعتقد فى وجود ساحرات .

- لماذا يكرهك الناس اذن ؟

- يكرهنى الناس !؟

- لماذا يكرهونك ويخافونك ويتحاشون أن يتحدثوا فيهم . قلت لشخص مرة: " لا تتحدث معى هكذا " وحدجته بنظرة جعلته يتلوى ألما طوال الليل. ووضعت يدي على بطن امرأة حبلى فماتت بعدها بيومين. واستدعتك امرأة لعلاج ابنها المريض فجعلت دمه يتدفق حتى غمر أرض الحجرة ثم مات .

- الواقعة الأولى لا أذكرها. يمكن أن يسئ إليك شخص أو يكلمك بغلظة فتقول له " لا تتحدث معى هكذا " ولكنى لا أذكر متى قلت ذلك ولمن، ومريضه فى تلك الليلة تحديدا مجرد مصادفة. الواقعة الثانية صحيحة لأن المرأة التى التقيت بها فى الطريق وهى نصرانية جديدة، أى عربية مثلى، قالت لى لا أدري لماذا لا يتحرك الصغير فى بطنى فوضعت يدي على بطنها فقدرت أن الوليد فى بيت الولد ميت فلم تكن هناك أية بوادر حركة رغم أن بطنها كان منتفخا يؤكد أنها فى الأسابيع الأخيرة لحملها، وكان تقديرى سليما إذ ماتت المرأة لأن الطفل الميت داخلها سمم جسمها فماتت .

أما الواقعة الثالثة فهي أيضا صحيحة. جاءتني امرأة قشتالية وهي تبكى وطلبت مني أن أذهب معها لأن ابنها الصغير مريض جدا ورغم اعتراض أخى على ذهابى إلى بيت أغراب لا تعرفهم رافقتها إلى دارها. وحين وصلت وجدت الولد نازفا ممتقع الوجه وأظافره زرقاء، كان يحسّضر. وقدرت أن النزيف فى امعاءه وأنه لم يعد بإمكانى عمل أى شىء لإنقاذه .

- اذن تعترفين بممارسة السحر ؟
- قلت إننى لا أومن بالسحر .
- ولا تؤمنين بالشیطان ؟
- سكنت سليمة ولم تحر جوابا فكرر القاضى سؤاله :
- لا تؤمنين بوجود الشيطان ؟
- لا أدرى .
- هل تؤمنين بوجود الشيطان ؟ أجيبى بنعم أو لا .

كان المحققون يحدقون فيها، القاضى من وراء جفنيه الثقيلين، والمحقق النحيل عن يساره بعينين لامعتين متوقدتين لا تفهم لماذا، والمحقق الشمعى الوجه عن يساره مصمت الملامح متحجر النظرات. وكان الكاتب أيضا قد رفع عينيه عن الأوراق وراح يراقبها باستمتاع.

قالت سليمة بصوت خافت :

- لا أعتقد أن للشيطان وجودا !

- قالت ذلك ثم عدلت كلامها بسرعة وقد لاحظت بريق تشف منتصر يتخلق فى عيون المحققين . قالت :
- نعم، أعتقد أن الشيطان موجود .
 - وتعبدينه ؟

هذا ما لم يخطر لها ببال .

- كيف أعبدته ؟!

- تعبدينه بديلا عن الرب !

- بالطبع لا .

- إذن ما تفسيرك لهذا ؟

أشعر القاضى فى وجهها ورقة بحجم الكف لم تتبين تفاصيلها. كان قد رفعها بزهو كأنها الدليل النهائى الدامغ على جرمها. وكان معاونا يهزان رأسيهما ويبتسمان استحسانا .

- ما هذا ؟

- اقتربى قليلا وحدقى فى هذه الورقة حدقى فيها جيدا.

حدقت كانت تحمل رسما لنعجة أو غزال. تأملته ثم تذكرت :

- هذا رسم، متواضع لأننى لا أتقن الرسم .

- إذن تعترفين ان هذا الرسم لك .

- كان عندى طبية و كنت أحبها كثيرا، وحاولت أن أرسمها .

ضحك القاضى، ضحك بصوت عال ثم انتقلت عدوى الضحك إلى زميليه ثم إلى الكاتب من بعدهما .

- هذا تيس وليس طبية !

- قلت يا سيدى القاضى إننى لست ماهرة فى الرسم .

- إنه التيس الذى تعاشرينه وتسرين فى الليل إليه .

- التيس الذى أعاشره !!؟

- نعم، التيس الذى صرفك عن زوجك وجعله يهجرك ...

إنه الشيطان الذى تعملين فى خدمته !
قالها القاضى وقد علا صوته واحتقن وجهه واندفعت
سبابته تشير اليها بالاتهام ومعه اندفع عنقه الى الامام
حاملا رأسه المضطرم بالغضب .

هل هو كابوس زجها فى لعبة عابثة يديرها معتوهون
غريبو الأطوار ؟ يتهمها القاضى بمعاشرة تيس ويؤاخذها
على قصاصة ورق لامعنى لها ولا أهمية . ومن جاءوا
للقبض عليها تصرفوا بما هو أعجب . حاول أحدهم العبث
بكتبها فمدت يدها لتمنعه فاذا به يقفز مرتاعا ويصيح
بأعلى صوته "لاتلمسينى ! " وكأنها حية أو عقربة فى
لمستها هلاكه . ثم يقيدونها كأنها ثور هائج ويضعونها فى
قفلة ! ليس الثور الهائج ما يحمل فى قفلة بل السخل
الصغير أو الدجاجة أو الأرنب . وهى سليمة بنت جعفر
حملوها من بيتها مقيدة فى قفلة ! تستحضر المشهد
فتضحك ضحكا كالبكاء ثم لا تضحك .

وقبل أن يدخلوها إلى أولئك المحققين الثلاثة جاءوا
بامرأة كالعملاق عظيمة الجرم صارمة الوجه قصت لها
شعرها وأمرتها بخلع ملابسها ، كل ملابسها ، حتى صارت
عارية كما ولدتها أمها ثم راحت المرأة تجوس بيديها تحت
إبطيها وبين فخذيهما وفى فتحات الأنف والفم والأذنين ،
والفرج والشرج ، باحثة عن ماذا ؟ ! هل هو عبث أو
جنون ؟ ! ثم يدفع القاضى بسبابته كأنه يقصد فقء عينيها
ويصرخ " التيس الذى تعاشرينه ! "

كانت سليمة وهى وحدها فى زنزانتها مرتاعة لأنها لم

تعد تفهم شيئاً، أى شيء. فى البداية بدا لها أنهم يقصدون سعدا ولكنها الآن وبعد التحقيق عرفت أنهم يقصدونها فلماذا ؟ قالت سيئتهم منى بالاحجام عن الذهاب الى القديس أيام الأحاد والأعياد ولكن القاضى لم يشر لشيء من ذلك. تحتاج لقدرة من صفاء الذهن لكى تفهم، تحتاج لقدرة من هدوء ولكن كيف يأتى الهدوء ومن أين والمهانة تلاحقها، والمرأة تلقى لها بخرقه من صوف عينتها لها ثوبا ثم تقودها إلى قاعة وتملى عليها الدخول فيها على خلاف سنة مخلوقات الله بظهرها ثم تقول:

" استديرى " فتستدير لترى المحققين الثلاثة بوجوههم الشمعية و قصبات أنوفهم المرتفعة و عيونهم المتفحصة تريد النفاذ الى روح روحها. ما الذى يريدونه منى ؟ تضطرب سليمة وتتوزع بين الارتياح والمرارة، تثور فى غضب لا يخمده سوى أن تنقض على المحققين والكاتب والمرأة الغريبة وتحطم رؤوسهم وتسحقهم سحقا ولكن المهانة، ما الذى يذهبها، لا شيء وقد وقعت وكان ما كان ... " التيس الذى تعاشرينه " تضحك أم تبكى أم تدق رأسها فى الجدار فتحطمه بدلا من تحطيم رؤوسهم التى لا تطولها، " التيس الذى تعاشرينه ! "

لم يدر بخاطر سليمة وهى فى التحقيق، غاضبة مزعزعة الأحشاء، أن قاضيا كان رجلا فاضلا ذا علم يقابل الحجة بالحجة فيلجم ميلا لدى معاونيه لاستشراس ومغالاة لا يرى لهما داعيا أو ضرورة .

جلسوا يتداولون كما يليق بعلماء تبحروا فى كتب الأقدمين وترسخت معارفهم بدقائق اللاهوت وتفاصيله .

وكان المحقق ألانسو ماديرا أصغر المحققين سنا يضطرم
بالغيرة على مقدسات العقيدة والرغبة فى صونها من كل
سوء. وكان يتحدث كعادته بصوت متقد بالحماس جهورى
فتضىء عيناه وتتبدد صرامة وجهه التحيل التى يؤكد
أنفه الأقنى وشفته الدقيقتان .

- علينا أن نقبض على الطفلة فهى تحمل نطفة الشيطان
وروحه . وكلام المتهمه واضح لالبس فيه. لقد رحل زوجها
منذ سنوات ست ووضعت هى الطفلة منذ ثلاث سنين.
إذن فالطفلة ثمرة الجماع بين المتهمه والشيطان الذى
جاءها على هيئة تيس .

ابتسم القاضى أجابيدا الذى كان صبوراً وحانياً مع
معاونيه فلم يكن يفوته أبداً أن حماسهم الذى يدفعهم إلى
التطرف أحياناً مرده إيمان راسخ ورغبة متقدة فى خدمة
العقيدة .

- يا عزيزى ألونسو الشيطان روح وليس جسداً وهو
غير قادر على إنتاج بذرة واحدة من بذور الحياة .
- ولكن يا سيدى القاضى الشيطان، كما هو معروف
ومثبت، يجول الأرض ويقطعها من أقصاها إلى أقصاها
لجمع البذور ومن بينها منى الانسان لكى ينتج مايريده
من ثمار. ولقد أكد القديس أوغسطين ذلك فى الجزء
الثالث من كتابه عن الثلاث حيث قال إن الشياطين
تجمع منى الانسان وتحفظه فى أجساد البشر. وفى شرحه
للإصحاح السابع من سفر الخروج كتب العلامة ولا فريد
سابو أن الشياطين تجوس الأرض وتجمع كل أنواع البذور
وتستطيع بإعمال قوتها أن تنتج مخلوقات متنوعة. كذلك

ياسيدى فان الشرح الخاص بنفس الإصحاح والذي ترد الإشارة فيه الى أبناء الرب الذين راودوا بنات الإنسان أن العمالقة جاءوا نتاجا لشياطين بعينها تشتت النساء وتجامعهم بلا خجل ولا حياء .

هنا تدخل ميجيل أجيلار الذى كان محققا مخضرمًا يضيف عليه علمه الواسع وخبرته الطويلة ثقة تنعكس على حديثه المتزن الهادئ .

- الشيطان، كما قال الأب أنطونيو روح، وولادة طفل من خصائص الجسم المادى الحى. ولاتملك الشياطين رغم ما تحظى به من قوى خارقة أن تضيف الحياة على الأجساد التى تتلبسها ولا أن تمنحها القدرة على إنتاج الحياة. تستطيع الشياطين أن تملأ الأرض بالأوبئة وتثير الزوابع وتصيب الرجال بالعنة وتحمل الجحيم معها أينما حلت وتدخل أجسام من لايقاوم إغراءها وتدمر وتخرب فى حياة البشر، تستطيع ذلك كله ولكنها تعجز عن إنتاج نطفة واحدة تتخلق وتنمو لتصبح إنسانا من لحم ودم .

قال ألونسو بيبوس :

- هذه الطفلة إذن ألا تنتسب للشيطان ؟

قال الأب أبيجادا بحسم :

- لا بل تنتسب الى رجل آخر حمل الشيطان منه منه مباشرة أو من شيطان آخر لأن الشياطين درجات فهناك الأكثر نبلا الذين يربأون بأنفسهم عن مضاجعة النساء فيجمعون المنى ضمن ما يجمعونه من بذور ويعطونه للشياطين الأقل التى تجامع النساء فتضع البذرة فى

المكان المناسب من المرأة .

إن الشيطان فى هذه الحالة يقوم بالفعل المطلوب
لأحداث الحمل ولكن الحمل نفسه لا يرجع لقوة الشيطان
ولا للجسد الذى تقمصه بل لقوة الحياة المستمدة من رجل
ما فى مكان ما. هذه الطفلة إذن ليست ابنة الشيطان بل
ابنة لرجل بعينه لا نعرفه ولا تعرفه المتهمة .

- إذن لن تحرق !؟

قالها ألانسو بشئ من خيبة الأمل .

- لن تحرق !

قالها أجابيدا بحسم ونهائية. ساد صمت قصير واصل
بعدها أجابيدا كلامه :

- لم يكن هذا السؤال هو ما يشغلنى لأن فى كتابات
العلماء قديمهم وحديثهم الإجابات الواضحة. ولكن السؤال
الذى يستحق المناقشة هو هل نعذب المرأة لاحتمال وجود
المزيد الذى تخفيه أم نكتفى بجلسة تحقيق آخر لنعزز
اعترافاتها ؟

أجابه ميجيل أجيلار :

- فى كلامها اليوم ثلاثة اعترافات: أولها صريح عندما
أقرت بأن رسم التيس لها، وثانيها قدمته ثم تراجع
عنه عندما قالت إن زوجها متغيب منذ ست سنوات
وإن ابنتها فى الثالثة من عمرها والثالث يؤكد
الكفر والمروق . حين قالت انها لاتدرى ان كان هناك
شيطان أم لا .

قال ألانسو مديرا :

- هذا الإنكار وحده كاف لإدانتها بالكفر فقولها إنها لا تدرى إن كان هناك شيطان أم لا إنكار لواحد من أسس العقيدة الكاثوليكية. ولكننى أعتقد أن تعذيبها واجب لأنه من المؤكد أن لديها الكثير غير ذلك.

استدار الى الأب أجابيدا وقال :

- ألم تقل لى ياسيدى القاضى قبل أن تصطحبنى للمرة الأولى لمباشرة تحقيق إن الساحرات الراسخات فى تعاملهن مع الشيطان يتحدثن بهدوء ولا يبكين ولا ينتحبن لأنهن يستندن إلى قوة الشيطان الذى يدعمهن ويصور لهن أن بإمكانه تخليصهن من عذاب التحقيق دون أى أذى يلحق بهن ؟

- هذا صحيح ولقد لاحظت ذلك اليوم. لم تبك المتهمة ولم تتوسل ولم تفقد هدوءها وهذا يؤكد أنها من عتاة المتعاملين مع الشيطان ... هل تقترحون أن نعذبها أم نجرى معها تحقيقا آخر ؟

تنحنح ميجيل أجيلار وقال :

- فى تقديرى أنه من الأنسب إجراء تحقيق آخر نعيد طرح بعض ما سبق وسألناه من أسئلة لئرى إن كانت تجيب بنفس الاجابات أم لا ونسألها أيضا أسئلة جديدة ونحدد فى ضوء كل ذلك إن كانت هناك ضرورة للتعذيب.

بدا ذلك مرضيا لثلاثتهم فقاموا لى يتناولوا عشاءهم ويريحوا أذهانهم وأبدانهم من إرهاق يوم عمل طويل .

وحدها فى زنازانتها تحاول سليمة أن تهون على نفسها. لا تنام لأن بإمكانها وهى مفتوحة العينين يقظة أن تدفع الجرذان بعيدا عنها وتتحاشى ذلك الكابوس الذى لا تملك أن تتحاشاه وهى نائمة فتصرخ مستريعة، لا تنام. ما الذى يهون الأمر حتى يهون ؟! قالت المرأة العملاقة التى تأتى بالطعام إنها ساحرة وقد ثبت ذلك وتؤكد، وإن حكم الديوان كمئات من الأحكام السابقة سيكون الموت حرقا. تتخيل ذلك، يقيدونها ويدفعون بها إلى ساحة مكتظة بالوجوه المتطلعة تنتظر إضرام النار فى الأخشاب وفيها ... كحرق الكتب ... كيف تخمل جدها أبو جعفر أن يرى لهب الحريق وهو ينتشر من كتاب لكتاب ومن ورقة لسواها تلتف على نفسها كأنما تدرأ النار عنها ولكن النار تظل تسرى، تأكل، وتجفف، وتقدد، وتقحم، ثم لاشيء، لاشيء سوى الرماد الهش؟ والمكتوب فيها ... أين يذهب المكتوب فيها ؟ والانسان، أليس الانسان كالورقة مكتوبا ... سلسلة من الكلمات كل منها دال على مدلول ومجملها أيضا ألا يشى به المخطوط من الكلام ؟ وهى سليمة بنت جعفر فى لحظة هوجاء أرادت أن تهزم الموت ثم تراجعته وقبلت بمهمة أقل استحالة. قرأت فى الكتب وطببت مريضا وأسقطت عامدة جور القشتاليين وحين

تمشى فى الأسواق لاتشغلها كباقي النساء الأسواق بل يشغلها وجه امرأة أعطتها دواء لم يشفها، تستنطق الوجه والأعراض، تقلب فى رأسها، تتساءل ما الدواء ؟

سليمة بنت جعفر " سأل المحققون " لماذا يكرهك الناس ؟ " كذبوا فلم يسألوا أهل البيازين ... هل يقدرّون على التطلع إليها وهم يضرّمون النار فيها ؟ هل يطبقون ماطابقه أبو جعفر ولم تطقه هى يوم أحرّقوا الكتب؟ وعائشة ؟ تطرد صورتها وفكرتها وتركض مبتعدة مما يهزم البدن والروح والعقل أيضا إذ يحيله إلى الجنون. تركض إلى صورة جدها أبى جعفر الكبير الذى خط الكلمة الأولى فى الكتاب. لم يكن أبوها ولا أمها بل أبو جعفر هو أول من فعل حين أعلن أنه سيعلمها كما سيعلم حسن وهمس لزوجته أن سليمة ستكون كنساء قرطبة العالمات. ضحكت جدتها وكررت الكلام فسمعتة سليمة وصار أول المخطوط فى الكتاب ... لم تقس الا على سعد فلماذا وقد أحبته وتحبه مازالت. عذبتك يا سعد فهل تغفر لى ؟ تكررها وهى لاتعرف إن كان على قيد الحياة أم سبقها إلى هناك. وهذه "الهناك" وهم أم حقيقة ؟ وهل تلتقى جدها وسعدا والصغير الذى راح وأباها هناك لو أن هذه "الهناك" هناك ؟ وكيف تتعرف على أبيها ويتعرف هو عليها ؟ هو لن يتعرف لان الوليدة التى خلفها صارت امرأة مكتهلة على مشارف الأربعين. قد تتعرف هى عليه حين تجده يشبه حسن ... مسكين حسن، أراد أن يحمى أهل بيته فجاءته المصيبة من حيث لا يدرى ولا يتوقع. ولكنه ليس وحده فمريمة معه تعمر داره وترعى عياله وترعى عائشة أيضا. اختنقت سليمة بالبكاء واهتز بدنّها وهى

تحاول جاهدة أن تكتم النشيج .

* * *

حين قبضت سليمة بيديها على قضيب الحديد المسمى بالنار وسارت به الخطوات المقررة لم يخلص المحققون كما هو متوقع بعد اجتياز اختبار من هذا النوع إلى أن المتهمة صادقة فيما تقول بل زاد يقينهم أنها تستند استنادا قويا إلى شيطان فائق الجبروت مكنها من تحمل الألم .

وكانوا في اليوم السابق قد أعادوا التحقيق معها فلم تقر بغير ما أقرت به في المرة السابقة. وإن كانت قد أشرت المزيد من الشبهة حين سألها القاضي إن كانت تسرى في الليل عبر المسافات على ظهر دابة تطير أجابت أنها لم تسمع أن بشرا تمكن من ذلك سوى محمد نبي المسلمين. ولما سألها القاضي أن تفصل كلامها وتوضحه حكّت عن دابة مجنحة حملت محمدا من مسجد في مكة إلى مسجد ستواه في القدس. وعندما أراد القاضي أن يعرف منها إن كانت تؤمن أن ذلك حدث فعلا راوغت وقالت : "لقد تعمدت وصرت نصرانية " .

ونبهت تلك التفاصيل الجديدة المحققين إلى عنصر جديد في القضية غاب عن أذهانهم وهو أن تهمة المروق والارتداد قد لا تقتصر على تعامل المتهم مع الشيطان بل قد تمتد إلى صدق عقيدتها اذ يبدو أنها، رغم التعميد، لم تتخل عن دينها الحمدي. وفي هذه الحالة يكون تعاملها مع الشيطان مقصودا للإضرار بالكنيسة الكاثوليكية .

حاول المحققون حملها على الاعتراف بذلك وعندما فشلوا عرض عليها القاضى الاختيار وحذرهما قائلاً:
" لاتستهيئنى به فعليك أن تتحملى قضيباً من الحديد المحمى " ولكنها قالت إنها مستعدة ورآها المحققون وهى تحمل القضيب بكلتى يديها وتمشى به فكيف ؟! أثار السؤال الرعدة فيهم وفى الكاتب الذى وضعوا له منضدته فى جانب من الفناء لكى يشهد كل شىء بنفسه ويسجله .

بعد انسحاب المحققين هنا القاضى نفسه وزمليه لأنهم لم يستهيئوا بتلك المرأة واتخذوا المنصوح به من الاحتياطات لمواجهة قوة سحرها الشرير . كان كل منهم قد تحصن بتعويذة من الملح المقدس وورقة دون فيها الكلمات السبع التى قالها السيد المسيح من على صليبه وعلق كل منهم التعويذة حول رقبتة تلامس صدره يخفيها ثوبه الرهبانى الأسود .

قال الأب أجابيدا وهو يهز رأسه بأسى :

- ليس هناك بد من التعذيب !

فوافقه مساعداه بهز رأسيهما. وبدأ الألسو ماديلا مغتبطا بما ستلقاه امرأة ضالعة فى الكفر. أما ميجيل أجيلار فقد بدا وجهه هادئاً مسلماً بأن هذه هى الاجراءات المعتادة لاستخلاص الحقيقة من خطاة يتصفون دائماً بالكبر والعناد اللذين حولاً إبليس من ملاك نبيل من ملائكة الرب إلى شيطان رجيم .

* * *

فى يوم النطق بالحكم ساقوا سليمة مقيدة إلى ساحة باب الرملية. وشق لها الحراس الطريق وسط الجموع المحتشدة لمتابعة المحاكمة ثم التنفيذ .

وكانت سليمة تجتهد فى تحمل مشقة السير على قدمين متورمتين ملتهبتتين من جراء التعذيب وتحاول أن تتحاشى احتكاك يديها المقيدتين من الرسغ خلف الظهر، ببعضهما أو بثوبها. كانت يداها مازالتا تؤلمانها من أثر القبض على قضيب الحديد الحصى. لم تكن تتطلع إلى من حولها بل شغلتها أفكارها. سيحكمون عليها بالموت فلماذا لا تتزعزع أحشاؤها خوفا ولا تصيح فزعا أو ثورة، هل لأنها تمنى الموت وتضرعت لله تطلبه حتى بدا الموت خلاصا من عذاب لا تطيقه النفس ولا البدن ؟ أم لأنها سلمت أمرها لله كعتاة المؤمنين الذين تضىء السكينة والقبول قلوبهم حتى وإن لم يكن قضاء الله مفهوما ولا مقبولا ؟ أم أن الأمر بعيد عن ذلك وأنها قررت بلا تفكير ولا تدبير أنها لن تهين نفسها بالصراخ والتضرع أو حتى بالارتياح كالفتران فى المصيدة ؟ لن تضيف على المهانة مهانة، والعقل فى الإنسان زينة والكبر فى النفس جلال، بإمكانها أن تمشى الآن، كإنسان يملك روحه وإن كان يمشى لنار المحرقة. بإمكانها أن تقول نعم أنا سليمة بنت جعفر أنشأنى رجل جليل يصنع الكتب واحترق قلبه يوم شاهد حرق الكتب فمضى فى صمت نبيل. وأنا يا جدى صرخت ساعة التعذيب، صائح، واختل منى العقل والبدن، لحظات يا جدى لحظات، ولكنى لم أقل شيئا تخجل منه. قرأت فى الكتب كما علمتنى وطيببت أوجاع الناس ما

... حلت وحلمت يا جدى أن أهديك يوما كتابا أخطه بىدى
وأودعه خلاصة ما قرأت ولمسته فى الأبدان يدأى ... أردت،
لولا سجن زمان يا جدى .

تطلعت سليمة من حولها. كان الحشد قد سكن سكونا
غريبا. وكان المحققون الثلاثة يجلسون على منصة قريبة
عالية والقاضى يقرأ بصوت جهورى يتردد فى المكان :

" ... ولقد أردنا التأكد من التهم الموجهة إليك والتحقق
من صحتها أو بطلانها وإذا ما كنت تمشين فى النور أو
الظلام فاستدعيناك للتحقيق وجعلناك تقسمين أمامنا
وسألنا الشهود والتزمنا بكافة القواعد التى تملئها علينا
قوانين الكنيسة . ورغبة منا فى تحقيق القدر الأمثل من
العدالة فقد اجتمع مجلس موقر من علماء اللاهوت
والمتبحرين فيه وبعد أن قمنا بفحص ومناقشة كافة
أركان القضية وكل ما أدليت به فى التحقيقات توصلنا
إلى أنك أنت المدعوة جلوريا ألفاريز التى كان اسمك
قبل التعميد سليمة بنت جعفر متهمة بالكفر لأنك كنت
أداة للشيطان وخادمة له تحتفظين بالبذور التى يجمعها
وتعدين المركبات الشيطانية التى تؤذى البشر والدواب .

ورغم إنكارك فقد ثبت بشهادة الشهود أنك تسببت فى
موت طفل فى بطن أمه وآخر كان مريضا فأهلكته .

كذلك ثبت ارتدادك عن الكنيسة التى احتضنتك
وأرادت الخلاص لروحك واتضح أنك رغم التعميد مازلت
مبقية على دينك المهدى وولائك لنبي المسلمين .

ورغم ذلك فقد أردنا ومازلنا نريد لك الرجوع إلى الحق والتوبة عن الكفر والولاء للشيطان الذى هو الكفر بعينه، والعودة إلى أحضان الكنيسة المقدسة وإلى العقيدة الكاثوليكية وذلك لتجنبى نفسك الهلاك فى الدنيا وفى الآخرة ... ولقد حاولنا جاهدين أن نحمك على ذلك وأجلنا النطق بالحكم فترة طويلة على أمل أن تفصحى عن ندمك ولكن كبرك وعنادك وغيك فى الخطيئة جعلتك تواصلين الإنكار. وإننا نعلن بكل الحزن والأسى عدم نجاحنا فى حملك على التوبة .

ولكى يعتبر كل ذى عقل ونفس سوية وينأى عن طريق الكفر العباد، ولكى يعرف الكافة أن المروق لايمكن أن يمر بلا عقاب أعلن أنا القاضى أنطونيو أجابيدا، نيابة عن الكنيسة، وأنا جالس هنا وأمامى الأناجيل الأربعة، أعلن حكمى وليس نصب عينى سوى الرب وشرف العقيدة ومجدها :

حكمنا عليك وأنت واقفة أمامنا هنا فى ميدان باب الرملة أنك كافرة لاتوبة لها، عقابها الموت حرقا .

صخب الأصوات وجلبة الجموع المحتشدة تدق فى رأس سليمة كمطارق عالية تختلط بدقات قلبها ونبض فى معدتها. لاتريد أن تتطلع حولها، لاتريد، تخشى العيون، عيون قشتالية تبتسم مزهوة تنهيا للفرجة، وعيون عربية يفيض القلب أمام نظرتها الحانية أو المرتاعة. لاتتطلع ولكنها تسمع صوتا كأنه صوت سعد، لاتتطلع.

يفكون بعض قيودها ويدفعون بها فى اتجاه الأخشاب.
ورغم ان مريمة كانت مثقلة القلب ومضطربة لتأخير
سعد وحسن الا أنها لم تملك أن ترفض طلب عائشة بأن
تقص عليها حكاية فبدأت تحكى:

" فى السماء يا عائشة شجرة كبيرة تحمل أوراقا
خضراء بعدد أهل الأرض، كل أهل الأرض، الصغار
والكبار، البنات والبنين، من يتكلمون العربية مثلنا
ومن لا يتكلمونها. شجرة كبيرة يا عائشة تتساقط منها
أوراق وتنبت أوراق بلا توقف. وفى ليلة القدر من كل
سنة تزهر الشجرة زهرة غريبة عجيبة . وفى تلك
السنة التى حدثت الحكاية فيها أزهرت الشجرة ... "

توقفت مريمة وقد تاه منها الكلام . كان عقلها مشتتا
تفكر فى سبب تأخر حسن وسعد ... هل يكون الحكم على
سليمة اليوم ؟

- وبعدين ياخاله مريمة ... وبعدين ؟

نظرت مريمة إلى وجه الصغيرة واستنشقت نفسها
عميقا وزفرت وواصلت الحكاية .

إشارات

استفدت من عشرات الكتب التاريخية والدراسات التي مكنتني من معرفة الملامح الأساسية للمرحلة التي أتناولها . ولا أرى داعيا لذكرها جميعا وأكتفى بالإشارة لأهمها: مقدمة الإحاطة في أخبار غرناطة للسان الدين بن الخطيب، حققه محمد عبدالله عنان (القاهرة، ١٩٧٣) . و أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر وهو لمؤلف مجهول عاصر سقوط غرناطة. ووثائق عربية غرناطية من القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي ، حققه لويس سيكو دي لوثينا (مدريد ١٩٦١). نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين لمحمد عبدالله عنان (القاهرة، ١٩٥٨) . و التنصير القسري لمسلمي الأندلس في عهد الملكين الكاثوليكيين لمحمد عبده ختملة (عمان، ١٩٨٠) وعدد من الدراسات لنفس المؤلف منشورة في حوليات الجامعة الأردنية. وكتب هنري شارلز لي وبالأخص كتابه حول المورسكيين:

The Moriscos of Spain : Their Conversion and Expulsion

(N. Y. 1968).

وبحوث قدمها الدارسون في ندوات متخصصة عقدت في المغرب وتونس وأسبانيا منها البحوث التي جمعتها سلمى الخضراء الجيوسي وصدرت مؤخرا تحت عنوان

The Legacy of Muslim Spain (Leiden, 1992).

والنص المعتمد من الكنيسة لاستخدام المحققين في محاكم التفتيش في القرنين الخامس عشر والسادس عشر، وهو من تأليف كرامر وسبرنجر وقد ترجم الى الإنجليزية وأعيد نشره تحت عنوانه اللاتيني

Malleus Maleficarum (N.Y. 1971).

* الأبيات المقتبسة ص ١١٤ من شعر ابن عربى .

* قصة معركة المهلهل ص ١١٥ - ١٢٠ منقولة مع تصرف بسيط وأحيانا بعض الحذف ، من ترجمة صلاح فضل لهذا النص الأندلسى الشعبى الذى يورده ضمن نصوص أخرى فى كتابه ملحمة المغازى المورسكية (القاهرة، ١٩٨٢) .

* الرسالة المقتبسة ص ١٧٣ - ١٧٤ وثيقة تاريخية عثر عليها محمد عبدالله عنان فى مكتبة الفاتيكان الرسولية بروما وضمنها كتابه نهاية دولة الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين (القاهرة، ١٩٥٨) .

رقم الايداع: ٣٥٩٨ / ١٩٩٤

I . S . B . N

977-07-0324-9

هذه الرواية

تدور أحداث الرواية فى الفترة اللاحقة
لمعاهدة تسليم غرناطة التى وقّعت فى
نوفمبر ١٤٩١.

ولا تتناول الرواية حياة الملوك والساسة
بل الحياة اليومية للبشر العاديين الذين
كتب عليهم أن يعيشوا زمن السقوط ذاك.
ويمزج النص بين ما شهدته تاريخ تلك
المرحلة: قمع الاحتلال، حرق الكتب، ثورة
البيازين، محاكم التفتيش، «اكتشاف العالم
الجديد» وتفاصيل حياة أسرة عربية من
غرناطة، حياة تموج بالنبل والعذاب
والشجاعة والحذر والمضحكات والطرائف.
«غرناطة» رواية تربط بين المصير
التاريخى المحتوم ومنمنمات الحياة اليومية
فى مفصل زمنى شهد سقوط مفردات عالم
كامل، وتشكل نقيضه الفادح.



د. رمى عاشور

● مواليد القاهرة ١٩٤٦

● تشغل وظيفة أستاذ

بقسم اللغة الإنجليزية

وآدابها بكلية الآداب،

جامعة عين شمس. صدر

لها: الرحلة : أيام طالبة

مصرية فى أمريكا، ١٩٨٣

حجر دافىء (رواية) ١٩٨٥.

خديجة وسوسن (رواية)

١٩٨٩. رأيت النخل

(مجموعة قصصية) ١٩٨٩.

منراج (رواية) ١٩٩٢. ومن

دراساتها النقدية :

- دراسة فى أعمال

غسان كنفانى، ١٩٧٧.

- والرواية فى غرب

افريقيا ١٩٨٠.

روايات الهلال تقدم

لبن العصفور

بقلم

يوسف القعيد

تصدر : ١٥ مايو ١٩٩٤



كونيكا Konica



كاميرات
أفلام
معامل طبع وتحميض
شرايط قيديو



الوكيل

٩٦ ش أحمد عرابي
ت: ٣٤٤٠٥٨٣ فاكس: ٣٤٦٦٥٩٣

شركة إيساي

